مكتبة التاريخ الوسيط

ريموندا جيل

تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس

نقله الى الإنجليزية مع مقدمة وهوامش

جون هيو هيل   لوريتا ل هيل
جامعة هوستون

نقله الى العربية وعلق عليه

دكتور
حسين محمد عطية
كلية الآداب - جامعة طنطا

تقديم

الأستاذ الدكتور
جوزيف نسيم يوسف
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١/١/٨ ٥١٥٠

الطبعة الأولى
١٩٨٩

٢٠٧٥٥
١٢/٢/٠٥

دار المعرفة الجامعية

تقـــــــديم

بقلم الأستاذ الدكتور

جوزيف نسيم يوسف

صاحب بداية الحركة الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى تطور فن الكتابة التاريخية فى الغرب الأوروبى .. إذ لم يقتصر التدوين على نظام الحوليات الذى كان سائدا من قبل ، بل تحول إلى الكتابة تفصيلا فى مواضيع متخصصة . ولقد خلفت تلك الحركة التى شغلت ثلاثة قرون من الزمان ، عشرات المصادر لمؤرخين شاهدوا أحداثها أو كانوا على مقربة من مسرح الأحداث . وكانت الحملة الصليبية الأولى أوفر حظا من غيرها . إذ شارك فيها كثير من الفرسان الذين كانوا شهود عيان لمعظم المعارك التي دارت رحاها فوق رقعة الشرق الأدنى الإسلامى مثل المؤرخ المجهول الذى صاحب بوهيموند النورماندى فى الحملة ، وفوشيه دى شارتر Foucher de Charters ، واتين دى بلوا Etiennw de Blois، والبرت دكس Albert d'Aix ، وريمون داجيل Raimond d'Agiles وثمة عدد غير قليل ممن لم يشتركوا فيها ، ولكنهم حفظوا لنا أخبارها التي كانت ترد إليهم فى الغرب عن طريق الرواة والحجاج وشهود العيان فى كتب لا تزال باقية إلى اليوم مثل مؤلفات روبرت الراهب Robert le Moinw ، وجيبرت دى نوجان Guibert de Nogent ، وتهديبوده Tudebodus ، وبودرى دى بورجى Baudri de Bourgueil ، وراول دى كان Raoul de Caen ، وكفارو الجنوى Caffaro de Caschifelone .

ويحتل مؤلف ريمون داجيل الذى وضعه باللاتينية بعنوان "Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem" ، أى « تاريخ الفرنجة الذين استولوا على بيت المقدس » ، مكانة مميزة بين مؤلفات غيره من مؤرخى الحملة الأولى . لقد عاصر أحداثها ، وكان شاهد عيان لها ، ويعتبر من أوائل من كتبوا عنها . كان من كبار الفرسان المقربين إلى ريمون دى سان جيل كونت تولوز وأحد زعماء الحملة الأولى . كما كان على علم بما يدور فى مجالس الحرب التي عقدها زعماء

تلك الحملة ، الأمر الذي يضفي على كتابه أهمية خاصة تجعله لايقل في قيمته عن تآليف زملائه ممن شاركوا فيها وكتبوا عنها .

ولما كان ريمون داجيل محدود الثقافة والتعليم فلقد وضع كتابه بلغة لاتينية ركيكة . والمتصفح للكتاب يلاحظ أن مؤلفه كان يتردد أحيانا في سرد بعض الأحداث حتى لايقع في أخطاء - كما قال هو عن نفسه - قد تقلل من قيمة الكتاب . وإن كان هذا لايمنع من أنه في بعض الأحيان كان يقبل مايروى له أو مايسمعه كحقيقة ثابتة . أما الوقائع التي كان شاهد عيان لها أو التي شارك فيها بشخصه ، فقد اتسمت عموما بالدقة والوضوح والإسهاب . وإن كانت عاطفته الدينية - بالإضافة إلى كونه من رجال الدين - تجعله يتخذ في كثير من المواقف جانب التحيز لبني جنسه من اللاتين الكاثوليك ضد كل من المسلمين والبيزنطيين الأرثوذكس وامبراطورهم الكسيس الأول كومنين ، الذين كانوا في نظر الكنيسة الرومانية ذوي عقيدة متطرفة . كما أن المدقق في الكتاب يدرك أن مؤلفه كان يدافع عن سيده ويتحمل له مختلف الأعـذار إذا أخطأ أو تهاون في أمر من الأمور . ويبلغ من احترامه له أنه عندما كان يتعرض له يكتفي في معظم الأحيان بقوله « الكونت » دون حاجة إلى ذكر إسمه ، فهو في نظره غني عن التعريف .

ورغم كل ذلك ، لا لوم عليه ، فقد كانت تلك هي سمة العصر في الغرب اللاتيني . إذ اهتم المؤرخون اللاتين بصفة عامة بتمجيد الملوك والأمراء من قادة تلك الحملات ، واتصفوا بتحيزهم لبني جلدتهم من أهل الغرب . واتسمت كتاباتهم بسمة دينية واضحة اختلط فيها السحر بالدين والأسطورة بالحقيقة لاتفصل بين النقيضين سوى خيط رفيع . الأمر الذي يفرض على الدارسين والباحثين توخي الحيطة والحذر عند تناولهم لهذه المؤلفات . ومع ذلك ، يجب أن نسجل هنا أن ريمون داجيل حفظ لنا في مؤلفه الكثير من الوقائع والأحداث المتعلقة بالحملة الأولى والتي إنفرد بها ولم ترد في الأصول الأخرى من لاتينية وعربية وبيزنطية وأرمينية وسريانية ، الأمر الذي يسبغ على الكتاب أهمية مضاعفة .

ومؤلف ريمون داجيل منشور في الجزء الأول من مجموعة بونجار Bongars المعروفة باسم « الأعمال التي أتاها الفرنجة بفضل الله » ص ١٣٢ - ١٨٣ (طبع هانوفر ١٦١٢) ، وفي الجزء الثالث من مجموعة « مؤرخي الحروب الصليبية - المؤرخون الغربيون » ص ٢٣١ - ٣٠٩ (طبع باريس ١٨٦٦) . وقد قام بنقل هذا الكتاب من الأصل اللاتيني إلى اللغة الإنجليزية كل من جون هيو هيل John Huge Hill ولوريتا ل. هيل Laurita L. Hill تحت اسم "History of the Franks Conquerers of Jerusalem" أي « تاريخ الفرنجـــة غزاة بيت المقدس » . طبع فيلادلفيا سنة ١٩٦٨ .

وبعد ، يسعدني حقيقة أن أقدم للقارىء العربي الكريم الترجمة العربية لهذا المصدر الهام ، والتي أعدها أحد شبابنا النابهين عن الترجمة الإنجليزية للأصل اللاتيني . وهو الدكتور حسين محمد عطية حسن مدرس تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة طنطا . والدكتور حسين عطية عشق تخصصه ولبغ فيه . وإن إقدامه بشجاعة على نقل هذا المصدر إلى العربية للمرة الأولى يعتبر إضافة لها وزنها إلى مكتبة تاريخ الحروب الصليبية بصفة خاصة وتاريخ العلاقات بين الشرق والغرب بوجه عام .

لقد مهد المترجم لكتاب ريمون داجيل بمقدمة متعمقة تعتبر بحثا في حد ذاتها ، كشف فيها عن أهمية الكتاب من الناحية التاريخية ، وسبب اختياره لهذا المؤلف بالذات دون غيره من مؤلفات الحملة الأولى لينقله إلى العربية . كذلك حالفه التوفيق في عرض الظروف التي أحاطت بقيام الحملة في الشرق والغرب ، والقوى التي أدت دورها فوق مسرح الأحداث وقتها من صليبية وبيزنطية وإســـلامية ، وبيّن كيف تصـــارعت تلك القوى وتشـــابكت وتداخلت فيما بينها ، وكيف تحكمت في سلوكها وتصرفاتها مصالحها الخاصة أولا وقبل أي شيء آخر . كذلك قدّم دراسة تحليلية نقدية مقارنة بين مؤرخي الحملة من شهود العيان وغيرهم من المعاصرين والمتأخرين نسبيا عن احداثها من اللاتين والبيزنطيين والمسلمين تتميز بالدقة والعمق . واختتم مقدمته بدراسة طيبة عن ريمون داجيل ومؤلفه أجاب فيها بحيدة ...

تصدير الترجمة العربية

منذ أكثر من عشر سنوات مضت ، وخلال قيامي بإعداد بحثي لنيل درجة الماجستير عن « إمارة أنطاكية الصليبية وعلاقاتها السياسية بالدول الإسلامية المجاورة (١٠٩٨ - ١١٧١ م) » ، وتعاملي مع الأعمال التاريخية التي وضعها مؤرخو الحملة الصليبية الأولى ، ومن بينها تاريخ ريموندا جيل ، شعرت بأن هناك مايميّز الأخير عما سواه من مصادر هذه الحملة . ولكني - كمبتدئ - لم أدرك من طبيعة هذا التميّز إلا القليل . وخلال إقامتي في المملكة المتحدة ، في بعثة اشراف مشترك (بجامعة ويلز) ، لإعداد بحثي لنيل درجة الدكتوراه عن « إمارة أنطاكية الصليبية وعلاقاتها السياسية بالقوى الإسلامية المجاورة (١١٧١- ١٢٦٨ م) » ، استكمالاً لموضوع الماجستير ، وتحت إشراف كل من أستاذي الدكتور جوزيف نسيم يوسف أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الاسكندرية وأستاذي الدكتور بيتر وليام إدبيري Peter W. Edbury استاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة ويلز ، تجدد شعوري السابق نحو تاريخ ريموندا جيل . إلا أن الفرصة كانت أمامي كبيرة لأدرك مايشغلني حول هذا التاريخ ، خاصة عندما حصلت على الترجمة الانجليزية لهذا العمل ، والتي نشرها الأمريكيان جون هيوج هيل والسيدة قرينته لوريتا هيل في عام ١٩٦٨ م ، وعكفت على قراءة هذه الترجمة ومقارنتها بالنص اللاتيني المنشور في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية (RHC-H. Occ.) . ودفعني إلى نقل هذه الترجمة إلى لغتنا العربية عدة أسباب . أولها أن الترجمة الانجليزية اعتمدت على المخطوط الكامل لتاريخ ريموندا جيل . إلى جانب قيام الناشرين بمقارنة ماورد في هذا المخطوط بكل النسخ المخطوطة المتوفرة لتاريخ ريموندا جيل ، بما في ذلك النسخة المنشورة في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية والنسخة التي نشرها بونجار في مجموعته . وبذلك توفر للترجمة الإنجليزية الإلمام بكل ما سجل من تاريخ ريموندا جيل .

الاستفهام التي ثارت حول موقف المؤرخ عن سيده ريمون دي سان جيل وحيال كل من الصليبيين والبيزنطيين والمسلمين ، وخلص من ذلك إلى رسم صورة دقيقة لشخصية المؤرخ ومنهجه في الكتابة وأسلوب عرضه لأحداث ذلك الزمان .

وأخيرا وليس بآخر ، فإن المتمعن في هوامش الترجمة العربية سوف يدرك أنها عالجت العديد من القضايا الهامة التي أثارها ريمون داجيل في كتابه وأغفلتها الترجمة الانجليزية أو مرت عليها مرورا سريعا ، بينما تناولها الدكتور حسين عطية بالدراسة والتمحيص مرتقا إياها بالمصادر والمراجع المتخصصة من عربية وغير عربية .

لكل ما تقدم تعتبر هذه الترجمة التي بين أيدينا بالدراسة التي تسبقها والهوامش التي ذيلها بها الدكتور حسين عطية إضافة لها ثقلها إلى المكتبة العربية لتاريخ الحروب الصليبية .

دكتور جوزيف نسيم يوسف
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

تحريراً في ١٦ أكتوبر ١٩٨٩

ضمن ما نشره من مصادر تاريخ الحروب الصليبية في مجموعته «أعمال الرب التي تمت بأيدي الفرنجة» Gesta Dei per Francos منذ ما يزيد على قرن من الزمان، فإن تاريخ ريموندا جيل مازال في حاجة إلى دراسة نقدية جديدة [4].

ولاشك أن الدراسة السابقة التي قام بها الناشران عن شخصية ريموند الرابع كونت تولوز، إلى جانب دراستهما الدقيقة لفكر ريموندا جيل وثقافته الدينية، قد مكنتهما من الإلمام بكل جوانب شخصية المؤرخ وتكوينها الفكري.

وبالرغم من ذلك، فقد مرت الترجمة الإنجليزية على بعض القضايا التاريخية الهامة، التي أثارها تاريخ ريموندا جيل، مرور الكرام، دون التعرض لها، أو الادلاء فيها برأى قاطع. واقتصرت الترجمة في ذلك - وربما ارتباطا بمهمة ترجمة النص فقط - على نقل النص اللاتيني إلى الانجليزية. الأمر الذي لايجعل من مهمة الناشرين نهاية المطاف بالنسبة لتاريخ ريموندا جيل، والذي ترك لي فرصة معالجة هذه القضايا في هوامش منفصلة أحيانا، أو ترتبط بهوامش الترجمة الانجليزية في بعض الأحيان.

والى جانب ذلك، فقد أسعدني أن أقدم لقراء العربية الكرام، وللباحثين في تاريخ الحروب الصليبية، في وطننا العربي، كتاب ريموندا جيل - لأول مرة - باللغة العربية.

ولم يكن يتيسر لي ذلك لولا التعاون الصادق، والتوجيه المثمر، والتشجيع الدائم، الذي أولاني إياه أستاذي الجليل الأستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف، أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الاسكندرية، الذي شجعني على إنجاز هذه الترجمة، وأفادني كثيرا بما أمدني به من توجيهات أضافت قيمة كبيرة إلى هذا العمل.

وكان لما قدمه لي أستاذي الدكتور بيتر وليام إديبري أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة ويلز من إرشاد وتوجيه أثر كبير في معالجة الكثير من قضايا هذا العمل.

ولا يسعني إلا أن أسجل شكري وامتناني لهذين العالمين الجليلين اللذين كان لتوجيهاتهما دور كبير في خروج هذا العمل إلى حيز الوجود، وهو ما كان سيلقى من العلم، وأسأل الله العلي القدير أن ينفع به أمتنا الاسلامية، والله ولي التوفيق.

الاسكندرية

سبتمبر ١٩٨٩ م

حسين عطية

مقدمة الترجمة العربية

الحملة الصليبية الأولى :

تمثل الحركة الصليبية ظاهرة من أهم مظاهر العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى . فهى أول وأقصى رد فعل للغرب المسيحى ضد العالم الإسلامى منذ ظهور الإسلام . وكان لهذه الحركة وما ترتب عليها من نتائج ، آثار بالغة الأهمية على العالمين المتصارعين ، الشرق والغرب . ولما جذبت الحركة الصليبية أطرافا متعددة للصــراع ، وارتبطت أحداثها ، التى وقعت فى بلاد الشام ، بالمتغيرات الدولية آنذاك ، وبظهور قوى واختفاء قوى أخرى شاركت بشكل مباشر أو غير مباشر فى مسار هذه الحركة ، وفى تحديد طبيعة نتائجها ، فإن ماتم حولها من أبحاث تاريخية ، لم يعثر على كل جوانبها . كما لم يكتب فيها القول الفصل بعد . فما زال موضوع الحروب الصليبية يمثل مجالاً خصبا للبحث التاريخى . وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للحركة الصليبية بصفة عامة ، فإن تاريخ الحملة الصليبية الأولى بصفة خاصة ، وما طرأ عليها - كمشروع بابوى بالدرجة الأولى - من تطورات ، لم تكن فى مخيلة البابوية ، ولا من قادوا هذه الحملة إلى بلاد الشام أصلا ، يحتمل بحوثا واسعة تجمع بين العلم بأصوله ومنابعه ، الشرقية والغربية على قدم المساواة ، سعيا وراء الحقيقة التاريخية المطلقة [1] .

فقد كانت الحملة الصليبية الأولى التي قام بها غرب أوروبا ، استجابة لدعوة البابا أوربان الثانى Urban II (١٠٨٨ - ١٠٩٩ م) في مؤتمر كلير مونت الكنسى (١٨ - ٢٨ نوفمبر ١٠٩٥ م) هى البداية الحقيقية للحركة الصليبية . وإذا كانت هذه الحركة فى مجملها تعد مشروعا فاشلا [2] ، فإن الحملة

---

(١) جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى ، الاسكندرية ، ١٩٨٩ (الطبعة الثالثة) ، ص ١ .

(٢) Peter Charanis, Aims of the medieval Crusades and how they were viewed By Byzantium, C. H. 21. 1952. p. 131.

الصليبية الأولى ، بما حققته من إنجازات عسكرية فى فترة زمنية قياسية ، تعد أكثر الحملات الصليبية نجاحاً [١] .

فمن الناحية العملية نجحت هذه الحملة فى تحقيق أهم الأهداف التى حددتها لها البابوية ، واستولى الصليبيون على مدينة بيت المقدس من المسلمين ، ولأن البابا أوربان الثانى لم يشر ، فى خطبته فى كليرمونت ، إلى مصير فتوحات المستقبل ، فقد بدت الثروات التى وعد بها هذا البابا هؤلاء الذين سيتوجهون إلى الشرق ، وكأنها أسلاب أكثر منها أملاك [٢] . وتعدت الحملة هدفها المنشود . فأسس الصليبيون إمارة أنطاكية على مشارف بلاد الشام ، وأقاموا كونتية الرها على ضفاف الفرات ، ووضعوا النواة الأولى لكونتية طرابلس فى وسط بلاد الشام ، وفى فلسطين ، أقاموا مملكة بيت المقدس الصليبية .

---

(١) بينما فشلت الحملة الصليبية الثانية فى استرداد الرها ، أو فى وقف تقدم نور الدين محمود والخطر الاسلامى المحدق بالصليبيين فى بلاد الشام ، فقد فشلت الحملة الثالثة فى استرداد مدينة بيت المقدس من أيدى صلاح الدين ، وكانت هذا هو الهدف الاساسى للحملة ، بينما أصبح دور ريتشارد ينحصر فى تحكيم مشكلة حكم المملكة الصليبية أكثر من تحرير المدينة المقدسة ذاتها . وجاءت الحملة الرابعة لترفرف لمن قاموا بها فرصة الثأر من بيزنطة ، ولم تحقق للفرنج الشام أية مكاسب . وكانت مصر هى هدف الحملتين الخامسة والسابعة ، وفشلت كلاهما فى فتح مصر ، وفشلت كلاهما أيضا فى استعادة بيت المقدس . أما الحملة السادسة ، فبالرغم من نجاح فردريك الثانى فى تحقيق ما فشل فيه غيره من قادة الحملات الصليبية - استعادة بيت المقدس - إلا أن حملته قد بثت بذور الحرب الأهلية بين فرنج الشام ، الأمر الذى أضعف الجبهة الصليبية طوال العقود الثلاثة الباقية من عمر الكيان الصليبى فى ديار الاسلام . انظر :

John La Monte, From Crusading Kingdom to Commercial Colony, BFIASA, XIL, 1944, PP. 288 - 299.

(٢) J. Prawer, The Latin Kingdom of Jerusalem, Jerusalem, 1972, p. 34

وربما يبدو للوهلة الأولى للمتتبع لتاريخ الحملة الصليبية الأولى أن الفرنج قد نجحوا فى تحقيق الأهداف التى حددتها البابوية لهذه الحملة فاستردوا الأراضى المقدسة من المسلمين ومدوا يد المساعدة لإخوانهم مسيحيى الشرق البيزنطيين ، مما ينبئ عن رأب للصدع الذى أصاب العلاقات بين الكنيستين الشرقية - كنيسة القسطنطينية ، والغربية كنيسة روما وبذلك يكون الصليبيون قد فازوا بالغفران الذى وعدهم به البابا وفازوا لأنفسهم القادة بإقطاعيات خاصة بهم فى الشرق والعامة بأسلاب المسلمين والجميع بالرفاء بشرهم الصليبى بزيارة الأماكن المقدسة [١] .

إلا أنه بالتمعن فى دقائق أحداث الحملة الصليبية الأولى ، والعلاقات التى سادت بينهم وبين الإمبراطور البيزنطى ألكسيس كومنين ، ثم بينهم بعضهم البعض ، يتضح أن إنجازات الحملة الأولى لم تكن تحمل فى طياتها إلا بذور الضعف والإنقسام ففى القسطنطينية ، كان الشك والريبة هما السمات الغالبة على العلاقات بين الامبراطور وقادة الحملة ، الذين لم تترك قواتهم سوى الذكريات المؤلمة لدى رعايا الإمبراطور ، على طول الطريق من دورازو وحتى القسطنطينية [٢] ولم تكن طموحات غالبية قادة الحملة تسمح لهم بالإلتزام ببنود إتفاقية القسطنطينية (مايو ١٠٩٧م) [٣] ، وخارج أسوار أنطاكية ، ظهرت كوامن بوهيمند

---

(١) Dana Munro, The speech of Pope Urban II at Clermont, 1095, AHR, XI, 1905 - 1906, pp 231 - 242

(٢) Steven Runciman, The First Crusaders' Journey across The Balkan Peninsula, B [illegible] 1948, pp 207 - 221

(٣) لم يكن الامبراطور البيزنطى ليستطيع استرداد أملاكه التى استولى عليها السلاجقة من قبل فى آسيا الصغرى إلا بالتحايل على الفرنج كما حدث فى نيقية أو لعدم مواتية [illegible] آسيا الصغرى لمطامع الفرنج وعن بنود اتفاقية القسطنطينية انظر جوزيف نسيم العرب والروم ص ٢٣٣

التورمانى ، وغلبت عليه خصاله وكراهيته لبيزنطة ، وكل ما ورثه عن أبيه روبرت جويسكارد (١) . وحين سقطت أنطاكية فى أيدى اللاتين ، بدأ بوهيمند يتصرف كسيد أوحد لها (٢) ، مطيحا دون أن يدرى ، بآمال البابا أوربان الثانى فى إمكانية احتواء كنيسة القسطنطينية ، أو اكتساب ولاء الامبراطور البيزنطى يوما (٣) . وعند هذه النقطة - خارج أسوار أنطاكية - سادت الأحقاد المكبوتة بين قادة الحملة ، وكانت خطرا يماثل الخطر الاسلامى ، وتبع ذلك ، الإفلاس الأخلاقى ، وانحلال الجيش الصليبى (٤) . وكشفت العلاقات بين قادة الحملة عن المعنى الحقيقى للحركة الصليبية ، فكثيرا ماتوارى الدين أمام المصالح الخاصة بالنبلاء ، وتأكد الحرص على المصالح الخاصة دون الصالح الصليبى العام ، الذى ظهرت بوادره بمجرد انتهاء الفرنج من أعباء عبور آسيا الصغرى (٥) . ورحل القادة عن أنطاكية

(١) George Ostrogorsky, History of the Byzantine State, English trans. by Joan Hussey, Oxford, 1956, pp. 322.

(٢) عقد بوهيمند مع الجنوية إتفاقيـــة ١٤ يوليو ١٠٩٨ م / ١١ شعبان ٤٩١ هـ ، منحهم بمقتضـــاها إمتيازات كبيرة فى أنطاكية ، نظير مساعدتهم له فى الدفاع عنها ضـــد منافسيه . انظر :

H. Hagenmeyer, ed., Die Kreuzzugsbriefe : Epistolae et Chartae ad historiam primi belli Sacri spectantes, Innsbruck, 1901, pp. 155 - 160.

راجع أيضا الترجمة العربية للمعاهدة المتبادلة بين بوهيمند والجنوية ، انظر : حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية وعلاقاتها بالدول الاسلامية المجاورة (١٠٩٨ - ١٢٦٨ م) ، رسالة ماجستير لم تنشر بعد ، الاسكندرية ، ١٩٨١ م ، ملحق رقم ٣ ، ص ٣٠٢ - ٣٠٥ .

(٣) Bernard Hamilton, The Latin Church in the Crusader States, London, 1980, p. 17.

(٤) J. Prawer, op. cit., p. 14.

(٥) تخلى كل من تنكريد وبولدوين عن الحملة ، وانفصلا عن الجيش الصليبى ، وراح الأول ، يبحث لنفسه عن وضع متميز فى سهل قيليقية ، بينما قام الثانى بنفس المحاولة على ضفاف الفرات . وللمزيد عن حملة بولدوين وتنكريد على الرها وقيليقية ، انظر :

Fulcher of Chartres, Gesta Francorum Iherusalem (ed. by Frances Rita Ryan), as A History of the Expedition to Jerusalem, Tennessee, 1969, pp. 88 - 92.

Radulf of Caen, Gesta Tancredi, RHC-H. Occ., III, pp. 629-649.

ما عدا بوهيمند - وأغاروا على بلاد المسلمين ، كل يحاول أن ينال منطقة لنفسه . وكانت الحملة الصليبية على وشك التفكك . وبقى الجيش الصليبى فى شمال الشام مسايرا للظروف ، وبيّن نصف العام الذى قضاه الصليبيون هناك (١) التحلل من الإلتزام المسيحى . وبهذا وكأن أرض الميعاد تقع على ضفاف نهر العاصى ، وليست فى بيت المقدس (٢) . وثبت أن الحركة الصليبية فى معناها الحقيقى - بالنسبة لقادة الحملة الأولى - لم تكن إلا مشروعا يخص البابوية وحدها ، وأن الرحلة إلى الشرق لم تكن فقط من أجل المدينة المقدسة Sancta Civitas وحدها (٣) .

ولم يدرك الفرنج أن كل إنجازاتهم ، لم تكن ترجع إلى شجاعة تميزوا بها عن المسلمين ، أو إلى فنون الحرب والقتال التى اتبعوها ، وإنما إلى ضعف المقاومة الإسلامية التى واجهتهم ، وماساد الصف الإسلامى من إنشقاق (٤) . وارتكبت

(١) تمكن الصليبيون من التصدى لمقاومة كربوقا - أتابك الموصل - الفاشلة لاسترداد أنطاكية وتأكد استيلاؤهم على أنطاكية فى ٢٨ يونية ١٠٩٨ م / ٢٦ رجب ٤٩١ هـ . وتحركت قوات كونت تولوز من معرة النعمان فى طريقها إلى بيت المقدس فى ١٣ يناير ١٠٩٩ م / ١٧ صفر ٤٩٢ هـ . انظر : ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت (مطبعة الآباء اليسوعيين) ١٩٠٨ م ، ص ١٣٧ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ١٢ جـ ، القاهرة (المطبعة الأزهرية) ١٣٠٣ هـ ، جـ ١٠ ، ص ١١٥ ، ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ، ٣ جـ ، تحقيق سامى الدهان ، دمشق ، ١٩٥١ م ، جـ ٢ ، ص ١٤٣ . راجع أيضا :

Anonymi, Gesta Francorum et Aliorum Hierosolymitanorum, ed. by Rosalind Hill as The Deeds of The Franks and The Other Pilgrims to Jerusalem, London, 1962, p. 69.

(٢) Prawer, op. cit., p. 14.

(٣) Orderic Vitalis, Historia Ecclesiastica, ed. and trans. by M. Chibnall 6 Vols, Oxford, 1969 - 1978, Vol. 5, p. 6.

(٤) C.W.C. Oman, A History of the Art of War in the Middle Ages, 2 Vols, London, 1934, Vol. 1, p. 233.

القوى الصليبية فى بلاد الشام ، وفى أوربا ، على دوام هذا الحال ، دون اعتبار لأى احتمال بأن تقوم جبهة إســلامية موحدة فى يوم ما . فانشغلت أوربا - بالصراع بين البابوية والامبراطورية - عن ركائزها فى بلاد الشام ، بالرغم من تلاحق الاستغاثات التى بعث بها قادة فرنج الشام إلى حكام الغرب الأوربى دون طائل [1] ، حتى أطاح صلاح الدين الأيوبى بجهد مايقرب من مائة عام على الجبهة الصليبية ، وبنمط الحياة Modus Vivendi الذى توصل إليه الصليبيون فى بلاد الشـــام [2] .

وإذا كانت مملكة بيت المقدس قد سقطت على أيدى صلاح الدين ، فقد كان ذلك لأن صلاح الدين قد أدرك ما لم يدركه الصليبيون من قبل ، وعرف أنه من الممكن توجيه ضربة ساحقة تودى بالكيان الصليبى بسهولة . إذا ماتوحدت القوى الاسلامية . كما أدرك الرجل أن الجبهة الصليبية متضعضعة ، ومن السـهل تقويضها ، بمثل السهولة التى استرد بها زنكى مدينة الرها من الفرنج وقضى على الوجود الصليبى فى أعالى الفرات فى ١١٤٤ م / ٥٣٩ هـ . فقد كانت العوامل التى مكنت فرنج الحملة الأولى من تحقيق انجـازاتهم ، هى التى مكنت زنكى من

(١) توالت رسائل الاستغاثة التى بعث بها كل من عمورى الأول ملك بيت المقدس (١١٦٢ - ١١٧٤ م) وبوهيموند الثالث أمير أنطاكية (١١٦٣ - ١٢٠١ م) وإيمرى دى ليموج بطريرك أنطاكية اللاتينى (١١٤٠ - ١١٩٣ م) وبرتراند بلانكفورت مقدم الداوية (١١٥٦ - ١١٦٨ م) على بلاط الملك الفرنسى لويس السابع (١١٣٧ - ١١٨٠ م) طلبا للعون ضد خطر نور الدين محمود المحدق بالإمارات الصليبية . انظر

Epistolarum Regis Ludovici VII, RHGF, 16, pp. 27 - 28, 39 - 40, 52 - 53, 55 - 60, 61 - 62.

راجع أيضا الترجمة العربية لرسائلي بوهيموند وإيمرى دى ليموج . انظر : حسين عطية : إمارة أنطاكية ، الملحقين الرابع والخامس ، ص ٣٠٨ ، ٣١٢ - ٣١٤ .

(٢) حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ، الاسكندرية ، ١٩٨٩ م ، ص ٢٠٩ .

استرداد الرها ، وهى التى ستمكن صلاح الدين من استرداد بيت المقدس ، وهى عوامل الإنقسام . وعوامل انقسام الفرنج أيام زنكى ترجع فى الحقيقة إلى زمن الحملة الأولى .

فما شجر من خلافات بين بولدوين وتنكريد فى قيليقية ، ثم بين بوهيمند وكونت تولوز فى أنطاكية ، استمر بين هؤلاء حتى بعد أن تغيرت أوضاعهم فى بلاد الشام ، وتوارثه من خلفوهم فى حكم أملاكهم . فلم تكن العلاقات بين بولدوين ملك بيت المقدس (١١٠٠ - ١١١٨ م) وبين تنكريد أمير الجليـــل (١٠٩٩ - ١١٠٠ م) والوصى على أنطاكية (١١٠٠ - ١١٠٣ م) ، أفضل من العلاقات بينهما فى قيليقية [1] . كما كانت العلاقات بين ريموند بواتييه أمير أنطاكية (١١٣٦ - ١١٤٩ م) وبين جوسلين كونت الرها (١١٣١ - ١١٤٤ م) وخلف بولدوين الثاني فيها ، سببا فى سقوط كونتية الرها وعودتها إلى الحظيرة الإسلامية إلى الأبد [2] .

(١) بينما وقع الصدام بين بولدوين وتنكريد حول طرسوس ، وتقاتلا حول أذنة والمصيصة ، فقد تحرز بولدوين من وعود تنكريد أمير الجليل على مقربة منه فى مقر حكمه كملك لبيت المقدس ، ولم يتح فرصة لقيام الصدام بينهما من جديد حين وقع بوهيمند فى أسر التركمان فى ١١٠٠م ، ورحيل تنكريد إلى أنطاكية ليحكم كوصى عليها حتى عودة خاله من الأسر . انظر :

Radulf of Caen, op. cit., pp. 629 - 641; Albert d'Aix, Liber Christianae, RHC Occ. IV, pp. 337 - 338.

(٢) تحالف جوسلين مع سوار حاكم حلب ضد ريموند ، كما أيد جوسلين بطريرك أنطاكية رادولف دومفرونت (١١٣٥ - ١١٤٠ م) الذى أبعده ريموند عن كرسى بطريركية أنطاكية . وأدى هذا الخلاف إلى تقاعس ريموند عن مساعدة جوسلين فى الدفاع عن الرها ضد عماد الدين زنكى . انظر :

William of Tyre, History of Deeds done beyond the sea, 2 vols. trans. by Emily Babcock and A.C. Krey, New York, 1943, Vol. 2, pp. 155 ff.

وللمزيد عن العلاقات بين جوسلين الثانى وريموند بواتييه ، وعن عوامل سقوط الرها فى أيدى زنكى انظـــر : محمد الشيخ : الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها (١٠٩٧ - ١١٤٤ م) ، الاسكندرية ، ١٩٧٢ م ، ص ٢٥٦ - ٣٢٠ .

لكل ما سبق ، فإن تاريخ الحملة الصليبية الأولى لم يكن هو استيلاء الصليبيين على بيت المقدس من المسلمين ، وتأسيس الفرنج للإمارات الصليبية في الرها وأنطاكية وطرابلس فقط ، وإنما يضاف إلى ذلك ما ألم بالحملة من تطورات لم تكن محسوبة من قبل ، وما قام بين قادة الحملة وبين البيزنطيين من جهة ، وبين هؤلاء القادة بعضهم البعض من جهة أخرى من علاقات كان لها أكبر الأثر في تحديد معنى الحركة الصليبية الدقيق ، والمصير المحتوم للكيان الصليبي في بلاد الشام . ولم يكن من السهل الوقوف على كل ذلك دون التمعن في المصادر التاريخية التي تضمنت صفحاتها كل دقائق تاريخ هذه الحملة .

الإنجاز الأدبي للحملة الصليبية الأولى :

ولقد كان للحملة الصليبية الأولى إنجاز آخر لايمكن مقارنة أوجه القصور فيه ، بالمثالب العسكرية والروحية للحملة نفسها . فلحسن الحظ ، أن تأثير دعوة البابا أوربان الثاني للمجتمع الأوربي الغربي للإشتراك في الحملة الصليبية الأولى ، لم ينحصر على الحكام والعامة من طوائف هذا المجتمع ، بل تعدى هؤلاء إلى طائفة أخرى ، لايقل دورها في حقيقته عن دور المقاتلين الصليبيين أنفسهم ، إن لم يكن قد فاقه أهمية ، بالنسبة لدارسي تاريخ الحروب الصليبية . فقد شارك بعضهم سائر الطوائف التي هبت ملبية دعوة البابا لقتال المسلمين ، وساهموا في تحقيق هدف الحملة المنشود ، ونجاحها الذي لم تصادفه أية حملة صليبية أخرى . وهؤلاء هم مؤرخو الحملة الصليبية الأولى أنفسهم ، الذين سجلوا تاريخها ، وأعمال الفرنجة في الشرق الأدنى الإسلامي ، منذ قدومهم إليه وحتى تثبيت أقدامهم فيه . وكان عدد هؤلاء المؤرخين الوفير من المزايا التي تميزت بها هذه الحملة أيضا عما تلاها من حملات . فهم شاهدو عيان لأحداثها ، ومن أتباع قادتها ، ويسر ذلك لهم الاطلاع على مختلف القرارات الصليبية ، وتعد أعمالهم - إلى جانب الوثائق والخطابات الصليبية - أهم مصادر المعلومات التاريخية أصالة .

وهكذا أمدتنا الحملة الصليبية الأولى بوفرة من المؤرخين اللاتين ، الذين سجلوا لنا تاريخ الإمارات الصليبية في الشرق ، منذ خروج الصليبيين من بلادهم في عام ١٠٩٦ م / ٤٩٠ هـ ، وحتى عام ١١٢٧ م / ٥٢١ هـ ، وينقسم مؤرخو هذه الفترة إلى قسمين ، الأول منهما ويضم ثلاثة مؤرخين شاهدي عيان ، وهم المؤرخ المجهول صاحب كتاب « أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس » Gesta Francorum et Aliorum Hierosolymitanorum ، وريموندأجيل صاحب كتاب « تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس » Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem ، ثم فولشر أوف شارتر الذي وضع كتاب « أعمال الفرنجة الحاجين إلى بيت المقدس » Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium[1] ، وهؤلاء أمدونا بمعلومات عن الحملة الصليبية الأولى منذ خروجها من أوربا وحتى سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين . ولقد حظيت علاقات الصليبيين بكل من البيزنطيين والأرمن والمسلمين بنصيب وافر من كتابات هؤلاء . وإذا كان هؤلاء الأول والثاني منهما يتوقفان بذكر أحداث (١٢ أغسطس ١٠٩٩ م / ١٤ رمضان ٤٩٢ هـ) وانتصار الفرنج على القوات الفاطمية ، فإن كتاب فولشر يغطي الفترة حتى عام ١١٢٧م / ٥٢١ هـ . وفيما يخص الفترة بين عامي ١١٢٠ م/ ٥١٤ هـ و ١١٢٧م / ٥٢١ هـ ، يعتبر تاريخ فولشر هو المصدر اللاتيني الوحيد المعاصر ، ويعد أيضا تاريخا لكل الامارات الصليبية في بلاد الشام ، حتى يدلي وليم رئيس أساقفة صور بدوره في تكملة تاريخ الصليبيين في الشام حتى عام ١١٨٤م/ ٥٨٠ هـ .

---

[1] عن هؤلاء المؤرخين وأعمالهم وسيرتهم الذاتية ، انظر :

Claud Cahen, La Syrie du Nord à l'Epoque des Croisades, et la principauté Franque d'Antioche, Paris, 1940, pp. 3 - 10. Jean Richard, Raymond d'Aguilers, Historien de la Première Croisade, JS, 1971, pp. 206 - 212. Harold Fink, Fulcher of Chartres Historian of The Latin Kingdom of Jerusalem, SMG, 5, 1975, pp. 53 - 55.

راجع أيضا : جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم ، ص ٢ - ٧ ، حسين عطية : إمارة أنطاكية ، ص ١٢ - ١٤

أما عن القسم الثاني من المصادر اللاتينية التي عالجت هذه الفترة ، فمنها ما سجله ألبرت دكس عن تاريخ حملة جودفري دوق اللورين السفلى وأول حكام بيت المقدس اللاتين بعنوان « كتاب الحملة المسيحية لأخذ وتطهير واسترداد مدينة بيت المقدس » Liber Christianorum Expeditionis Pro Ereptione, Emundatione et Restitutione Sanctae Hierosolymitanae Ecclesiae . وكتاب رادولف أوف كان « أعمال تنكريد في الحملة إلى بيت المقدس » Gesta Tancredi in Expeditione Hierosolymitana . وأخيرا كتاب إيكهارد دورا « بيت المقدس » Hierosolymitana [1] . ولما كان هؤلاء لم يشاهدوا وقائع الحملة الصليبية الأولى ، فقد استقوا معلوماتهم من مصادر أصلية مثل أعمال مؤلف الجستا وفولشر وريمونداجيل ، كما استمعوا إلى روايات من عادوا إلى أوربا من الصليبيين . وهذا ينطبق على ألبرت دكس . أما رادولف فقد كان كاتبا خاصا لتنكريد ابن أخت بوهيمند والوصي على إمارة أنطاكية أثناء أسر بوهيمند وبعد رحيله نهائيا إلى غرب أوربا . وروى له تنكريد ذكرياته عن الحملة الأولى وأحداثها ، فوضع تاريخا لأعمال سيده تنكريد ، أصبح تاريخا لإمارة أنطاكية . أما إيكهارد ، فقد أتى إلى فلسطين عام ١١٠١م / ٤٩٥ هـ وعاد إلى أوربا ليضع كتابه الذي اعتمد فيه على ذكرياته الشخصية في الشرق ، وروايات الآخرين التي تتفق مع روايات كثيرة ذكرها غيره من المؤرخين اللاتين . ويغطي كتاب ألبرت دكس الفترة حتى عام ١١٢٢م / ٥١٦ هـ ، بينما ينتهي كتاب رادولف بأحداث عام ١١٠٥ م / ٤٩٩ هـ .

وممن كتبوا عن أحداث الحملة الصليبية دون أن يشاركوا فيها أو يأتوا إلى الشرق أيضا ، المؤرخ الأنجلو نورماندي أورديك فيتالي Orderic Vitalis الذي وضع كتابا بعنوان تاريخ الكنيسة Historia Ecclesiastica [1] الذي استقى مادته التاريخية من أكثر من خمسين مصدرا تاريخيا ، إلى جانب ما استقاه من الوثائق والروايات الشفهية ، وكتابه على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لتاريخ الحملة الصليبية الأولى ، وعلاقة بيزنطة بالصليبيين . وتعد المعلومات التي أوردها عن الحملة الأولى وما تلاها من أحداث حتى عام ١١٢٣ م / ٥١٧ هـ من أهم المعلومات التاريخية الأصلية . فقد استقاها من روايات من عاد من الفرنج إلى فرنسا ، وما وصل إلى أوربا من تقارير عن أحداث هذه الفترة . وكان فيتاليس محايدا بالنسبة لمشكلة أنطاكية التي قامت بين الكسيس كومنين وبوهيمند ثم تنكريد من بعده . وأكدت روايته عن تلك المشكلة حسن نية الإمبراطور البيزنطي تجاه الفرنج ، وعدم تخليه عن الحملة كما اتهمه الفرنج بذلك .

---

(١) عن هؤلاء المؤرخين وأعمالهم ، انظر :

Oliver J. Thatcher, Critical work on the Sources of the First Crusade, ARAHA, 1 1900, pp. 502 - 505. Henri Glaesener, Raoul de Caen Historien et Ecrivain, RHE. 46, 1951, pp. 5 - 21; Cahen, op. cit., p. 15

---

(١) مع أن فيتاليس عاش في نورمانديا ، إلا أنه ولد في إنجلترا في عام ١٠٧٥ م لأب نورماندي Odelerius d'Orleans وأم إنجليزية Angligena ، جاء أبوه إلى إنجلترا فيما بين عامي ١٠٦٦ و ١٠٦٨ . وفي سن الخامسة درس فيتاليس في كنيسة شروسبري Shrewsbury وفي العاشرة أرسله أبوه إلى نورمانديا حيث صار راهبا في دير القديس إفرول St. Evroul وعاد إلى إنجلترا في زيارة قصيرة في عام ١١١٥ م / ٥٠٩ هـ . وأثر ارتباطه بإنجلترا على كتاباته التاريخية لارتباط إنجلترا بنورمانديا (وطن النورمان الأصلي) ثقافيا وسياسيا في عصره ، وتأثر كثيرا بالمؤرخين الإنجليز ، وكرس كتابه لسرد تاريخ كنيستي إنجلترا ونورمانديا . ووضعه بناء على طلب روجر أوف لي ساب Roger of Le Sap أسقف دير إفرول (١٠٩١ - ١١٢٧م) ويتكون الكتاب من ١٣ فصل ، تغطي الفترة من ١ - ١١٤١م ووضعه فيما بين عامي ١١٢٤م و ١١٤١م ، وتأثر فيتاليس بالمؤرخين الإنجليز مثل بيده Bede ووليم مالمسبري William of Malmesbury وبعض المؤرخين النورمان مثل وليم أوف بواتييه William Poitiers ومات فيتاليس في عام ١١٤٣م . وللمزيد عن حياة فيتاليس وأعماله ، انظر :

Antonia Gransden, Historical writing in England : C. 550 to C. 1307 I, 2 Vols. London, 1974, Vol. I, pp. 151 - 65

راجع أيضا : حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمين (١٠٩٨ - ١٢٦٨ م /

وإلى جانب فيتاليس - من المؤرخين الذين لم يشتركوا فى الحملة الصليبية الأولى وكتبوا عنها فى أوربا - هناك المؤرخ الأنجلو نورمانى أيضا وليم راهب ديرمالمسبرى William of Malmesbery الذى وضع كتاب «أعمال ملوك الإنجليز» Gesta Regum Anglorum ، الذى تناول فيه أحوال ملوك انجلترا وعلاقاتهم بملوك أوربا والبابوية . وترجع أهمية الكتاب إلى اعتماد المؤلف على مصادر معلومات مفقودة . وقد أورد معلومات قيمة عن سقوط أنطاكية فى أيدى اللاتين ، وكان المؤرخ الوحيد الذى وقف على مادار بين كربوقا وسقمان بلوا من محادثات حتى بعث قادة الفرنج بالأخير إلى المسلمين لإثناء كربوقا عن التعرض للفرنج الذين حاصرهم داخل أنطاكية فور استيلائهم عليها ⁽¹⁾ .

وإلى جانب كل هؤلاء ، فقد وردت معلومات هامة عن الحملة الصليبية الأولى فى أعمال كل من كفارو الجنوى « تحرير مدن الشرق Leberatis Civitatum Oriends » ، وكتاب جيبرت دى نوجان Guibert de Nogent « أعمال الرب التى تمت بأيدى الفرنجة Gesta Dei Per Francos » ، وكتاب Historia Iherosolimitana « تاريخ بيت المقدس » الذى وضعه روبرت الراهب ، وكتاب بودلف دى بورجى الذى يحمل نفس العنوان ⁽²⁾ .

وإذا كانت الحملة الصليبية الأولى قد أخرجت [illegible] العديد من الأعمال التاريخية اللاتينية التى أمدتنا بالمعلومات الوفيرة التي تميزت بالدقة والأصالة .

---

(1) ولد وليم فى عام ١٠٩٥م / ٤٨٩ هـ لوالدين أحدهما نورمانى والآخر انجليزى وبدأ حياته راهبا فى دير مالمسبرى ، ثم تولى ادارة مكتبة هذا الدير ، ويعد كتاب تاريخا لانجلترا منذ غزوها النورمانى عام ١٠٦٦م / ٤٥٩ هـ وحتى عام ١١٢٧م / ٥٢١ هـ - وقد وضع وليم عدة كتب أخرى أهمها (أعمال أساقفة الإنجليز) Gesta Pontificum Anglorum ومات فى عام ١١٤٣م / ٥٣٨ هـ .

أنظـــر :

Antonia Gransden, op. cit., vol. 1, pp. 167 ff.

(2) Cahen, La Syrie, p. 11.

راجع أيضا : جوزيف نسيم : العرب والروم ، ص ١٤ - ١٨ .

فإن الشرق اللاتينى لم يخرج لنا - منذ توقف كتاب فولشر أوف شارتر وحتى عام ١١٨٤م / ٥٨٠ هـ - سوى مؤرخ لاتينى واحد ، يرجع اليه الفضل فى الوقوف على كثير من الحقائق التى رسمت صورة دقيقة لأحوال الفرنج الشرق وعلاقاتهم السياسية بالمسلمين من جهة ، وببعضهم البعض من جهة أخرى ، كما شمل كتابه تاريخا كاملا للحملة الصليبية الأولى . وهذا المؤرخ هو وليم الصورى ⁽٤⁾ الذى وضع كتابه « تاريخ الأعمال التى تمت فى بلاد ما وراء البحر منذ وقت خلفاء محمد (صلى الله عليه وسلم) وحتى عام ١١٨٤م من الميلاد » Historia rerum in Partibus transmarini gestorum a tempore successorum Mahumeth usque ad annum Domini MCLXXXIV ليكون أكثر المصادر اللاتينية دقة وشمولا . وإذا كان وليم قد أتم كتابة تاريخه بعد عام ١١٨٠م / ٥٧٦ هـ وبدأه فى عهد عموري الأول ملك بيت المقدس [١١٦٣ - ١١٧٤م] ، ولم يشهد شيئا من أحداث الأربعين عاما الأولى من الوجود الصليبى فى بلاد الشام (ولد وليم فى عام ١١٣٠م / ٥٢٤ هـ) فقد نقل عمن سبقوه من المؤرخين اللاتين المعاصرين للحملة الأولى وشاهدى العيان لأحداثها . إلى جانب تميزه ببعد النظر والحس التاريخى والذى لم يجعل منه مجرد ناقل للأخبار بل وناقد للأحداث أيضا ولكثير من الشخصيات التى لعبت دورا فيها . ولم يكن وليم يجهل أحداث الفترة المبكرة من الحروب الصليبية وحتى عهده هو .

---

(٤) عن حياة وليم الصورى وأعماله التاريخية . انظر :

R. B. C. Huygens, Guillaume de Tyre étudiant Un chapitre XIX. 12 de son "Historia" retrouvé, Latomus, 21, 1962, pp. 811 - 829; R.H.C. Davis, William of Tyre, in Relation between East and West ed. Derek Baker, Edinburgh, 1973, pp. 64 - 76; P.W. Edbury and J.G. Rowe, William of Tyre and the Patriarchal election of 1180, EHR, 366, 1978, pp. 1 - 25. D.W.C. Vessey, William of Tyre and the art of Historiography, MS, 35, 1973, pp. 433-455

راجع أيضا : حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمين ، ص ٢١ - ٣٩ .

وإلى جانب المصادر اللاتينية التي سجلت أحداث الحملة الصليبية الأولى هناك مصدر بيزنطي لايقل قيمة عن المصادر اللاتينية وهو كتاب الألكسياد Alexiad الذي وضعته الأميرة البيزنطية آن ابنة الامبراطور البيزنطي الكبير الأول كومنين [1] ويعتبر كتابها مصدر ثقة في دراسة العلاقات بين البيزنطيين وصليبي الحملة الأولى ، وخاصة طوال الفترة التي قضاها الفرنج في أراضي الدولة البيزنطية وفي القسطنطينية بالذات . إلى جانب تطور العلاقات بين الامبراطور وبين الفرنج أثناء رحلتهم في بلاد الشام من أنطاكية وحتى استيلائهم على بيت المقدس .

هذا عن مصادر الحملة الصليبية الأولى من لاتينية وبيزنطية ، التي تتمتع بالأهمية القصوى بالنسبة لدارسي تاريخ الحروب الصليبية (والحملة الأولى بصفة خاصة) نظرا لعدم توفر المصادر الاسلامية المعاصرة لأحداث الحملة الصليبية الأولى، فلم يكن هناك من المؤرخين المسلمين المعاصرين سوى ابن القلانسي صاحب كتاب « ذيل تاريخ دمشق » الذي عالج فيه تاريخ بلاد الشام منذ غزو السلاجقة له وحتى عصر صلاح الدين [2] ولما تفوقت الكتابة التاريخية اللاتينية على

(١) ولدت الأميرة آن في نهاية عام ١٠٨٣م / ٤٧٥ هـ وتزوجت من نقفور بريينوس ، وهو مؤرخ بيزنطي ، وتوفيت في عام ١١٤٨م/ ٥٤٢ هـ ، عن ٦٦ سنة وهي ابنة ألكسيوس من زوجته إيرين دوكاس وقام أخوها حنا الثاني كومنين بحبسها في دير الأميرة بعد وفاة والدها تمكنت آن على كتابة التاريخ وهي عزيزة العلم وعلى دراية بأدب عصرها . وكتب اللاهوت والشعر والفلسفة الاغريقية القديمة . ووضعت كتابها بمثابة ترجمة وتخليد ليكون سجلا لأعمال والدها وهو يغطي الفترة من عام ١٠٦٩م/ ٤٦١ هـ إلى عام ١١١٨م/ ٥١٢ هـ . وبدأت في تدوينه في عام ١١٣٧م/ ٥٣١ هـ وقفت في عام ١١٤٨م/ ٥٤٢ هـ . أنظر :

Cahen, La Syrie, p. 95; George Ostrogorsky, History of the Byzantine state. English trans. by J. Hussey, Oxford, 1956, p. 311

(٢) عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ، ١٩٧٦م ، ص ١٦ ، السيد الباز العريني : مؤرخو الحروب الصليبية ، القاهرة ، [illegible]

مثيلتها العربية زمن الحملة الصليبية الأولى حتى ينعكس الأمر خلال النصف الثاني من القرن ١٢ م / ٦ هـ بتفوق الكتابة التاريخية العربية بظهور دولة صلاح الدين الأيوبي في مصر ، التي شهدت تغيرا هاما في الكتابة التاريخية العربية ، وذلك بظهور وفرة من الأعمال التاريخية العربية استمدت انطلاقتها من تأثير توحيد صلاح الدين لمنطقة الشرق الأدنى الاسلامي تحت لوائه من بلاد السودان ومكة جنوبا إلى جبال طوروس شمالاً ، ومن ديار بكر شرقا إلى مصر غربا ، ورفع الأرواح فوق سياسة التحزب والانقسام . فكان لبادرة الشعب السني في البلاد أثر في اختفاء النزعة الشيعية ، بنهاية الدولة الفاطمية ، في كتابات المؤرخين المسلمين . وكتب الجميع تاريخ البلاد في هذه الفترة ، وحتى نهاية الحروب الصليبية ، ونقلوا عن بعضهم البعض بلا غضاضة [1] . الأمر الذي سد النقص الذي خلفته لنا الكتابات التاريخية اللاتينية التي تقلصت بتقلص ممتلكات الفرنج على أيدي صلاح الدين ، وفي الوقت الذي نجد فيه من يكتب عن دولة صلاح الدين أو عن جزء من تاريخها أو عن الرجل نفسه ، أعمالا تستمر حتى نهاية الدولة الأيوبية ، نجد مترجما واحدا أو إثنين على الأكثر من المؤرخين اللاتين الذين أكملوا تاريخ وليم الصوري [2] .

وهكذا لم يكن للحملة الصليبية إنجازها العسكري فقط ، بل وإنجازها الأدبي ، والانجازين معا لم يحققا لأي من الحملات الصليبية التي تلتها

وكان كتاب ريموندا جيل - محل دراستنا هذه - من أهم الأعمال التاريخية التي تناولت تاريخ الحملة الصليبية الأولى .

(١) Cahen, La Syrie du Nord, p. 30.

(٢) حبشي عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ، ص ٢٩ - [illegible]

ريموندا جيل وكتابه :

وكان من الممكن أن يطول الحديث عن المؤرخ ريموندا جيل وعن الكتاب الذى وضعه بنفسه . إلا أنه من الأوفق عدم تكرار ما جاء فى تقديم الكتاب وفى مقدمة الترجمة الإنجليزية ، عن الرجل وتاريخه . كما أنه من الأوفق تسجيل التعليق على مايشوبه الغموض من قضايا تناولها الكتاب ، أو مايتعارض مع الحقيقة التاريخية الخالصة ، فى حواشى الكتاب . أما هنا فنشير فقط إلى مايبرزه كتاب ريموندا جيل من قضايا لم يلق عليها الضوء بعد . فريموندا جيل رجل دين صليبى أولا ، ثم صليبى بروفنسالى بعد ذلك ثم تابع لكونت تولوز ، الرجل الذى أشترك فى الحملة الصليبية الأولى كرئيس علمانى لها - إلى جانب رئيسها الروحى أدهيمار - وحصل على هذا المنصب من البابا نفسه [1] ، ثم حظى بثقة الامبراطور البيزنطى ألكسيس كومنين - بعد أن أشعر الامبراطور بأهمية وضعه بين أقرانه من قادة الحملة - وتصرف على هذا الأساس - أثناء سير الحملة من القسطنطينية وحتى غزو الفرنج لبيت المقدس - كحام لصالح الامبراطور . إلا أن الكونت صدم لعدم جدوى كل ماحصل عليه من البابا والامبراطور فى آن واحد . فلم تشفع له زعامته للحملة ، ولا علاقته الخاصة بالامبراطور أمام طموحات بوهيمند النورماندى ، ولا أمام الرأى العام الصليبى فى لحظة إختيار حاكم علمانى لمدينة بيت المقدس . ففشل فى الحصول على أنطاكية لنفسه أو المحافظة عليها لصالح الامبراطور ، كما فشل فى الحصول على تاج مملكة بيت المقدس الصليبية ، وعلى وظيفة أول ملك لها [2] .

وكان من الطبيعى أن ينعكس أثر ذلك على المؤرخ وتاريخه فى آن واحد . فرجل الدين - فى داخل ريموندا جيل - المتشبع بأفكار البابوية عن المسلمين ، يحاول جاهداً أن يجعل من كل ما أتى به الفرنج من أعمال ضد المسلمين

---

(1) Robert le Moine, Historia Iherosolimitana, RHC-H. Occ., vol. III, p. 731.

وأملاكهم ، وحتى أماكنهم المقدسة ، عملاً من أعمال الرب [1] وإن لم تكن مشروعيتها على أيدى جند المسيح Militia Christi ، وحتى يسبغ الشرعية على أعمال الفرنج ضد المسلمين ، وحتى يجعل رواياته ، عن انتصارات الصليبيين ، وعن كل ما اختلقه من أحداث ، تحظى بثقة وإحترام قراء كتابه الذين يعيشون فى غرب أوربا ، فى عصر الإيمان أو عصر تسلط الكنيسة ، فقد أتخم ضمن أسطر تاريخه إقتباسات من الكتب الدينية (خاصة التوراة والإنجيل) . أما عن الصليبى البروفنسالى الذى يمثله ريموندا جيل ، فمن الطبيعى أن تحظى أعمال الجيش البروفنسالى وقائده - سيد المؤرخ - كونت تولوز بالجانب الأكبر من تاريخه . ومن الطبيعى أيضا - والبروفنسال أصلا من اللاتين - أن يشارك بقية مؤرخى الحملة من اللاتين كرههم للبيزنطيين ، وأن يكيل لهم الاتهامات بخيانة القضية الصليبية المسيحية وبالتخاذل فى تحقيق مشيئة الرب Deus Volt [2] أما عن التابع البروفنسالى لكونت تولوز - ريموندا جيل - فيظهر استياءه من تصرفات بوهيمند ، ولو أدى الأمر إلى اتخاذ جانب الإمبراطور البيزنطى فى

---

(1) اصطبغت الحركة الصليبية بالصبغة الدينية فى عقول الفرنج بتأثير من كلمات البابا أوربان الثانى التى احتوتها خطبته المشهورة فى كليرمونت (١٠٩٥ م) . ومن القرارات والوعود التى وعد بها البابا المشتركين فى الحملة ضد العالم الاسلامى ، فهناك غفران للذنوب كل من يحمل الصليب ويشارك فى هذه الحملة . كما كان هناك قرار الحرمان ضد من يتقاعس عن المساهمة فيها وهو قادر على ذلك . فبينما رأت الحشود المستمعة إلى كلمة البابا خارج كنيسة كليرمونت أن الحركة الصليبية هى « إرادة الله » "Deus Volt" ، فقد رأى روبرت الراهب Robert le Moine - كما رأى ريموندا جيل - أن الحركة الصليبية « من عمل الله وليست من عمل الانسان » . أنظر :

Robert le Moine, Historia Hierosolymitana, in R.H.C. - H. Occ., vol. III, p. 723.

راجع أيضا : جوزيف نسيم يوسف : الإسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما فى العصور

مشكلة أنطاكية [١] كما يحاول الحفاظ على ماء وجه سيده ، كونت تولوز حين يجده شخصا غير مرغوب فيه لأن يكون ملكا لبيت المقدس ، فيؤكد رفض سيده لشغل هذا المنصب الذى عرضه عليه الفرنج قبل اختيارهم لجودفرى دوق اللورين [٢] . وحين يرى ريموندا جيل - تابع كونت تولوز - إعراض بنى جلدته عن مساندة سيده وصدهم فى هذه المشكلة [٣] . لم يجد المؤرخ مانعا من أن يتصرف كرجل دين وليس كتابع بروفنسالى للكونت ، ويشير إلى أن شح الكونت وجشعه حين لم يوزع الجزية التى أخذها من بنى عمار فى طرابلس على الفقراء من جنوده . كما كان فشله فى حصار عرقه . وتشككه فى حقيقة الحربة المقدسة بعد أن أظهر اقتناعه برؤى بطرس بارثلميو . وقبل كل ذلك صداقته للإمبراطور البيزنطى . كل ذلك كلفه عرش بيت المقدس . وكل ذلك بالطبع كان من دواعى غضب ريموندا جيل رجل الدين الصليبى ، والبروفنسالى على كونت تولوز [٤]

وإذا كان ريموندا جيل قد تعرض لتصرفات الحملة الصليبية والعلاقات التى سادت بين طبقة الأمراء والنبلاء . فقد مس أيضا - وعن قرب - الوسط الذى عاش فيه فقراء الصليبيين الذين كانوا موضع عنايته ، وأوضح - كرجل دين - اهتمام هذه الطبقة بالإبقاء بنظرها الدينى حين تلكأ قادة الحملة فى شمال الشام ، متصارعين حول الأسلاب والممتلكات [٥] وبيّن كيف جاهد فقراء الفرنج فى سبيل تحقيق هدف الحملة المنشود ، حتى أنه لم يهتم بما سوف يكون انطباع القارىء عن بنى جلدته حين يذكر أنهم أكلوا جذور النباتات وقت الأزمات . الأمر الذى استغله رادولف أوف كان ليندد بسلوك البروفنساليين أمام رقى النورمان [٦] وهنا يوضح

---

(١) انظر ما تقدم ، ص ١٩٤

(٢) انظر ما تقدم ، ص ٢٥٧

(٣) انظر ما تقدم ، ص ٢٥٨

(٤) انظر ما تقدم ص ٢٥٨ ٢٢٢

(٥) انظر ما تقدم ص ١٧١

(٦) انظر ما تقدم ص١٩٩ راجع أيضا Radulf of Caen p 675

أن الصدام الذى كثيرا ما تكرر بين قادة الحملة الصليبية ، والمنافسة التى اشتعلت بينهم ، وعدم الثقة الذى شاب علاقاتهم ببعض ، قد امتد إلى مؤرخيهم أيضا ، الأمر الذى يوضح طبيعة وأخلاق القوات الصليبية ، وطبيعة الحركة الصليبية نفسها .

وفى الحقيقة ، لم يقتصر التمعن فى تاريخ ريموندا جيل على الوقوف على الجوانب السلبية فى العلاقات بين القوات الصليبية وقادتها من نورمان وبروفنسيين وألمان . بل إن تاريخ ريموندا جيل يلقى بعض الضوء على البدايات الأولى لكثير من نظم المجتمع الصليبى فى بلاد الشام ، وحيث أن هذه البدايات كانت وليدة الظروف التى مر بها صليبيو الحملة الأولى . ومثال ذلك أننا نرى زعماء الحملة يسهمون فى إنشاء صندوق - رصيد - لضمان استرداد الخيول التى يفقدها الفرسان أثناء القتال أو وقت المجاعات [١] .

ولاشك أن إشارة ريموندا جيل إلى هذا التقليد هى أول النصوص التى تشير إلى مبدأ الأخوة Confraternitas الذى قامت على أساسه كثير من الجماعات العسكرية مثل جماعات الفرسان الرهبان من الداوية والإسبتارية والتيوتون وغيرها من الجماعات الدينية الأخرى التى تعد من المؤسسات التى نشأت فى المجتمع الصليبى فى بلاد الشام دون اقتباسها من الغرب الأوروبى مثل سائر النظم الأوروبية التى اتبعها فرنج الشام [٢] .

---

(١) انظر ما تقدم ، ص ٩١ .

(٢) أخذ الوجود الصليبى كل أفكاره ونظمه من التجارب الأوروبية ، ونادرا ما قام بابتداعها فى الشرق إلا إذا أجبر على ذلك نتيجة لظروف محلية . ومن التجارب التى خاضها الوجود الصليبى فى بلاد الشام ، دون الارتكاز على التجارب الأوروبية تجربتان ، أطلق الفرنج العنان لقدراتهم فى خوضها ، وهما إنشاء الجماعات الرهبانية العسكرية ، ثم الحرب وبناء الاستحكامات . انظر :

Prawer, The Latin Kingdom, p 252 ; J. Riley Smith, A Note on Confraternities in Latin Kingdom of Jerusalem, BIHR, 44, 1971

مشكلة أنطاكية [1] كما يحاول الحفاظ على ماء وجه سيده - كونت تولوز - حين يجده شخصا غير مرغوب فيه لأن يكون ملكا لبيت المقدس فيؤكد رفض سيده لشغل هذا المنصب الذى عرضه عليه الفرنج قبل اختيارهم جودفرى دوق اللورين [2] . وحين يرى ريموندأجيل - تابع كونت تولوز - إعراض بنى جلدته عن مساندة سيده وسيدهم فى هذه المشكلة [3] ، لم يجد المؤرخ بدا من أن يتصرف كرجل دين وليس كتابع بروفنسالى للكونت ويشير إلى أن شح الكونت وحشمه حين لم يوزع الجزية التى أخذها من بنى عمار فى طرابلس على الفقراء من جنوده ، كما كان فشله فى حصار عرقه ، وتشككه فى حقيقة الحربة المقدسة بعد أن أظهر اقتناعه مدى بعرض بارثلميو ، وقبل كل ذلك صداقته للإمبراطور البيزنطى ، كل ذلك كلفه عرش بيت المقدس . وكل ذلك بالطبع كان من دواعى غضب ريموندأجيل رجل الدين الصليبى ، والبروفنسالى على كونت تولوز [4] .

وإذا كان ريموندأجيل قد تعرض لتصرفات الحملة الصليبية والعلاقات التى سادت بين طبقة الأمراء والنبلاء . فقد مس أيضا ، وعن قرب ، الوسط الذى عاش فيه فقراء الصليبيين الذين كانوا موضع عنايته ، وأوضح - كرجل دين اهتمام هذه الطبقة بالإيفاء بنذرها الدينى حين تلكأ قادة الحملة فى شمال الشام ، متصارعين حول الأسلاب والممتلكات [5] ويبين كيف جاهد فقراء الفرنج فى سبيل تحقيق هدف الحملة المنشود ، حتى أنه لم يهتم بما سوف يكون انطباع القارئ عن بنى جلدته حين يذكر أنهم أكلوا جذور النباتات وقت الأزمات . الأمر الذى استغله رادولف أوف كان لينتقد سلوك البروفنساليين أمام رفقى السلاح [6] وهذا يوضح

(1) انظر ما يتقدم ، ص ١٦٤

(2) انظر ما يتقدم ، ص ٢٥٧

(3) انظر ما يتقدم ، ص ٢٥٨

(4) انظر ما يتقدم ص ٢٥٨ ٢٢٢

(5) انظر ما يتقدم ص ١٧١

أن الصدام الذى كثيرا ما تكرر بين قادة الحملة الصليبية ، والمنافسة التى اشتعلت بينهم . وعدم الثقة الذى شاب علاقاتهم ببعض ، قد امتد إلى مؤرخيهم أيضا ، الأمر الذى يوضح طبيعة وأخلاق القوات الصليبية ، وطبيعة الحركة الصليبية نفسها .

وفى الحقيقة ، لم يقتصر التمعن فى تاريخ ريموندأجيل على الوقوف على الجوانب السلبية فى العلاقات بين القوات الصليبية وقادتها من نورمان وفرنسيين وألمان ، بل إن تاريخ ريموندأجيل يلقى بعض الضوء على البدايات الأولى لكثير من نظم المجتمع الصليبى فى بلاد الشام ، ويثبت أن هذه البدايات كانت وليدة الظروف التى مر بها صليبيو الحملة الأولى . ومثال ذلك أننا نرى زعماء الحملة يسهمون فى إنشاء صندوق - رصيد - لضمان استرداد الخيول التى يفقدها الفرسان أثناء القتال أو وقت المجاعات [1] .

ولاشك أن إشارة ريموندأجيل إلى هذا التقليد هى أول النصوص التى تشير إلى مبدأ الإخوة Confraternitas الذى قامت على أساسه كثير من الجماعات العسكرية مثل جماعات الفرسان الرهبان من الداوية والإسبتارية والتيوتون وغيرها من الجماعات الدينية الأخرى التى تعد من المؤسسات التى نشأت فى المجتمع الصليبى فى بلاد الشام دون اقتباسها من الغرب الأوربى مثل سائر النظم الأوربية التى انتهجها مرتجو الشام [2] .

(1) انظر ما يتقدم ، ص ٩١ .

(2) أخذ الوجود الصليبى كل أفكاره ونظمه من التجارب الأوربية ، ونادرا ما غامر باقتباسها من الشرق إلا إذا جبر على ذلك شحة لظروف محلية ومن التجارب التى خاضها الوجود الصليبى فى بلاد الشام ، دون الارتكاز على التجارب الأوربية تجربتان ، أطلق الفرنج العنان لقدراتهم فى خوضها ، وهما إنشاء الجماعات الرهبانية العسكرية ، ثم الحرب وبناء الاستحكامات نظر

Smith A Note on ... 252 J. Riley

وهكذا يلقي تاريخ ريموند أجيل الضوء على جوانب كثيرة من جوانب تاريخ الحروب الصليبية وحياة الصليبيين في بلاد الشام ، ويجعلنا نكتشف في كل خطة معلومات جديدة في نص ربما يدفع إلى الاعتقاد بأنه لم يعد أحد يقرأه ، أو لم يعد يأتي بجديد من فرط ما أقتبس عنه . وربما يرجع ذلك إلى أن تاريخ ريموندأجيل يحفل بالفقرات التي تتعلق بالرؤى ، والتي تلقي بظلالها على النص كله ، وتدفع إلى الظل بكثير من المعلومات الأكثر قيمة بالنسبة لتاريخ الحروب الصليبية ، وطبيعة وخصال الفرنج أنفسهم . أما عن إنفراده - دون غيره من مؤرخي الحملة - بسرد تفاصيل رؤى بني جلدته ، وتمحيص مزاعم السابقين ، فيرجع ذلك إلى أنه أتى على رأس مجموعة من المتحمسين الذين أفادوا من حسن نية ، وخزعبلات الصليبيين ومداجتهم الدينية ، فقد كان ريموندأجيل ، بمساعدة بعض المتواطئين ، هو الذي خطّط ونفّذ خدعة اكتشاف الحربة المقدسة في أنطاكية ولما وُجه إليه هذا الإتهام ، فقد كتب تاريخه عن الحملة الصليبية كدفاع عن نفسه ، ولكنه أثناء محاولته تبرأة ساحته ، قد كشف - دون قصد - عن ذنبه . وبالرغم من كل ذلك ، فإن كتاب ريموندأجيل قد أبرز الكثير مما يتعلق بفرنج الحملة الأولى ، وملابسات هذه الحملة ، وكشف عما اكتنفه الغموض في كتابات بقية مؤرخيها المعاصرين ، الأمر الذي يمنح تاريخه أهمية تاريخية كبيرة [1] .

وفي النهاية لم يكن من السهل الوقوف على كل تلك المعلومات - على سبيل المثال لا الحصر - إلا بالاطلاع على تفاصيل تاريخ ريموندأجيل ، الذي لمس جوانب كثيرة من تاريخ الحملة الصليبية الأولى لم تتطرق إليها كتابات أقرانه من مؤرخي الحملة . وكان لشخصية المؤلف وثقافته وفكره والبيئة التي أتى منها أثر كبير في تميّز تاريخه عما سجله غيره عن هذه الحملة ، الأمر الذي يؤكد ضرورة الرجوع إليه للإلمام بكل ما هو جديد بالنسبة لها .

مقدمة الترجمة الإنجليزية

استمرت الحروب الصليبية في شد الإنتباه ، بالرغم مما كتبه البروفسور لامونت Monte لها منذ عدة سنوات ، بأنه في ضوء المجالات الأخرى للتاريخ الوسيط ، فإن الحروب الصليبية قد قُتلت بحثا [1] . ومن فترة وجيزة فقط ، وضع هانز ماير في كتابه الممتاز « مصادر تاريخ الحروب الصليبية » ، وضع قائمة تضم حوالي ٥٢٣٢ عمل في مجال الدراسة حتى عام ١٩٥٨ [2] . وبالعودة إلى الماضي ، ندرك أنه لم تكن لدى البابا أوربان الثاني فكرة عن التصادم الأدبي الناتج عن خطبته التي ألقاها في ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥ م على الجمع المحتشد على التلال المتموجة في كليرمونت [3] . ولكن الدفع بعالم شبه بربري من اللاتين ضد المجتمع الإسلامي شغل بال ذرية أوربان . فاستجاب المؤرخون والشعراء والقصاصون وعلماء النفس ، وحتى رواة السينما الحديثة جميعا للجلب العاطفي لحركة التاريخ غير العادية هذه . وارتبطت لوحة الرومانسية والمثالية السامية بالحملات الصليبية في القرن العشرين ، ولايزال تعبير « حملة صليبية » يستعمل بحرية عند الأيديولوجيات المتصارعة .

ولقد دشّنت دعوة البابا أوربان الثاني الحملة الصليبية الأولى ، أكثر الحملات الصليبية نجاحا ، وأكثرها تعرّضا للجدل . ولقد نوقشت دوافع البابا أوربان على نطاق واسع ، ولا تزال خططه تثير الجدل العلمي [4] . وبالمثل ، ثار الجدل حول مقدمات الحروب الصليبية ، وأيضا حول دوافعها . كما أولى المؤرخون إنتباهم لكثير من جوانب الحملة الصليبية الأولى بما في ذلك الشئون العسكرية ، وهزائم الفرنج ، وتتابع الأحداث ، والقادة [5] . وبالإضافة إلى ذلك ، لم يقتصر الاهتمام على بلد بذاته بالرغم من ريادة فرنسا وألمانيا في هذا المجال . وفي الولايات المتحدة ، أدى تحمس البروفيسور مونرو - ومن أتوا بعده ، إلى استنتاج أن ستيفن رنسيمان قد أسف على التنافس مع حشد الآلات الكاتبة في هذا

وبالرغم من وفرة الكتابة عن تاريخ الحروب الصليبية ، فمازال هنا الكثير ليكتب عنها (٨) . ولقد نبعت الحاجة إلى الدراسة المستمرة من سوء الاستخدام للمصادر المتوفرة ، بالاضافة إلى أخطاء المؤرخين الركيكة ، حيث رفضوا أن يجندوا خدمات المتخصصين في المجالات المرتبطة بالتاريخ . بالاضافة إلى ذلك ، فقد حاول مؤرخو القرن العشرين أن يطبقوا نظرياتهم على الدوافع الإنسانية على ماديات الحملة الصليبية الأولى ، إلى جانب أن نقص المادة العلمية يرجع إلى الاحتمالات الايمانية التي أخذ بها هؤلاء المؤرخون . فمن بداية الحروب الصليبية كان الكُتّاب أكثر اهتماما بوسائل الرب منهم بوسائل الانسان . ودائما مايصطدم المبتدىء بحقيقة أن السجلات الديرية لا تفي بالغرض ، وكثيرا ما تتنافس أسطر قليلة من غزو القرن تبع لبيت المقدس مع أسطر عديدة عن الشهب الهابطة من السماء ، وإذا كان من الممكن الوثوق ببعض الشيء في الحوليات ، فإن هذه الحوليات تبين أن أهمية الحرب المقدسة قد لاحت للناس بعد سقوط بيت المقدس ، وبعد وصول تقارير الصليبيين العائدين إلى أوربا .

ولحسن الحظ ، فلدينا عدد من روايات باقية لشهود عيان ، وفي ضوء التقارير الحديثة ، فإن جميع هذه الروايات لا تفي بالغرض ، كما أنها ملهمة بحلول الكنيسة ، ولكن بالمقارنة بالفترات المبكرة من العصور الوسطى ، فإن تقارير شهود العيان هذه أكثر وفرة وأكثر نقلا للأخبار ، وربما تتضمن مجالات الدراسة المهملة أصول الحروب الصليبية ومشاريع البابا أوربان ، ولقد تحاشى المؤرخون الحديثون بسبب التكتم ex silentio[٩] . ويتحير المؤرخ عندما يبلغ المسيرة الفعلية للحملة الصليبية الأولى . وهناك عدد من الخطابات المتاحة التي تضم خطابات الباباوات ، والامبراطور ألكسيس ، وقادة الحملات الصليبية وحتى خطابات ستيفن كونت بلوا المرسلة إلى زوجته أديلا Adela[١٠] . وعلى أحسن الفروض ، فإن هذه الوثائق موجزة ، وتحتوى على عدد من الكلمات أقل مما يحتويه أي تقرير صباحي لسرية من الجيش . وعلى أية حال ، فإن هذه الرسائل تتسم بالأصالة ، وتعد من أفضل مصادر المعلومات .

والاتينية ، وضعها من يطلق عليهم شهود العيان . فقد بدأ فولشر Fulcher ، وهو مواطن من شارتر Chartres ، رحلته الصليبية مع روبرت النورماندي وستيفن كونت بلوا وشارتر . ثم التحق فيما بعد بقوات بولدوين ، شقيق جودفرى دوق بوايون ، وأصبح القس الخاص ببولدوين ، وتاريخه « تاريخ بيت المقدس » مكون من عدة أجزاء ، الأول منها يعالج ، أساسا ، الحملة الصليبية الأولى . وهذا العمل الذي من المحتمل أن تم كتابته في عام ١١٠١م ، ينقل القارىء إلى الرها حيث ترك فولشر الحملة ، وروايته عن إكمال الرحلة ليست رواية شاهد عيان[١١] . أما آن كومنين ، ابنة الإمبراطور ألكسيس كومنين ، فلقد كتبت الألكسياد Alexiad ، وهذا التاريخ الذي كتب بعد أربعين عاما من قيام الحملة الصليبية الأولى ، يعالج أساسا دور أبيها ويبعد عن أن يُرتكن إليه ، فلقد كانت الأسرة زمن الحملة الصليبية لا تزال طفلة ، وبالعودة إلى الماضي جاءت أحداث كتابها وتواريخه مضطربة[١٢] .

وكتب بطرس تودبود ، وهو قس مدينة سيفراى Civray ، قبل عام ١١١١ ، « تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس » ، الذي يعتبر لسنوات عديدة تاريخ شاهد عيان ، ولاشك أنه كان حقيقة مشاركا في الرحلة إلى بيت المقدس ، ولكن المؤرخين الحديثين اعتبروا كتابه انتحالا لعمل آخر ، وهو التاريخ المجهول المعنون بعمل عمران و أعمال الفرنجة Gesta Francorum ، مع الاقتباس من تاريخ ريموند اجيل[١٣] ومن المؤكد ومن الناحية الجوهرية ، أن المعلومات التي وردت في تاريخه وشبيهتها التي وردت في الجستا معلومات متقاربة جداً . ولدراستنا هذه ، يمكن القول بأن هناك تاريخين لشاهدى عيان مهمين جدا لمتابعة الحملة الصليبية الأولى منذ بدايتها حتى ختامها الناجح ، وهذان التاريخان بالتحديد هما كتاب مؤرخ الجستا ، وكتاب ريموند اجيل .

ويعتبر الجستا هو أكثر هذين التاريخين خضوعا للدراسة ، وأكثرهما فهما لدى المؤرخين الحديثين . وقد تبع المؤرخ المجهول سيده بوهيمند إلى أنطاكية

واستمر في الرحلة إلى بيت المقدس بعد أن بقي النورمان في أنطاكية بصحبة صليبيين آخرين . ومنذ قيام فون سيبل Von Sybel بدراسته لهذا المصدر التاريخي ، فقد تمت أبحاث كثيرة حوله . ولم يصل الباحثون إلى اتفاق حول كثير من جوانب المشكلة . وبقي المؤلف المجهول مجهولاً . وبالرغم من أن ستيفن رنسيمان يحدد عام ١١٠٠م (أو عام ١١٠١م) تاريخاً لإتمام الجستا . فإن هذه المشكلة أيضا لم يبت فيها برأي قاطع وتضم قائمة المؤرخين . الذين أولوا إهتماما كبيرا لكتاب المؤرخ المجهول . هاجنماير [illegible] على سبيل المثال لا الحصر (٤٤) .

ومن الغريب أن لا يستأثر المصدر التالي ، الذي يحمل عنوان « تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس » بمثل هذا الاهتمام . وإذا كان ذلك حقيقيا فيما يخص البحث العلمي عن المؤلف أو مناهجه ، فإنه من الطبيعي أيضا فيما يتعلق بالقصور الذي شاب النصوص الموجودة لهذا التاريخ . الأمر الذي أسف له رنسيمان (٤٥) . ولابد لأي مؤرخ جاد ، يتناول تاريخ الحملة الصليبية الأولى ، وأن يتعامل مع تاريخ ريموندأجيل ، بالغ الأهمية لتاريخ الحروب الصليبية . ومع أن كتاب ريموندأجيل يطابق الجستا ، فإنه في بعض الأحيان ، يمدنا بمعلومات غير متوفرة في أعمال تاريخية أخرى . فريموندأجيل يقدم لنا تفصيلات عن الرحلة البروفنسالية إلى القسطنطينية غير واردة في روايات بطرس توديبود . كما كان ريموندأجيل أكثر توفيقا من مؤلف الجستا في تعامله مع شخصية أديمار (أسقف لي بوي) الغامضة . وجاءت رواية ريموندأجيل عن الرحلة من القسطنطينية إلى أنطاكية موجزة جدا ، ومع ذلك فهي تحتوي على بعض المعلومات الإضافية . وبالرغم من أن روايته عن حصار أنطاكية مضطربة بعض الشيء في بعض الأحيان ، إلا أنه يضيف بها ، بشكل فعال ، إلى معلوماتنا التاريخية . وكان وصفه للأحداث منذ سقوط أنطاكية وحتى الفحص عن حرقة في غاية الأهمية . وبصفة خاصة روايته عن قصة الحربة المقدسة ، ومن الغريب أنها لم ترد في الجستا . وتسد المعلومات التي أوردها عن الصراعات الكنسية بعد سقوط بيت المقدس الفراغ الذي تركه الجستا .

وباختصار فلابد من الرجوع إلى تاريخ ريموندأجيل . فوليم الصوري ، أحد أشهر مؤرخي الحملة الأولى الثقاة . اضطر إلى الرجوع إلى كتاب ريموندأجيل وكذلك فعل مؤرخون آخرون (٤٦) وبينما تعلم المؤرخون أنه لابد لهم من معايشة هذا القس . فقد ذكروا أنهم تعاقدوا مع بارون مونتفاوزن (٤٧) من العصور الوسطى . أنه أن يكون محررا أمينا . والأكثر احتمالا أنه [illegible] المقبلة [illegible] يشتهي الشهرة وحين يفشل المؤرخون في إدراك ذلك ، فغالبا [illegible] فهم ريموندأجيل بسبب الغموض الشديد الذي اكتنف حياته . ولهذا حرمنا بالفعل من هذا الراوي ، الذي يغزل الروايات الصليبية المسهبة ؟ للأسف . فنحن مضطرون إلى الاعتماد على كتابه وعلى النقد الداخلي من أجل الحصول على معلوماتنا عنه .

ويحدثنا ريموندأجيل ، مؤلف « تاريخ الفرنجة الذين غزوا بيت المقدس » عن الأسلوب [illegible] أجزاء هذا ولقد عرفنا به لأول مرة منذ عشرين عاما [illegible] حيث يحمل [illegible] منفعة ريموند كونت سانجيل (٤٨) ، وإذا كان لنا أن [illegible] فقد كان [illegible] قسا خاصا لريموند الرابع كونت تولوز ، ورافق الكونت في الحملة الصليبية الأولى [illegible] أثناء الرحلة ، ويشير [illegible] كان في [illegible] ويشير إلى تاريخه ككتاب وضع [illegible] لي بوي ، البهيجة بتكويناتها [illegible] نشاط [illegible] قبل الحملة الصليبية الأولى ، ولقد قابل أسقف لي بوي [illegible] أوربان الثاني هناك في ١٥ أغسطس ١٠٩٥م ، [illegible] الحملة الصليبية (٤٩) . وكان دير Chaise-Dieu [illegible] لدى كونت تولوز ، قريبا أيضا من [illegible] ونحن نشاهد [illegible] اليوم كنيسة القديس ميشيل [illegible] St. Michel-d'Aiguilhe وشرفات كرنشات بوليجناك Polignac في الطريق إلى دير Chaise-Dieu ، [illegible] على الاعتقاد بأن البيئة كانت مناسبة لتدريب مؤرخ حرب المقدسة (٥٠) .

وعلى أية حال ، فإن معظم التفاصيل الدقيقة لحياة ريموندأجيل مفقودة ، وليس هناك تاريخ محدد لمولده أو لوفاته . وتعطى أغلبية المخطوطات المتاحة أشكالاً مختلفة لإسمه مثل Aguilers, Agilers, Agiles, Aguilers ، وهذه الهجاءات المتنوعة ليست إلا من عمل النُساخ وليس لها أى مغزى . ومن الممكن أن يكون ريموندأجيل ينتمى إلى مقاطعة اللوار الأعلى Haute - Loire ، كما يقترح رنسيمان . ومرة أخرى فإن هذا لايعدو كونه مجرد تخمين [٤٢] . ونفضل أن نفكر فى ريموندأجيل إرتباطاً بكنيسة نيدل آوف لى بويه Needle of Le Puy. ولكن ينقصنا الدليل .

وإذا كانت تفاصيل حياته طفيفة ، فكذلك مايتعلق وضع تاريخه من حقائق ، فيروى ريموندأجيل أنه قد اضطلع بدراسته كمشروع مشترك مع بونز بالازون Pons of Balazun ، ذلك الفارس المغمور فى حاشية ريموند سانجيل . كما يرى أيضاً أنه عنى بوضع كتابه ليخفف من نقد الحملة الصليبية . وليبين كذلك مجد وعدالة سبل الرب . ويوضح ريموندأجيل أنه يعرف أكثر مما يروى ، إلا أنه يفضل أن يكرس وقته لإبراز نشاطات قوات ريموند الرابع كونت تولوز . ولقد سقط زميله المؤرخ بونز قتيلاً ، نتيجة جرح قاتل فى معركة عرقة ، وترك مهمة إكمال التاريخ لريموندأجيل [٤٣] . ويعتقد رنسيمان أن ريموندأجيل قد أتم تاريخه فى عام ١٠٩٩م ، ولكنه جانبه الصواب فى ذلك ، لأنه كما ذكرنا من قبل ، فإن المؤرخ كان مطلعاً على تأثير عدم المبالاة بالحرب ، الذى تلا سقوط بيت المقدس . وربما كان كرى Krey أقرب إلى الصحة حين إفترض أن العمل فى هذا الكتاب قد انتهى فى عام ١١٠٢م ، ولكن فى إمكاننا أن نكون متأكدين أنه تم فقط قبل موت ريموند كونت تولوز [٤٤] . ويبين تاريخ ريموندأجيل أنه قد ولّف رواياته مستخدماً ملاحظاته وتجاربه الشخصية ، وتواريخ أخرى توفرت لديه . وتشير كل الدلائل إلى أنه رتب مادته التاريخية بتسلسل الأحداث . ولسوء الحظ ، فإن المخطوط الأصلى مفقود ، ويرجع أقدم مخطوطان إلى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى [٤٥] .

ويوضح كتاب ريموندأجيل ، لحسن الحظ ، عدة حقائق تتعلق بالرجل نفسه ، تعليمه ، وميوله ، ومشاعره ، وتحيّزه ، وقد كتب رنسيمان ، فى نقده لكتابنا عن ريموندسانجيل ، أننا نرى أن ريموندأجيل كان غبياً ، وغير دقيق ، ومتحيزاً [٣٦] . إلا أننا كنا نهدف إلى إعطاء انطباع بأنه كان مؤمناً بالخزعبلات ، ومتحيزاً ، وغير مهتم بالتفاصيل ، ولكننا لم نكن نريد أن نوصل فكرة أنه كان غبياً . وكان ريموندأجيل أميناً حين اعترف بنواقصه ، ولكنه مثل معظم كتاب عصره ، كان يلتمس سرقة المؤلفات دون الشعور بوخز الضمير . وكان صريحاً فى طلب الصفح من الرب ، وكونت تولوز ، والجيش المسيحى . ولكن كان للكاهن الطيب إنحرافاته التى يمكن اكتشافها بسهولة . وكما فعل الكثيرون من كهنة عصره ، فقد ألقى ريموندأجيل بمسئولية الكوارث العسكرية الصليبية على الداعرات . وكذلك فقد كره البيزنطيين ولم يبذل جهداً ليثق فى مشاعرتهم للقضية الصليبية . ونكرنه ميالاً إلى المبالغة فى إظهار بسالة الصليبيين ، فقد بالغ فى وصف المعارك بمادة شعائرية ، وقدم لنا المعجزات لينعش الأحداث الكئيبة للحياة اليومية . ويشير استخدامه للمادة التاريخية المتعلقة بتاريخ القديسين إلى مهارته أكثر مما يشير إلى سذاجته . وقبل كل شىء ، فهو يكشف عن حساسية معينة للأحداث التى تدور من حوله ، وأحياناً يصدم قارئه بطرح تساؤلات تتعلق شرعية الحروب الصليبية .

وبصفة عامة ، فإن التاريخ الذى وضعه ريموندأجيل يكشف عن رجل على درجة متوسطة من التعليم ، بارع فى أداء الطقوس الكنسية ، ومتشرب بالآراء المادية للعصر النهائى للمسيحية ، رجل حول أحداث الحملة الصليبية الأولى إلى تاريخ إرشادى ، ذلك التاريخ الذى جاء معبراً بقدر ما أوضح من أمور . وباختصار ، فإنه بالمعايير الحديثة للسير الذاتية ، فنحن نعرف القليل عن ريموندأجيل . ولسوء الحظ ، فإن نقص المعلومات غير المرضى هذا ينطبق على مخطوطات كتابه .

مخطوطات الكتاب :

توجد سبعة مخطوطات كاملة أو شبه كاملة لكتاب ريموندا جيل . كما توجد عدة روايات غير كاملة أو مُمزّقة للكتاب . والمخطوط الذي وقع عليه إختيارنا لنقوم بترجمته هو مخطوط سان فيكتور St. Victor الرابع (Ms Latin 14.378) وهو من مقتنيات المكتبة الأهلية بباريس . ويضم هذا المخطوط ، على التوالي ، أعمال كل من فولشر أوف شارتر ، ووالتر المستشار [٣٣] ، وريموندا جيل ، وقد أضيف هذا الأخير ، كما أشير علينا ، لأن الرواية استمرت في تفاصيل أكثر مما جاء في تاريخ فولشر . وتوجد أيضاً نسخ من كتاب ريموندا جيل ممزوجة بتاريخ كل من فولشر ووالتر في المخطوط Ms Latin 5131 الذي تملكه أيضاً المكتبة الأهلية بباريس . وفي المخطوط Ms Latin 1102 ، بمكتبة الأرسنال بباريس ، والمخطوط Ms Latin 262 بمكتبة دي لافيل بكليرمونت ، والمخطوط Ms Latin 261 بمكتبة برن ، والمخطوط Ms Latin 8927 بمكتبة المتحف البريطاني . أما المخطوط Ms Latin 5511 A بالمكتبة الأهلية بباريس ، فيحتوي فقط على كتاب ريموندا جيل ويحمل عنوان « تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس » .

وفي النسخة المطبوعة لكتاب ريموندا جيل ، أدرج بونجارز Bongars في بداية القرن السابع عشر الميلادي في كتابه « أعمال الرب التي تمت بأيدي الفرنجة » "Gesta Dei per Francos" ، تاريخ ريموندا جيل مستخدماً مخطوطاً مفقوداً الآن ، هو على ما يبدو شقيقاً للنمط الذي يقدمه المخطوط رقم 5511 A ومخطوط برن 261 . وقد استخدم بونجارز أيضاً هذا المخطوط كأساس لطبعته . وليس تحت أيدينا الآن القراءات المصرفة لهذا العمل المفقود ، لأن بونجارز خلال محاولته لبناء نص من مصدريه ، استخدم تهذيبات ، وقدم قراءات من المخطوط 261 (برن) . ونحن متأكدين من أن مخطوط بونجارز قد فقد الأوراق التي تحتوي على رواية معركة عسقلان ، وأن ناسخ المخطوط قد نقل الرواية من مؤلف آخـــر .

وفي عام ١٨٦٦ م نُشر نص لتاريخ ريموندا جيل في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية (المؤرخون الغربيون) (RHC - H Occ.) . واستخدم المخطوط 14.378 كأساس مع تنقيحات اقتبست من المخطوط 5131 والمخطوط 5511 A والمخطوط 1102 والمخطوط 262 . ولم تُستخدم مخطوطات برن ولندن في هذه الطبعة ، مع أنه قد تم اقتباس قراءات مختلفة من بونجارز ، التي يتبع الكثير منها مخطوط برن 261 . وكذلك ، فإن ترجمات كتاب ريموندا جيل لم تحصل إلا القليل من النقد ، وربما لم تحصل شيئاً من النقد بالمرة ، ولم يتم القيام بأي شيء يذكر حول منهجه منذ أصدر كلينمنس مقالته [٣٤] .

وفي دراستنا للمخطوطات والطبعات المنشورة لكتاب ريموندا جيل وأعمال النقد حوله ، توصلنا إلى أن المناهج التي اتبعتها هذه الأعمال النقدية واتبعها المتخصصون ، لايمكن أن تكشف عن القليل مما هو جديد في مجال الدراسة ، وقد عملت الطبعات المنشورة على تحسين ترقيم النص وعلامات الوقف فيه . وخلال ذلك ، فقد حدث ولدى النساخ ، بتغيير أقسام المخطوط والتنقيح حسب الرغبة ، وأحياناً دون ملاحظة . بخلاف ما تم تجاهل التورية الأدبية ، والمتطابقات ، وأيضاً المقتبسات من الكتب المقدسة ومصادر القداس .

وبحثاً عن وسيلة نتبع بها أساليب أكثر فائدة لالتقاط المعلومات من هذه المصادر ، فقد رجعنا إلى المخطوطات لمزيد من الدراسة . ولما تخلينا عن القيام بمجهود للتثبت من قراءات الأصول المفقودة ، فقد رجعنا إلى مخطوط سان فيكتور ، وهي نسخة كاملة من كتاب ريموندا جيل ومحررة بعناية ، كما نقلت لنا الينا - واتبعنا ، في نشر الكتاب ، تشكيل المخطوط (دليل من العصور الوسطى لارتفاع وانخفاض الصوت أثناء القراءة جهرة) والتمسنا الإيضاح الحُر في المصادر والنماذج التي ربما كان المؤلف على دراية بها ، والمادة التي توجد في كتب آباء الكنيسة المقدسين التي توفرت لديه ، والترجمة الحالية لنص المخطوط رقم 14378 الموجود بالمكتبة الأهلية بباريس ، وهي لاتعتمد على المصادر المطبوعة . وتعكس ما تعلمناه من دراسة ومقارنة المخطوط . وأصبح لا مناص من أن نتعلم

• خلال دراسة للمخطوط إلى جانب ترجمة تاريخ [illegible] – [illegible]
[illegible] . وفي هذا الصدد يجب أن نقرر أنه كان كان [illegible] يجب أن [illegible]
الخيال يبدو حقيقة .

الأسلوب والمنهج

[illegible] كتاب [illegible] من التاريخ والمعلومات [illegible]
[illegible] . بالمقارنة مع [illegible] . فإن منهجه [illegible]
معلومات [illegible] ومن المحتمل أن [illegible]
[illegible] . لأن [illegible]
شكل [illegible] أكثر [illegible]
كانوا أكثر منه اهتماما بالأسلوب ولا [illegible]
في حد ذاته [illegible] [18] ومع ذلك [illegible]
وصف الأحداث [illegible]
[illegible] . [illegible]
[illegible] الأسلوب [illegible]
[illegible]
[illegible] كتب [illegible] الكنسية [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

وقد ظلت هذه الترجمة غير معروفة [illegible] . [illegible]
دراسة [illegible] . [illegible]
[illegible] . [illegible]
[illegible] [19] [illegible]
[illegible]

[illegible] في صحتها والمعرفة [illegible] معجزات وحياة القديسين . ولا يزال المؤرخون
[illegible] للمسجد الأقصى . وعلى
[illegible] [21] فقرات من الرؤى .
[illegible] كتب آباء القديس الكنسية . وأحيانا
[illegible] . ولا يتردد المؤرخ
[illegible] التي تؤدي [illegible] بالمثل –
[illegible] Exsurge Christi
[illegible] Et Libera [illegible]
[illegible] الرب [illegible]
[illegible] من المزامير [illegible] بعد الصلاة
[illegible] كأنها ([illegible]) [illegible]
[illegible] من تاريخ [illegible] ،
[illegible] هو [illegible]
[illegible] وهو [illegible] عندما [illegible]
[illegible] [20]

[illegible] من كتب [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] . كما يظهر [illegible]
[illegible] [22] . وقد [illegible]
[illegible] . فقد أحاط [illegible]
[illegible] إلى الأمام . وهكذا يظهر أن
[illegible] رحلته إلى بيت
[illegible] الأدب الكلاسيكي (الروماني) [illegible]
[illegible] الكنسية ، [illegible] معلوماته عن أعمال القديس [illegible]

Ambrose ، ومع ذلك ، فهو يستخدم تلك العبارات بطريقة تتناسب مع القيم الوصفية ، ويعتد بجمالها.

ويستعين المؤلف بالأناجيل ليؤكد عدالة المناسبة ، ويبذل جهده ليعطي لروايته وضعا دينيا . ويشهد على حقيقة المعجزة إثنين أو أكثر من شاهدي العيان كما في كتاب العظات ، والعهد القديم والعهد الجديد . فقد أصيب بطرس بارثلميو مكتشف الحربة المقدسة بحروق طفيفة عندما مر باختبار النار ، بسبب شكوكه المبكرة حول الحربة . وتكشف لنا روايته كلها عن الحربة ، إلى جانب كل تشعباتها ، عن إختلاق ماهر للأحداث . وحتى في وصفه لأرقبة الزوار السماويين ، فإن الراهب الطيب كان حريصا على أن يقدم لنا تفاصيل تنم على نماذج أيقونية كانت شائعة آنذاك [٣٤].

وبالإضافة إلى ذلك ، فقد استخدم ريموندأجيل شعارا أدبيا صار ذا شعبية بعد عدة سنوات ، عندما استعرض المهتمون بإحياء العلوم القديمة دراستهم باللاتينية . بتوجيه السباب إلى عدو وهمي ، وبذلك يقودون قراءهم إلى التشوق إلى معرفة اسم الشخص المسكين ، وفي اللحظة الأخيرة يحرمون جمهورهم من متعة اكتشاف ذلك بكتابة تعبير « لاسمح الله » . وبالنسبة لريموندأجيل فسأظل قراءة حتى باب الماخور ، وعث الراقصات ، واغتصاب النساء العاريات ، ولكنه يتراجع ، تاركا مشاهديه لخيالهم ، وعلى العكس من ذلك ، فإنه إلى جانب ذلك ، يستمتع بلذة وصف أعمال سفك الدماء العنيفة .

وأحيانا ، يكشف ريموندأجيل عن موهبة أدبية كما تثبت ذلك بعض الأمثلة . فيذكر الخلافات بين البيزنطيين والبروفنساليين باختصار شديد ، ثم يسارع إلى إخبار قراءه « هل اكتب عن أبشع خيانة حملتها مشورة الامبراطور ؟ أم أسجل الهروب المشين لجيشنا ، وعجزه الذي لايمكن لأحد أن يتصوره ؟ على العكس من ذلك ، فليستفسر من شاء أن يعرف ذلك من غيرنا » [٣٥].

ومثل الكثيرين من كتاب العصور الوسطى ، فقد تفرق ريموندأجيل في الكتابة الوصفية ، كما هو موضح في الفقرات التالية . فبعد انتصار كربوقا الفلاحون بالقرب من أنطاكية ، يحكى ريموندأجيل أنه كان بإمكان الشخص أن يرى القتلى منطرحين بطول الطريق مثل حزم القمح زمن الحصاد » [٣٥] . ويستمتع ريموندأجيل متهما هزيمة أهل طرابلس حين كتب « لقد كان مشهدا مبهجا ، والمياه المتدفقة في المجرى الذي تحمل أجساد النبلاء والدهماء إلى طرابلس دون رؤوسهم » [٣٦] . كما يجعل ريموندأجيل أن لا طائل من الخطيئة حين يحكي عن مصرع الفرسان الأتراك حين قفزوا من جرف هار ليهربوا ممن يلاحقونهم من الفرنج . فيعتقد أن ذلك كان مشهدا يسر الرب ، ولكن فقدان الخيول كان أمرا مزعجا بالنسبة له [٣٧] . وربما يعرض القارئ تاريخ ريموندأجيل ، وهو متنبه بهذه الملاحظات ، بشكل نقدي ، وهو يتذكر دائما أن المؤلف يعالج التاريخ معالجة لها غاية . وهكذا ، فقد أثار كتاب ريموندأجيل مشكلة لفهم منهجه وكذلك مشكلة ترجمة تاريخه لتقديمه لقراء القرن العشرين دون الهجوم على منزلته الأدبي الكبير .

الترجمـــــــــة

لقد اضطلعنا بمهمة القيام بهذه الترجمة منذ عدة سنوات مضت - إلى حد بعيد - نتيجة للمساعدة التي تلقيناها من الجمعية الفلسفية الأمريكية في شكل ثلاث منح . كما تلقينا العون من الجامعة الزراعية والميكانيكية بتكساس ، وجمعة هرستون . وأثناء القيام بهذا الجهد ، قمنا بإنجاز عدة ترجمات ومراجعات . وفي النهاية ، وبعد بحث دقيق ، قررنا أن نقوم بترجمة بتصرف . وبذلك أخضعنا أنفسنا للنقد المتوقع من قبل المدققين في المحافظة على اللغة وقواعدها . وبعد الفحص المبدئي ، شعرنا أننا تمكنا - بنوع ما - من استعادة روح ريموندأجيل وجعلنا من تاريخه جزءا من تاريخ البشرية ، أكثر من أثر جاف تبقى لعلماء اللغة اللاتينية . وبذلك نأينا عن التعبيرات التي غالبا ما ملأت الترجمات الوسيطة . تجنبنا ضمير المخاطب « أنت » ، " thee " و « أنت » (thou التي تستعمل لعدم الكلفة) وتحررنا كثيرا من التركيبات اللفظية لإيضاح المعاني . ومثل كل

الترجمات ، سيكون هناك بلا شك من الأخطاء ما يُسعد المتفحص لهذه الترجمة ولكننا نأمل في أن يكون القارئ أكثر اهتماما بتدفق الرواية ، وهي قصة مستهلها عواطف مجموعة جاهلة من اللاتين قاموا بالإلحاق لاسترداد القبر المقدس ويكشف ريموندداجيل بأسلوبه البسيط عن آمالهم ومخاوفهم ، واتهاماتهم ، ويسجل بأس الضعفاء منهم ، وبطولة من سقطوا قتلى في ميدان القتال ، كما سجل رجاءهم في الجزاء السابق ، وتساؤل القلب البشري لماذا تكون الحرب هي مشروع الرب .

• • • • •

هوامش مقدمة الترجمة الإنجليزية

(١) John L. La Monte, Some problems in Crusading Historiography, in Speculum, 15, 1940, pp. 57 - 75.

(٢) Hans E. Mayer, Bibliographie zur Geschichte der Kreuzzüge, Hannover, 1960.

(٣) D.C. Munro, The Speech of Pope Urban at Clermont, 1095, in A.H.R., 11, 1906, pp. 231 - 242. F. Duncalf, The Councils of Piacenza and Clermont, in Setton, vol. 1, p. 237 - 247.

(٤) M.W. Baldwin, Some Recent Interpretations of Pope Urban's Eastern Policy, in C.H.R., 25, 1940, pp. 459 - 466. A.C. Krey, Urban's Crusade-Success or Failure, in A.H.R., 53, 1948, pp. 235 - 250. James A. Brundage, Recent Crusade Historiography. Some observations and Suggestions, in C.H.R., 49, 1964, pp. 493 - 507.

ويقدم برندج كذلك قائمة شاملة للمراجع الأجنبية في هذا الموضوع

أنظـــر : Frederic Duncalf, op. cit., p. 221, n.

(٥) P. Alphandéry and A. Dupront, La Chrétienté et l'idée de Croisade, Paris, 1954; C. Erdmann, Die Entstehung des Kreuzzugsgedankens, Stuttgart, 1935. P. Rousset, Les Origines et caractères de la première croisade, Neuchâtel, 1954. M. Villey, La Croisade : Essai sur la formation d'une théorie juridique, Paris, 1942.

(٦) R.C. Smail, Crusading Warfare (1097 - 1193), Cambridge, 1956; Heinrich Hagenmeyer, Chronologie de la première croisade, in R.O.L., 6-8, Paris, 1898 - 1901; J. C. Andressohn, The Ancestry and life of Godfrey of Bouillon, Bloomington, 1947. Charles W. David, Robert Curthose, Duke of Normandy, Cambridge, 1920; J.H. Hill and Laurita L. Hill, Raymond -

IV de Saint-Gilles, Toulouse, 1959, and translation, Raymond IV, Count of Toulouse, Syracuse, 1962; Marshall M. Knappen, Robert II of Flanders in the First Crusade, in Crusades and other Historical Essays presented to Dana C. Munro, New York, 1928, pp. 79 - 100; Robert Lawrence Nicholson, Tancred, A study of his career and work in their relation to the First Crusade and the establishment of the Latin states in Syria and Palestine, Chicago, 1940; R.B. Yewdale, Bohemond I, Prince of Antioch, Princeton, 1917.

Steven Runciman, A History of the crusades, I, cambridge 1951 (٧)

A.S. Atiya, The Crusade - Historiography and Bibliography, Bloomington, 1962 (٨)

F. Duncalf, The Pope's plan for the First Crusade, in The Crusades and other Historical Essays presented to Dana C. Munro, New York, 1928, pp. 44 - 56. (٩)

H. Hagenmeyer, Die Kreuzzugsbriefe aus den Jahren 1088 - 1100, Innsbruck, 1901; P. Riant, Inventaire critique des lettres historiques des croisades, in A.O.L., I, 1881. (١٠)

Fulcherius Carnotensis, Historia Hierosolymitana Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium, in R.H.C. - H. Occ., vol. 3; Historia Hierosolymitana - Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium, ed. H. Hagenmeyer, Heidelberg, 1913; Mary E. Mc Ginty, Fulcher of Chartres, Chronicle of the First Crusade, Philadelphia, 1941. (١١)

والفصل الأخير عبارة عن ترجمة مرتبة لكتاب فوشيه . ويحمل هاجنماير عبء الأمر في ترجمة كاملة له . ويعتقد بعض المؤرخين أن فوشيه قد بدأ تاريخه في عام ١١٠١م ومهما يكن الأمر كذلك ، فإن ذلك يعني أن عمل ريموند أجيل كان قد تم . وعلى أي حال ، فليس ثمة دليل قاطع على ذلك

Anna Comnena, Alexiade, ed. B. Leib, in Collection byzantine de l'Association Guillaume Budé, Paris, 1937 - 1945; E.A.S. Dawes, The Alexiad of the Princess Anna Comnena, London, 1928. (١٢)

Petrus Tudebodus, Historia de Hierosolymitano itinere, in RHC Occ., 3, Paris 1866. (١٣)

H. Hagenmeyer, Anonymi Gesta Francorum et aliorum Hierosolymitanorum, Heidelberg, 1890; Louis Bréhier, Histoire anonyme de la première Croisade, in Les Classiques de l'histoire de France au Moyen Age, 4, Paris, 1924. (١٤)

وللمزيد عن الطبعات الأخرى والأعمال النقدية حول هذا الكتاب انظر :

H. Mayer, Bibliographie.

Runciman, op. cit., p. 329. (١٥)

يوجد مقتطف ترجمة ريموند أجيل في "Documents relatifs à l'histoire des croisades" (l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres)

انظر أيضا A.C. Krey, The First crusade, Princeton, 1921

قام كري بترجمة عدد من المصادر ووضعها في رواية عن الحملة الصليبية الأولى .

راجع أيضا ترجمة M. Guizot لتاريخ ريموند أجيل في Collection des memoires relatif à l'histoire de France, No. 21, Paris, 1824

ولم يقدم جيزو ترجمة كاملة ولا هوامش

Willelmus Tyrensis archiepiscopus, Historia rerum in partibus transmarinis gestarum, in RHC Occ., 1, Paris, 1844; William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the seas, trans. by E.A. Babcock and A.C. Krey, I, New York, 1943; Albertus Aquensis, Historia Hierosolymitana, in R.H.C. Occ., 4, Paris, 1879. (١٦)

وقد تأثر وليم الصوري بتاريخ ألبرت داكس .

قدمت مجموعة من الشعر قصة ثانية خيالية وضع منها R.E. Raspe كتابا بالإنجليزية سماه [illegible] ترجمة تعريبية .

IV de Saint-Gilles, Toulouse, 1959, and translation, Raymond IV, Count of Toulouse, Syracuse, 1962; Marshall M. Knappen, Robert II of Flanders in the First Crusade, in Crusades and other Historical Essays presented to Dana C. Munro, New York, 1928, pp. 79 - 100; Robert Lawrence Nicholson, Tancred, A study of his career and work in their relation to the First crusade and the establishment of the Latin states in syria and Palestine chicago 1940. & D. Yewdale, Bohemond I, Prince of Antioche, Princeton, 1917.

(٧) Steven Runciman, A History of the crusades, I, cambridge 1951.

(٨) A.S. Atiya, The Crusade : Historiography and Bibliography, Bloomington, 1962

(٩) F. Duncalf, The Pope's plan for the First Crusade, in The Crusades and other Historical Essays presented to Dana C. Munro, New York, 1928, pp 44 - 56

(١٠) H. Hagenmeyer, Die Kreuzzugsbriefe aus den Jahren 1088 - 1100, Innsbruck, 1901; P. Riant, Inventaire critique des lettres historiques des croisades, in A.O.L., 1, 1881

(١١) Fulcherius Carnotensis, Historia Hierosolymitana Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium in R.H.C. - H. Occ., vol 3, Historia Hierosolymitana Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium, ed. H. Hagenmeyer Heidelberg, 1913. Mary E. Mc Ginty, Fulcher of Chartres, Chronicle of the First Crusade, Philadelphia, 1941.

والعمل الأخير عبارة عن ترجمة جزئية لكتاب فوشيه . ويعمل هارولد فينك الآن في ترجمة كاملة له . ويعتقد بعض المؤرخين أن فوشيه قد بدأ تاريخه في عام ١١٠١م . فإذا كان الأمر كذلك ، فإن ذلك يبين أن عمل ريموند اجيل كان قد أتم - وعلى أي حال ، فليس لدينا دليل قاطع على ذلك .

(١٢) Anna Comnena, Alexiade, ed. B. Leib, in Collection byzantine de l'Association Guillaume Budé, Paris, 1937 - 1945. E.A.S. Dawes, The Alexiad of the Princess Anna Comnena, London, 1928

(١٣) Petrus Tudebodus, Historia de Hierosolymitano itinere, in RHC Occ., 3, Paris 1866.

(١٤) H. Hagenmeyer, Anonymi Gesta Francorum et aliorum Hierosolymitanorum, Heidelberg, 1890; Louis Bréhier, Histoire anonyme de la première Croisade, in Les Classiques de l'histoire de France au Moyen Age, 4, Paris, 1924.

وللمزيد عن الطبعات الأخرى والأعمال النقدية حول هذا الكتاب انظر ،

H. Mayer, Bibliographie.

(١٥) Runciman, op. cit, p. 329.

وسوف تنشر قريبا ريموند اجيل في ، "Documents relatifs à - l'histoire des croisades" (l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres)

انظر أيضا . A.C. Krey, The First crusade, Princeton, 1921

قام كري بترجمة عدد من المصادر ومزجها في رواية عن الحملة الصليبية الأولى .

راجع أيضا ترجمة M. Guizot لتاريخ ريموند اجيل في Collection des memoires relatif à l'histoire de France, No. 21, Paris, 1824

ولم يقدم جيزو ترجمة نقدية ولا هوامش

(١٦) Willelmus Tyrensis archiepiscopus, Historia rerum in partibus transmarinis gestarum, in RHC Occ., 1, Paris, 1844; William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the seas, trans. by E.A. Babcock and A.C. Krey, 1, New York, 1943; Albertus Aquensis, Historia Hierosolymitana, in R.H.C. Occ., 4, Paris, 1879.

ولقد تأثر وليم الصوري بتاريخ ألبرت دكس .

- البارون مونخاوزن هو بطل قصة ألمانية خيالية وضع عنها R.E. Raspe كتابا بالإنجليزية مليئا بالمغامرات . (الترجمة العربية).

(١٧) John Hugh Hill and Laurita L. Hill, Raymond IV de Saint-Gilles, see n.6.

(١٨) هذه المعلومات مستقاة من مقدمة ريمونداجيل . انظر ماتقدم ، ص ٤١

(١٩) John Hugh Hill and Laurita L. Hill, Contemporary Accounts and the Later Reputation of Adhémar, Bishop of Puy, in MH,9, 1955, pp. 30-38; James A. Brundage, Adhémar of Puy and His Critics, speculum, 34, 1959, pp. 201 - 212; H.E. Mayer, Zur Beurteilung Adhemars von Le Puy, in DA, 16, 1960, Jean Richard, Raymond D'Aguilers, Historien De la Première Croisade, in JS, 1969 - III, pp. 206 - 212

(٢٠) Pierre - Roger Gaussin, L'Abbaye de la Chaise - Dieu (1043 - 1518), Paris, 1962, pp. 130 - 132

تميز هذا الكتاب الممتاز بأثر كنيسة Chaise - Dieu على حياة ريمونداجيل .

(٢١) Ibid, pp. 70 - 72

(٢٢) Runciman, op. cit., p. 188

(٢٣) انظر ما يتقدم ، ص ٤١

(٢٤) Runciman, op. cit., p. 328, A.C. Krey, The First Crusade, p. 9, n. 18.

(٢٥) لم نترجم القراءات من المخطوط (MS Latin 5131 A) الموجود بالمكتبة الأهلية بباريس ، والذي يرجع إلى القرن الخامس عشر الميلادي ، لأنه متأخر زمنيا ، ولأنه به محاولة لمزج تاريخ والتر وتاريخ ريمونداجيل ، كما لم نترجم قراءات المخطوط (MS Latin 6041 A) لأنه متأخر زمنيا وغير كامل ، كما أن المخطوط (MS Harley 4340) الموجود بالمتحف البريطاني لأنه يحمل العنوان خطأ ولا يحتوي على كتاب ريمونداجيل

(٢٦) استيفن رنسيمان نقد لكتاب « ريمون الرابع دي سان جيل » انظر .

E H R, July, 1961, pp. 515 - 16.

(٢٧) يعتبر والتر المستشار Walter the Chancellor أول المؤرخين اللاتين الذين نشأوا في الشرق . وقد وضع كتابه « الحرب الأنطاكية » Bella Antiochena بتكليف من روجر دي سالرنو أمير أنطاكية (١١١٢ - ١١١٩م) ويعالج الكتاب الفترة من ١١١٤م إلى عام ١١٢٢م . وأهم مايحتويه ، إلى جانب حروب روجر ضد السلاجقة ، المعلومات الجغرافية عن بلاد الشام . ويعد والتر آخر من أنجبه المجتمع اللاتيني بشمال الشام من مؤرخين ، وآخر من اهتم بسرد تاريخ إمارة أنطاكية الصليبية . وكتابه منشور في الجزء الخامس من مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية (المؤرخون الغربيون) . انظر : حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ، ص ٣٢ - ٣٤ . (الترجمة العربية) .

(٢٨) أنظر ما سبق ، حاشية ١٥ . راجع أيضا

Clemens Klein, Raimund Von Aguilers, in Quellenstudie zur Geschichte des ersten kreuzzuges, Berlin, 1892.

(٢٩) Krey, The First Crusade, p. 8.

(٣٠) Louis Bréhier, op. cit., p. 131, n. 4.

(٣١) انظر ما يتقدم ، ص ٢٤٧ .

(٣٢) سنذكر مصادر هذه الأشكال المختلفة في حواشي الترجمة ، انظر مايتقدم ، ص ٩٩ حاشية رقم ١١ على سبيل المثال .

(٣٣) Radulf Willard Two Apocrypha in Old English Homilies, in Beiträge zur Englischen Philologie, 30, 1935, p. 2

(٣٤) انظر مايتقدم ، ص ٢٠٤ - ٢٠٧ . والتفسير باختبار النار الذي مر به بطرس بارتلميو

(٣٥) انظر ما يتقدم ، ص ٧

(٣٦) انظر ما يتقدم ، ص ٩٠ .

(٣٧) انظر ما يتقدم ص ٢١٦

(٣٨) انظر ما يتقدم ص ٩٢ .

تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس

كتبه ريموند اجيل (راهب نوتردام دى بويه)

يلتمس بونز أوف بلازون Pons of Balazun [١] وريمـــوند ، راهب لى بويه [٢] ، منك باسيدى ، أسقف فيفييه Viviers [٣] ، ومن كل مستقبى العقيدة مباركتكم ومشاركتكم فى عنائنا . ونقوم بوضع هذا الكتاب لنخبركم وكل شعب ماوراء الألب بكل الأعمال الجيدة التى نفذها الرب ، بكرمه المعتاد على الدوام ، من خلالنا . وسوف تعين هذه المهمة التى اضطلعنا بها - أساساً بسبب عدم موائمة الحرب ، ومن هنا دأب الأبقين على نشر الأكاذيب دون الحقيقة - قراء المستقبل على تجنب صداقة ومشورة مثل هؤلاء المرتدين ، لأن أعمالهم ستكون كتابا مفتوحاً . وجدير بالتسجيل أن جيش الرب ، بالرغم من أنه تحمّل سوط الرب بسبب خطاياه ، ومع ذلك انتصر على كل الوثنيين بسبب عطف الرب الودود . ولكن يبدو أنه أمر شاق جدا أن نكتب عن كل رحلة ، لأن بعض الصليبيين عبروا ولماشيا Sclavonia [٤] . وعبر آخرون بلاد المجر [٥] ، ولومبارديا ، أو ذهبوا بحرا للك . فقد كان محل اهتمامنا هو الكتابة عن كونت سانجيل [٦] ، وأسقف لى بويه [٧] ، وجيشهم ، دون القلق شأن الآخرين .

• • • • •

هوامش مقدمة ريموند اجيل

(١) بونز أوف بلازون ، المؤلف المشارك لكتاب ريموند اجيل ، من المحتمل أنه كان فارساً من دوقية فيفييه . وهناك عدة أشكال لاسمه ومنها Baladun, Ballon, Balun . ولقد لقى حتفه أثناء حصار عرقة ، وأكمل ريموند اجيل الكتاب بنفسه .

(٢) ريموند اجيل راهب مدينة Le Puy هو مؤلف « تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس » أنظر :

Runciman, op. cit., pp. 328 - 329.

(٣) كان أسقف فيفييه زمن الحملة الصليبية الأولى شخص يدعى ليجر Leger . وتقع فيفييه إلى الجنوب الشرقى من Le Puy . Chaise - Dieu (كرسى الرب) وكانت منضمة إلى الأخيرة التى كانت كنيسة ريموند كونت تولوز المفضلة ، أنظر :

Dom. Cl Dovic ande Dom. J. Vaisette, Histoire générale de Languedoc, m HGL., 3, p. 542.

(٤) سكلافونيا هو الاسم الذى أطلقه ريموند اجيل على دلماشيا ، موطن السلاف . ومن المحتمل أن وصفه لدلماشيا أرض صخرية ، صعب الوصـــول إليها ، جبلية ، مقتبس من المزامير (Psalm. 62 . 1) وهذا المزمور « يارب ، يارب ، ياربنا » " Deus Deus Meus " يردد فى صلاة الأحد ، عند أداء التسابيح الصباحية التى تمجد الرب ، وفى صلاة المرثى عند أداء هذه التسابيح . وفى مثل هذه المناسبات الأخرى التى يستلزم فيها كتاب الصلوات ترديد مزامير الأحد .

(٥) مرت المجــر بفترة سلام قبل الحروب الصليبية بفضل جهود الملك لاديسلاس (١٠٧٧ - ١٠٩٥ م) . وكانت مشكلة الملك كولومان الذى خلف لاديسلاس هى كيفية كبح جماح الجيوش الصليبية .

(٦) غالبا ما استخدم مؤرخو اللاتين والمؤرخون المسلمون اسم كونت سان جيل للإشـــارة إلى كونت تولوز . وكانت سان جيل - زمن الحملة الصليبية الأولى - مدينة مزدهرة ، وتقع عند مصب نهر الرون .

- درج المؤرخون المسلمون على تسمية كونت تولوز باسم الصنجيل . انظر : ابن الأثير : الكامل ، جـ ١ ، ص ١٩٣ . (الترجمة العربية) .

(٧) المقصود بأسقف لي بوي Le Puy هو أدهيمار .

- وقد عيّن البابا أوربان الثاني رئيساً دينياً للحملة الصليبية الأولى إلى جانب رئيسها العلماني ريموند كونت تولوز . انظر :

Runciman, op. cit., vol. I, pp. 109 - 110.

(الترجمة العربية) .

بسم الله الرحمن الرحيم

« قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا »

صدق الله العظيم

(الكهف ١٠٣ - ١٠٤)

الفصل الأول

تواجه سحب الشباب ، ونكاد نلمس هذه الأبخرة وندفعها بأجسادنا إلى الأمام [42] . ووسط هذه المخاطر كان الكونت يحمي دائما أتباعه بالقتال في مؤخرة الجيش ، وبالبقاء حتى يكون هو آخر من يصل إلى مركزه في الركب ، وربما كان البعض يعود إلى المعسكر وسط النهار أو عند غروب الشمس ، إلا ريموند ، فدائما ما كان يصل إلى خيمته في منتصف الليل أو عند صياح الديكة [43] .

وعبرنا دلماشيا دون خسائر بسبب الجوع أو الصراع المكشوف ، برحمة الرب ، وبأعمال الكونت ومشورة أدهيمار . ويرشدنا هذا العبور الناجح للبلاد الهمجية لنؤمن بأن الرب أراد لجيشه من المحاربين أن يعبر دلماشيا كي يبرأ الهمجيون والوثنيون ، في وقت من الأوقات ، من همجيتهم ، أو يساقوا ، مثل المخطئين غير المغفور لهم ، إلى عقاب الرب .

وعند وصولنا إلى سكوتاري Scutari [44] بعد رحلتنا الشاقة عبر دلماشيا ، أكد الكونت مبدأ الأخوة [45] ، ومنح ملك السلاف العديد من الهدايا حتى يتسنى للصليبيين أن يشتروا احتياجاتهم في سلام ، ويبحثوا عن ضروريات الحياة [46] إلا أن هذا لم يكن إلا وهما ، لأننا دفعنا بمرارة على ثقتنا في السلام الوهمي ، حين انتهز السلاف فرصة هذه المناسبة ، وقاتلوا بوحشية ، وذبحوا قومنا ، واختطفوا ما أمكنهم إختطافه من العزل . وربما تُصدقوا إذا قلت أننا كنا نصلى من أجل ملاذ وليس من أجل الانتقام [47] . ويكفي هذا مختصر في سرد قصة دلماشيا الكئيبة هذه

وعند ضرب الخيام بالقرب من دورازو [48] ، كنا على اقتناع بأننا في بلادنا ، لأننا صدقنا أن ألكسيوس وأتباعه كانوا إخواننا المسيحيين وحلفاءنا . ولكنهم في الحقيقة انقضّوا بوحشية الأسود ، على رجالنا المسالمين ، الذين كانوا في غفلة عما يحتاجونه للدفاع عن النفس ، وقام قطّاع الطرق هؤلاء ، وهم يعملون ليلا ، بذبح أهلنا في الخنادق ، وفي الأماكن النائية عن المعسكر ، وسرقوا منهم ما استطاعوا سرقته ، وبينما كان البيزنطيون يتصرفون على هذا المنوال دون ردع ، فقد وعد قائدهم حنا كومنين [49] بالسلام ، ولكنهم أثناء هذه المهادنة ، قتلوا بونتيوس ريتر Pontius Rainaud ، وجرحوا شقيقه بطرس جر قاتلا ، وهما أميران في منتهى النبل [50] . وتوفرت لنا الفرصة للانتقام ، لكـ استأنفنا سيرتنا ، متغافلين إثبات الظلم الذي وقع بنا . وفي الطريق وصلتنا خطابات تتحدث عن الأمن والأخوة ، وربما جاز لي أن أقول ، بالبنوة ، من قـ الامبراطور [51] ، لكن هذه كانت كلمات جوفاء ، لأنه من أمامنا ومن خلفنا وعن يميننا وعن يسارنا ، كان الأتراك والكومان والغز ، والشعوب المتوحشة الجناك والبلغار - متربصين بنا [52] .

• • • • •

John W. Nesbitt, The rate of march of Crusading Armies in Europe, in Traditio, vol. 19, 1963, p. 176.

(١٣) كان يرفع آخر من يعود إلى المعسكر « عند الفجر » . إقتبس المؤرخ هذا التعبير من إنجيل مرقص . انظر :

Mark, 13 : 35

(١٤) سكرتاري Scutari هي إحدى مدن العصور الوسطى، وتعرف الآن باسم شكودر Shkodër في ألبانيا . ولقد وصل الجيش البروفنسالي إلى سكرتاري حوالي نهاية يناير ١٠٩٧م .

(١٥) كثيرا ما استخدم ريموندابيل تعبير « الأخوة » . انظر :

Wallace Daly, Christian Fraternity, the Crusaders, and security of Constantinople (1097 - 1204), in MS, 22, 1960, pp. 43 - 91

- يعتبر ذكر ريموندابيل للزي لقادة الحملة بإنشاء صندوق (وصية) للإخوان لصرفه المعروف هو أول النصوص التاريخية التي تذكر هذا التقليد الذي يسميه المؤرخ confraternitas . فقد تطور هذا التقليد بين الفرنج في بلاد الشام ، وسرعان ما تكونت جماعات (الأخوة الدينية الصليبية) . وأصبحت نواة لتكوين جماعات الفرسان مثل الداوية والاسبتارية والتيوتون ، كما كانت نواة لقيام نظام الفرسان في الإمارات الصليبية المختلفة . راجع مقدمة الترجمة العربية ص ٣٣

(الترجمة العربية)

(١٦) يعتقد رنسيمان أن كونت تولوز قد سار بدون Bodin ، الأمير الصربي في سكرتاري .
- بالرجوع إلى رنسيمان . نجد أن مصدر معلوماته الوحيد في هذا الصدد هو ريموندابيل ، ولم يذكر رنسيمان ما جعله يخرج حملة كونت تولوز شيئا سوى إسم الأمير الصربي . انظر

Runciman, op. cit., p. 181

(الترجمة العربية)

(١٧) منع القديس أمبروز من الاحتكار ، انظر .

St. Ambrose, De Officiis, MPL, 16, col. 62.

= كان أمبروز حاكما لميلانو واختير أسقفا لها في عام ٣٧٤ م بناء على رغبة أهلها ، إبان الشكلة الدينية الآريوسية في عهد الامبراطور فالنتيان (٣٦٤ - ٣٧٥ م) ، وبعد توليه الأسقفية أخذ أمبروز في دراسة الكتاب المقدس ومؤلفات آباء الكنيسة وخاصة اليونان . ووضع رسالة عن الإيمان المسيحي De Fide وكتابه عن وظائف الاكليروس = التي اقتبس منه ريموندابيل كثير من الفقرات - متأثرا فيه بالمفكر الروماني الأشهر شيشرون Cicero وكتابه عن الوظائف De Officiis ، وإن كانت معالجة أمبروز للفضائل تغلب عليها الروح المسيحية . وتأثر كثير من آباء الكنيسة بكتابه وآرائهم القديس أوغسطين . وأمضى القديس أمبروز حياته في توجيه الأباطرة الوثنيين إلى صالح الكنيسة والدولة . وله في ذلك عدة رسائل بعث بها إلى مختلف الأباطرة الوثنيين والمسيحيين . أفرد لها الدكتور رأفت عبد الحميد جزءا من السلسلة التي أصدرها عن العلاقة بين الدولة والكنيسة في العصور الوسطى . انظر : رأفت عبد الحميد ، الدولة والكنيسة ، جـ ٤ ، القاهرة ، ١٩٨٣ م ، صفحات متفرقة . (الترجمة العربية) .

(١٨) دورازو Durazzo (Dyrrachium) إحدى المدن البيزنطية ، وتقع على الساحل الشرقي للأدرياتي جنوب سكرتاري . وقد وصل إليها الصليبيون في أوائل فبراير . انظر

Runciman, The First Crusader's Journey Across the Balkan Peninsula, in AB, 19, 1949, pp. 207 - 221.

وقد أخذنا في معظم الحالات بالتواريخ التي حددها هاجنمير . وعلى أية حال ، فإن محاولة وضع تواريخ لتحركات جيوش الحملة الصليبية الأولى هو موضوع عرضة للخطأ . انظر .

H. Hagenmeyer, H. Chr., Nos. 116, 117.

(١٩) جنا كومنين هو ابن أخت الامبراطور ألكسيس كومنين . بعثه الامبراطور إلى دورازو بتعليمات خاصة باستقبال الصليبيين .
- بعد تجربة ألكسيس مع حملة الشعوب بقيادة بطرس الناسك ووالتر المفلس ، اتخذ الامبراطور عدة تدابير لتلافي ما قد يقوم به صليبيو حملة الأمراء من شغب في بلاده . فبعث بقادته إلى كل من دورازو وأفلونا Avlona بصحبة مترجمين من اللاتين وقوات من المرتزقة . وأصدر أوامره إلى هؤلاء باستقبال الفرنج بترحاب ، وأن يجهزوا المؤن لإمداد القوات الصليبية بها ، وأن يرقبوا الفرنج بعناية ، وأن يضطروا عليهم ليعيدوا إلى جادة الصواب ، إذا ما خرجوا عن الطريق المحدد لمسيرتهم ، للسلب والنهب . وقد نجح جنا كومنين في تنفيذ المهمة الموكلة إليه بدقة بالغة . انظر .

Runciman, op. cit., p. 210.

(الترجمة العربية) .

(٢٠) برتشيرس بيبو وأميره ، بطرس ، فرسان من القوات البروفنسالية

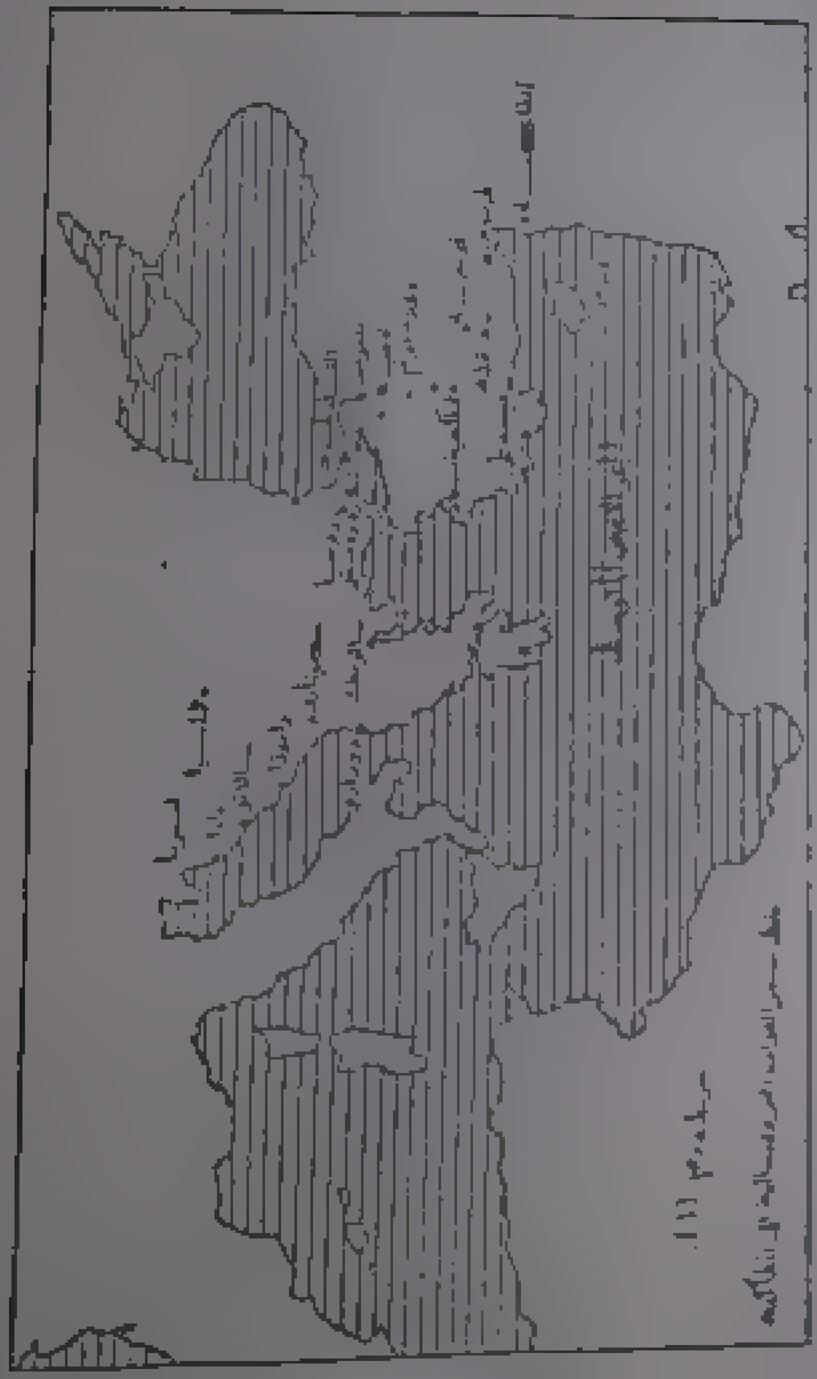

خريطة رقم (١)

(٢١) استعمل رينسيمان تعبير «إذا جاز لي أن أقول» كوسيلة لتخفيف حدتها من المعلومات. انظر:

Cecil. for the Maccise [illegible]. 4.

(٢٢) سلك الصليبيون طريقا إيجابيا. ويظهر رينسيمان استياءه من الاستخفاف البيزنطي للفرنج تحت الزراسة المشهدة. ومن جهة أخرى، فقد كان البيزنطيون على دراية بحشد النهب التي تم بها اللاتين. ويقصد رينسيمان بالكومان القبيلة التركية التي يطلق عليها كبشاك (Kipchak)، والبتشنج (Pechenegs) شعب تركي عرفه البيزنطيون بالسيثيين. أما الأوزي فهم شعب تركي يدعى أصلا بالأتراك الغز.

— عمد الأباطرة البيزنطيون – ومن بينهم ألكسيوس كومنين – إلى استخدام الجند المرتزقة في جيوشهم من عدة أجناس مختلفة، حتى لا يتيسر توحيد كلمة هذه الأجناس المتباينة الديانات واللغات والتقاليد تحت إمرة رجل واحد ربما يطيح بالإمبراطور كما حدث في أخريات عهد الإمبراطورية الرومانية على أيدي الجرمان في غرب أوربا. لذلك نجد إلى جانب كتائب الجرمان كتائب من الفرنجة والنورمان والروس، وعناصر من الأتراك كالبجناكية والغز والكومان والتركوبولي وغيرهم. وللمزيد عن هذه الفرق انظر: جوزيف نسيم يوسف: العرب والروم، ص ٢٠٢، حاشية (٩).

(المترجمة العربية)

الفصل الثانى

الرحلة عبر الأراضى البيزنطية والملاقات بين ريموند سانجيل وألكسيوس

ومما زاد من متاعبنا أننا كنا في أحد الأيام في وادي بيلاجونيا عندما أسر البجناك أسقف لي بوي الذي ابتعد عن المعسكر قليلاً بحثاً عن مكان مريح ليخيم به [1]. فأنزلوه من على بغله وجردوه من ملابسه وضربوه على رأسه بشدة ولكن أحد البجناك في سعيه وراء ذهب آدهيمار أنقذه من زملائه من قطاع الطريق. وهكذا بقي الأسقف العظيم الذي لا غنى عنه لعدالة الرب، للمجلس الشوري، وذلك برحمة الرب. وعندما سمعت الجلبة في المعسكر، هجم الصليبيون وأنقذوا الأسقف من البجناك الذين لم يسرعوا بالإجهاز عليه.

وهكذا وصلنا، وقد أحاط بنا جنود الإمبراطور الخونة، إلى قلعة بوسينات Bucinat، حيث سمع ريموند أن البجناك قد أعدوا لنا كميناً في مضايق جبل قريب [2]. وعكس الكونت الوضع بأن أعد لهم كميناً هو الآخر، وباغت، مع فرسانه، أولئك المرتزقة في هجوم مفاجيء، فقتلوا منهم كثيرين ودحروا الباقين. ووسط هذه الأحداث وصلت رسائل مطمئنة من ألكسيوس، ومع ذلك فقد أحاط بنا العدو، ومن كل جانب كنا نواجه خداع الامبراطور.

وبعد ذلك بوقت قصير، وصلنا إلى روسا Roussa، وهي مدينة تنم عن الاحتقار السافر الذي أبداه سكانها تجاهنا، أن فقدنا صبرنا الذي عرفنا به، فحملنا السلاح، وهدمت الأسوار الخارجية، وغنمنا غنائم كبيرة، واستلمنا المدينة التي استسلمت لنا [3] ثم غادرنا المدينة بعد أن رفعنا رايتنا على المدينة وهتفنا تولوز Tolosa، صيحة التجمع الخاصة بالكونت. وزحفنا بعد ذلك إلى رودوستو Rodosto، حيث هاجمتنا قوات المرتزقة التابعة لألكسيوس والتي كانت متلهفة على الانتقام لهزيمة روسا، لكننا ذبحنا بعض أولئك الأجيريين وأخذنا بعض الغنائم [4].

وفي رودوستو ، عاد إلينا عملاؤنا الذين كنا قد أرسلناهم إلى بلاط ألكسيوس . وأتوا بتقارير ودية عن وعود بيزنطية كان السبب الرئيسي فيها رشوة الإمبراطور لهم ، ولهذا فإن الأحداث التالية لا تحتاج إلى تعليق أكثر من ذلك . وحث مبعوثون بيزنطيون وصليبيون ريموند على التخلي عن جيشه والإسراع مع عدد قليل من أتباعه ، وهو غير مسلح ، إلى بلاط الإمبراطور . وأبلغوه أن بوهيموند ، ودوق اللورين ، وكونت الفلاندرز ، وأمراء آخرين ، كانوا يتوسلون إلى ريموند أن يعقد صلحاً بخصوص الحملة الصليبية مع ألكسيوس ، الذي قد يحمل الصليب ويصبح قائداً لجيش الرب[4] وأضافوا أن ألكسيوس كان على استعداد لتسوية كل الأمور التي تخص الرحلة مع الكونت ، مما يتعلق به وبالآخرين . وأوضحوا أن غياب نصيحة رجل عظيم كهذا مثله الكونت سيكون أمراً سيئاً . لذلك فإنهم ألحوا على ريموند أن يأتي إلى القسطنطينية مع قوة صغيرة حتى إذا اكتملت الترتيبات مع ألكسيوس ، بدأ الزحف بدون تأخير . وصل ريموند بهذه النصيحة ، وترك حامية في المعسكر ، وسبق الجيش في هذه المهمة ، وذهب وحده غير مسلح إلى القسطنطينية .

وإلى هنا ، كانت تسجيل هذه الأعمال ، وهي أعمال تتسم بالبهجة والنجاح ، مهمة سعد الكاتب القيام بها ، إلا أن القصة أصبحت مشحونة بالمرارة والحزن ، حتى إنه ليتراءى لي أنني قد بدأت نسياناً أتمسك على إكماله . وبصراحة فإنني لا أدري كيف أسجل هذه الأحداث ، وفق أهميتها . هل أكتب عن أشنع خيانة حملتها مشورة الإمبراطور ؟ أم أسجل الهروب المشين لجيشنا وعجزه الذي لا يمكن لأحد أن يتصوره ؟ أو أبدأ برواية موت أولئك الأمراء العظماء ، ولماذا تكون ذكرى حزن أبدي ؟ على العكس من ذلك فليستفسر من شاء أن يعرف من غيرنا[6]

ومع ذلك فإننا سنحكي هنا حدثاً له أهمية كبيرة ، فبينما كان كل قومنا يحلمون بمغادرة المعسكر ، هاربين ، متخلين عن رفاقهم ، وتاركين كل ما حملوه من البلاد البعيدة ، عادت إليهم بركة التكفير والصيام المتقنة قوتهم الراسخة ، لدرجة أنهم أنعشوا رغبتهم في الفرار ، ولأنهم السابق المشين . إلا أننا لن نتوقف عند هذه القصة الحزينة أكثر من ذلك .

وفي الاستقبال البالغ الاحترام الذي أعده ألكسيوس وأمراؤه لريموند طلب الإمبراطور من الكونت أن يحلف يمين الولاء الذي أقسمه له الأمراء الآخرون . ورد ريموند بأنه لم يحمل الصليب ليدين بالولاء لسيد آخر ، أو ليكون في خدمة أي كائن آخر غير الرب الذي من أجله هجر وطنه وممتلكات آبائه[7] . ومع ذلك فإنه سيأتمن الإمبراطور على نفسه وأتباعه وأمتعته ، إذا سافر إلى بيت المقدس مع الجيش . ولكن ألكسيوس عارضه معتذراً عن الزحف متعللاً بخوفه من أن يقوم الألمان والمجريون والكومان ، وغيرهم من الشعوب المتوحشة ، بنهب امبراطوريته ، إذا اشترك في الزحف مع الحجاج[8] .

وفي هذه الأثناء عرف الكونت ، بعد أن علم بهزيمة رجاله وموتهم ، أنه قد خُدِع ، ومن خلال خدمات بعض قادتنا استدعى الإمبراطور إلى المحاكمة متهماً إياه بخيانة الصليبيين . ولكن ألكسيوس رد بأنه هو نفسه لم يكن يعرف أن قواتنا نهبت مملكته وأن شعبه قد ارتكب كثيراً من الأخطاء ، وأنه لا يرى أي أساس قانوني لتحقيق الكونت ، إلا إذا كان جيش ريموند ، أثناء تخريبه - كعادته - للقرى والمدن المحصنة ، فر رجاله هاربين لدى رؤية جيش الإمبراطور . ومع ذلك فإنه وعد بتقديم ترضية للكونت ، وأعطاه بوهيموند كرهينة للوفاء بتعهده . وتوصلا إلى اتفاق ، وأجبر الكونت - ظلماً - على إطلاق سراح رهينته

وفي نفس الوقت وصل جيشنا إلى القسطنطينية ، وبعده جاء الأسقف مع أخيه ، الذي كان قد تركه مريضاً في دورازو[9] . وأرسل ألكسيوس مراراً وتكراراً ، يعد بأنه سيكافئ الكونت بسخاء إذا أقسم له يمين الولاء كالأمراء الآخرين . ولكن ريموند كان دائم التفكير في الانتقام للمعاملة الظالمة التي لقيها هو ورجاله ، وسعى إلى محو عار هذه الفضيحة . ومع ذلك ، فقد أسف دوق اللورين ، وكونت الفلاندرز وأمراء آخرون لمثل هذه الأفكار ، قائلين أنه من الحماقة الكبرى أن يقاتل المسيحيون المسيحيين بينما الأتراك على مقربة .

والواقع أن بوهيموند قد تعهد بتقديم دعمه لألكسيوس ، في حالة إتخاذ ريموند إجراء ضده ، أو إذا اضطر الكونت أكثر من ذلك عن أداء يمين الولاء. والقسم عند هذا المنعطف ، وبعد التشاور مع البروفنساليين ، أقسم الكونت أنه لن يحترم – سواء بنفسه أو عن طريق آخرين – حياة الامبراطور وممتلكاته . وعندما ذكر بالولاء رد بأنه لن يقسم يمين الولاء بسبب تعرض حقوقه للخطر . ويمكننا أن نضيف إلى ذلك أن ألكسيوس أعطاه القليل من المتاع النثرى بسبب عناده وتشدده (١٠).

* * * * *

(١) بيلاجونيا Pelagonia منطقة تقع إلى الشمال الغربى من [illegible] ، انظر :

Runciman, op. cit. The First crusader's Journey, p. 217, H. Chr. 124, 125, 134.

وكان البروفنساليون قد وصلوا إلى هذه المنطقة فى أواسط فبراير ١٠٩٧ م .

(٢) بوسينات Bucenat قلعة لم نقف على موضعها .

(٣) روسا Rusa مدينة فى إقليم تراقيا ، واسمها التركى كشان keshan ، وقد وقع الهجوم على روسا فى ١٢ أبريل ١٠٩٧ م . وعن رحلة قوات كونت تولوز من دورازو إلى القسطنطينية انظر : H. Chr., 118, 124, 125, 134

كانت قوات بوهيموند النورماندى قد مرت بمدينة روسا قبل أن تصلها قوات كونت تولوز بحوالى أسبوعين ، ولقيت الترحيب المناسب . وربما يرجع هجوم البروفنساليين على المدينة إلى أن أهل المدينة لم يتوفر لديهم من المؤن مايسمح لعساكر ريموند الذين استشعروا الغذاء من قبل سكان المدينة . انظر :

Runciman, History of the Crusades, Vol. I, p. 162

(٤) رودوستو Rodosto مدينة ساحلية تستغرق الرحلة منها إلى القسطنطينية حوالى أربعة أيام ، وفى ١٨ أبريل ١٠٩٧ م ، قابل كونت تولوز سفراء الإمبراطور ألكسيوس هناك .

(٥) بوهيموند (١٠٥٠ - ١١١١م) ابن روبرت جويسكارد Robert Guiscard ، الذى سبق أن حارب البيزنطيين قبل الحملة الصليبية الأولى (١٠٨١ - ١٠٨٥م) ، وآلت أملاك روبرت جويسكارد فى جنوب إيطاليا إلى روجر بورسا Roger Borsa الأخ الأصغر لبوهيموند [illegible] شارك بوهيموند فى الحملة الصليبية الأولى على أمل أن يحصل لنفسه على إقطاع فى الشرق الأدنى ، واستولى على أنطاكية لنفسه وبقى أميرًا لها من ١٠٩٩ [illegible] فى [illegible] عام ١١١١م . وجودفرى Godfrey [illegible] (١٠٦٠ - ١١٠٠م) دوق اللورين السفلى ، ولم يكن دوره فى الحملة الصليبية الأولى كبيرًا مع أنه صار حامى القبر المقدس ، وقد جعل منه المؤرخون اللاحقون واحدًا من أعظم [illegible] الحركة الصليبية [illegible] كونت الفلاندرز (ت ١١١١م) فهو ابن روبرت الفريزى الذى توجه حاجًا إلى بيت المقدس حوالى ١٠٨٧م أو ١٠٩١م ، وللمزيد عن هؤلاء القادة انظر حاشية رقم (٦) فى مقدمة الترجمة الإنجليزية .

= يحدد جورج وليم مبدأ بداية تاريخ إمارة بوهيمند الأول في أنطاكية بعام ٩٩ م إلا أن غالبية المؤرخين يحددون تاريخ حكمه في الإمارة الصليبية بتاريخ تحرير الاتفاقية التي عقدها مع الجنوية (١٤ يوليو ١٠٩٨ م / ١١ شعبان ٤٩١ هـ) . انظر .

E.G. Rey, Resume de l'Histoire des Princes d'Antioche, in ROL, 4, p. 352

(الترجمة العربية)

(٦) هذه الفقرة تذكرنا بخطباء أوائل عصر النهضة الذين غالبا ما ينتهون بترك جمهورهم دون إجابة على التساؤلات التي طرحوها . ومن الواضح أن ريموند داجيل هنا لم تتوفر لديه المعلومات بخصوص ما حدث ، لذا لجأ إلى هذه الوسيلة الأدبية .

- ما حدث هنا هو أنه بعد رحيل كونت تولوز لمقابلة الامبراطور البيزنطي - وبالطبع لم يصحبه مؤرخنا ريموند داجيل . لقد عاودت قواته الهجوم على سكان رودستو ، ولكن في هذه المرة كانت القوات البيزنطية موجودة . وأطبقت على البروفنساليين ، وسيطرت عليهم تماما بعد أن استولت على أمتعتهم ، وتملكت البروفنساليين ، الذين لم يدركوا أن اللوم يقع عليهم . حنقوا أن كونت تولوز قد استدرج إلى القسطنطينية حتى يمكن تحطيم قواته دون قائدها وزعيمها . وكان نفس الانطباع لدى ريموند نفسه ، الأمر الذي جعله أصبح أكثر تشككا في الكسيوس - وخصوصا في مفاوضاته معه . ويبدو أن قوات ريموند التي أصابها الهلع من البيزنطيين ، قد بقيت في مواقعها حتى لحق بها الشعوب الأخرى [illegible] إلى القسطنطينية ، وكانت [illegible] للتغلب على كثير من الصعاب التي عاقت حسن العلاقات بين الامبراطور وكونت تولوز . ولذلك تبدو رواية ريموند داجيل في هذا الموضع شديدة الصراحة مع البيزنطيين ولكن من السهل إدراك ما حدث بالفعل . انظر

Runciman, The First Crusaders Journey, p. 318

(الترجمة العربية) .

(٧) كانت صاحبة كونت تولوز الصحية محل تشكك وأقاويل . فقد أشيع أنه قرر أن لا يعود إلى موطنه الأصلي . ومن المؤكد أن الروايات تعكس الرأي [illegible] شخصيته وريموند داجيل هنا يصبح [illegible] متألقة ، ربما تقوم على ما كان من المتوقع أن يقوله كونت تولوز

(٨) يقصد استعمال ريموند داجيل لتعبير « الشعوب المتوحشة » الذي يلي كلمة الكومان - Kumans رأينا في أنه في فقرة سابقة (حاشية ٢٤ ، الفصل الأول) قد استعمل كلمة الكومان وكلمة tanaces . وفي هذا الفصل يستعمل الكومان و genus ferae .. شعوب متوحشة » . وهكذا ، نعتقد ، أن كلمة tanaces لم تكن تعني جنسا من الناس ولكنها تعني تعبيرا عاما عن الشعوب المتوحشة .

(٩) لم يعرف دور أدهمار في مشاحنات ريموند وألكسيوس . وعلى أية حال ، فيرى المعجبين بشخصية المندوب البابوي أن رأيه السديد هو الذي تمهد المرقف بين الامبراطور والكونت . انظر :

John and Laurita Hill, Raymond IV, count of Toulouse, pp. 50 - 51

(١٠) ترجمنا قسم ريموند على أن يكون معناه أنه لن « يسلب من الامبراطور حياته أو ممتلكاته » . بينما يحمل كرى وأخرون ريموند يتعهد بأنه لن يلوث « حياة الامبراطور أو شرفه » . ومثل هذا القسم كان مألوفا في جنوب فرنسا . والمعقول ترجمة للكلمة اللاتينية " honorem " هي « ممتلكات » . وفي الواقع ، لقد قام كونت تولوز بأداء قسم مشابه في بلاده . ولم يصبح بهذا المعنى تابعا للامبراطور . انظر :

John and Laurita Hill, The Convention of Alexius Comnenus and Raymond of Saint-Gilles, in AHR, 58, 1953, pp. 322 - 27

- أصر الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين على أن يؤدي له قادة الحملة الصليبية الأولى يمين الولاء والتبعية المرتبط بالنظام الإقطاعي في غرب أوربا آنذاك ، ليلزم قادة الحملة بخدمته حتى يحافظ على بلاده من عبثهم وليستخدمهم لصالحه في استرداده ما سبق منه من ممتلكات من السلاجقة . ومن المعروف أن أول من قام بأداء يمين الولاء والتبعية أمام الامبراطور كان هيو فيرماندوا شقيق فيليب ملك فرنسا وتبعه كل من جودفري بعد ذلك ، ثم بلدوين البولوني وستيفن كونت بلوا وشارتر ، ومن بعدهم روبرت كونت الفلاندرز ، [illegible] أخي بوهيمند رفضه منذ البداية في الاتفاق مع الامبراطور رغم تردده في حلف اليمين أمامه ليحافظ على حسن العلاقات مع ألكسيوس ويحقق مصالحه في الشرق . ولم يقسم هذا اليمين أو حتى يذهب إلى القسطنطينية شكري [illegible] بوهيمند . وهكذا لم يرتبط أيضا باتفاقية القسطنطينية التي عقدت بين الامبراطور وقادة الحملة الصليبية الأولى في مايو ١٠٩٧ م ، والتي تعهد فيها الامبراطور بمساعدة الصليبيين في مهمتهم ، والمحافظة على سلامتهم خلال مرورهم في أراضي =

= دولته . كما تعهد بإمدادهم بالمؤن مع إمدادهم بفرقة عسكرية تكون تحت تصرفهم . وفي المقابل تعهد الصليبيون بأن يعيدوا إلى بيزنطة كل ما يستولى عليه من أملاك السلاجقة . انظر :

Anna Comnena, The Alexiad, English trans. by Elizabeth Dawes, London, 1928, pp. 257 - 267, Albert d'Aix, pp. 304 - 313; Gesta Francorum, pp. 5 - 7

ويقدم الدكتور جوزيف نسيم يوسف بحثا وافيا عن سياسة ألكسيس تجاه الصليبيين، والنقاط ما يزيد عن ٩٧ من معهم . مع مناقشة دقيقة لآراء المؤرخين المعاصرين والمحدثين - وهو أشمل ما كتب في هذا الموضوع . انظر : جوزيف نسيم يوسف ، الحروب والروم ، ص ٢١٩ - ٢٢٨ .

(الترجمة العربية) .

الفصل الثالث

حصار نيقية وعبور الأناضول

وبعد عبور البحر (مضيق البسفور) أسرعنا إلى نيقية حيث حاصرها جودفري وبوهمند وقادة آخرون ، ممن كانوا في الطليعة . ونيقية مدينة تتمتع بحماية طبيعية ودفاعات بارعة[1] . كانت تحصيناتها الطبيعية تتكون من بحيرة كبيرة تصل إلى أسوارها ، وخندق مليء بالماء المتدفق من الجداول القريبة ، يسد المدخل من ثلاث جهات . وقد أحاط رجال مهرة نيقية بأسوار عالية جداً ، حتى أن المدينة لم تكن تخشى هجوم الأعداء ولا قوة أي آلة . وكانت مغالق الأبراج القريبة موضوعة في شكل متناوب ، حتى أن أحدا لم يكن يستطيع التحرك بالقرب منها ، دون أن يتعرض للخطر ، وإذا أراد أحد أن يتحرك إلى الأمام ، لم يكن يمكنه أن يلحق أي ضرر بها لأنه سيكون من السهل جدا صده من أعلى البرج .

وباختصار ، كما قلنا ، فإن بوهمند حاصر المدينة من الشمال ، بينما حاصرها الدوق والألمان من الشرق ، والكونت وأسقف لي بوي من الجنوب ، وللتسجيل نذكر أن كونت نورماندي كان متغيباً[2] وهنا يجب أن نسجل الحدث التالي : فبينما كان كونت تولوز يرغب في إقامة معسكره هناك ، زحف الأتراك هابطين من الجبال في تشكيلين ، وانقضّوا على جيشنا . ولاشك أنهم قد وضعوا خططهم على أمل أن تقاتل إحدى فرقتيهم جودفري والألمان المخيّمين في الشرق ، بينما تدخل الفرقة الأخرى من الأتراك نيقية من خلال الباب الخشبي ، وتخرج من باب آخر ، لتبيد بذلك ، بكل سهولة ، قواتنا التي لا تتوقع شيئا . لكن الله ، النقمة المنادة على مستشاري السوء ، أحبط خططهم ، وبدا وكأنه قد دبّر للمعركة بحيث تؤدي إلى النتيجة التالية . فقد جعل الله الكونت ، الذي كان على وشك إقامة معسكره مع رجاله ، يهاجم الفرقة التركية التي كانت في ذلك الوقت على وشك دخول نيقية . وفي الهجوم الأول ، أباد ريموند منهم الكثيرين وقتل الكثيرين ثم طارد من بقي منهم إلى جبل قريب ، بينما في الوقت نفسه أجبر الأتراك الذين كانوا يخططون لقتلنا ، على الأثان على الفرار ، وأجبروا .

بعد هذا النجاح نصبنا الآلات وقصفنا السور دون أي نتيجة . كان السور لا يخترق . وكان الدفاع المجسور بالأسهم والآلات يبعث على الإحباط . وأخيراً وبعد خمسة أسابيع من الحصار غير المجدي ، وبمشيئة الله . اندفعت بعض القوات من حاشية أدهيمار وريموند بعد مناوشات ، إلى الأمام في مخاطرة كبيرة إلى أسفل أحد الأبراج . وتحت حماية دبابة [٤] . دكوا ذلك البرج دكا ، وقوضوا أسسه وسووه بالأرض . وحال حلول الليل دون الإستيلاء على نيقية . وفي الصباح التالي ثبت أن جهودنا كانت بلا طائل . ذلك أن المدافعين عن المدينة أصلحوا الأسوار تحت جنح الظلام . واستولى الخوف على نيقية ، فاستسلمت . وكان الدافع الأكبر إلى استسلامها أن السفينة البيزنطية التي سحبت على الأرض كانت تطفو الآن على مياه البحيرة . وبالتالي فإن الأتراك الذين انعزلوا بذلك عن أسلحتهم ، انحنوا لألكسيوس . حيث لم يعد لهم أمل في وصول النجدة إليهم ، بينما كانوا يشهدون الجيش الفرنجي يزداد يوما بعد يوم ، وزاد من ذلك وصول كونت نورماندي .

وتعهد ألكسيوس للأمراء والشعب الفرنجي أنه سيسلمهم كل ما في نيقية من ذهب وفضة وخيول وأمتعة ، وزاد على ذلك أن قال أنه سيؤسس بها ديرا لاتينيا وملجأ للمعوزين من الفرنجة . كما وعد بأن يعطي لكل فرد سخاء يجعل كل جندي في الجيش يتمنى أن يخدمه مدى الحياة . ووثق الفرنجة في هذه الكلمات المخلصة . واغتبطوا لاستعادة نيقية . ولكن ما إن أصبحت نيقية في حوزة ألكسيوس . حتى تصرف بجحود مع الجيش . حتى أن الناس سيعيرونه ويصمونه بالمهانة طالما كان حيا [٥] .

في ذلك الوقت علمنا أنه عندما وصل بطرس الناسك وحشود المزارعين التي صحبته إلى القسطنطينية قبل شهور من وصول القوة الصليبية الرئيسية . خانه ألكسيوس ، بأن أجبره وأتباعه ، الذين لم يكونوا على معرفة بموقع الحرب ولا بفنونها . على عبور المضايق وليس معهم دفاعات ضد الأتراك [٦] ، وهكذا ، فعندما شعر أتراك نيقية بأنهم وقعوا على فريسة سهلة . قتلوا ، بسرعة وسهولة ، ستين ألفا من المزارعين . ولم يفلت منهم إلا من فروا ولجأوا إلى إحدى القلاع .

وعروا المتحصنين وركبهم القرود لتجاجهم ، فأرسلوا الأسلحة التي استولوا عليها والصليبيين الذين أسروهم ، إلى خلفائهم وإلى القادة المسلمين في أماكن نائية ، ونشروا في بلادهم كتابات تفيد بأن الفرنجة لم يكونوا أهل حرب .

وفي أعقاب هذه الأحداث تركنا نيقية متجهين إلى الأناضول وأثناء الزحف ، تصرف بوهيمند وبعض الأمراء في اليوم التالي تصرفا غير حكيم ، حيث انفصلوا عن الكونت والأسقف والدوق [٧] . وفي اليوم الثالث من زحف بوهيمند منفصلا وبينما كان يفكر في أن يخيم ، رأى جنوده مائة وخمسين ألف رجل يقتربون في تشكيل معركة [٨] . وبينما كان ينظم صفوفه للمعركة كما تقتضي الظروف ويستعد للقتال ، فقد الكثير من جنوده الذين تأخروا خلفه وضلوا الطريق . وهكذا ، فعندما احتدم القتال ، استدعى بوهيمند لمساعدته الكونت والدوق ، اللذين كانا على مسافة ميلين فقط منه . ولم تلبث النجدة أن وصلت ، فارتدى الصليبيون دروعهم وامتطوا صهوة خيولهم ، وأسرعوا لقتال العدو فور وصول رسول بوهيمند بالأخبار .

وتحطمت آمال قلج أرسلان القائد المهاجم . لدى رؤية الفرسان المتدفقين فأسرع بالفرار [٩] . ويبدو لنا أن عناية السماء هي التي جعلت قلج أرسلان الذي أسر الأسرى . واستولى على الكثير من خيام بوهيمند ، يهجر أمتعته الآن ، بفضل قدرة الله . ورغم أننا لم نر ذلك ، فإن البعض قد حكى عن معجزة كبيرة رأوا فيها فارسين وسيمين في دروع لها بريق ، وهما يركبان أمام جنودنا ولايبدو أن طعنات رماح الأتراك تؤثر فيهما ويخيفان الأعداء ، حتى أنهم لم يستطيعوا القتال [١٠] . ورغم أننا علمنا ذلك من أتراك ارتدوا عن عقيدتهم ويحاربون في صفوفنا الآن ، فإنه يمكننا أن نؤكد من الأدلة أننا كنا نرى وليمين في زحفنا فرسانا موتى وخيولا ميتة .

وبعد هزيمة الأتراك وصدهم ، مررنا بسرعة من خلال الأناضول بسلام ، وإن تأخرت المسيرة قليلا لمرض ألم بريموند [١١] ورغم أن ما سنحكيه الآن يفقر

أوراق الساحرين التهكمين ، لأنه ينبغي تسجيله علناً ، لأنه وصف لمعجزة من تدبير السماء . فقد قال كونت ساكسوني يزعم أنه مبعوث من لدن القديس جيلز ، أنه قد تلقى أمراً مرتين بأن يطلب إلى الكونت : « اهدأ بالاً . فلن تموت من هذا المرض لأنني ضمنت لك راحة من عند الله ، وسأكون دائماً قريباً منك » (١٢١) . ورغم أن الكونت كان سريع التصديق ، فقد أضعفه المرض ، حتى أنه عندما أُخذ من سريره ووُضع على الأرض ، لم يكد يجود في صدره نفس من أنفاس الحياة . وهكذا فإن أسقف أورانج قرأ الصلاة كما لو كان رفيقه ميتاً . إلا أن السماء ، التي جعلته قائداً للجيش ، رفعته في الحال من الموت وأعادته سليماً معافى (١٢٢) .

* * * * *

هوامش الفصل الثالث

(١) نيقية مدينة تاريخية في عهد الامبراطور أنتيجونوس Antigonus حوالي عام ٣١٦ ق.م ، وتقع في إقليم بثينيا بالقرب من بحيرة أسكانيوس Ascanius في آسيا الصغرى . وفي زمن الحملة الصليبية كان يحكم فيها قلج أرسلان السلجوقي . وقد ظل كونت تولوز في جوار القسطنطينية حتى ١٠ مايو ١٠٩٧م ، ثم رحل إلى نيقية . ومن المحتمل أن علاقاته مع ألكسيوس كانت ودية أكثر مما يدفعنا ريموندأجيل إلى الاعتقاد فيه . انظر :

Hagenmeyer. Chr., 148.

- بدأ الصليبيون في حصار نيقية في ١٤ مايو ١٠٩٧ م ، ووصل كونت تولوز إلى نيقية في ١٦ مايو . ولم يحدد ريموندأجيل هذه التواريخ التي حددها لنا كل من مؤرخ الجستا وفوشيه أوف شارتر

Gesta Francorum, p. 14; Fulcher of Chartres, p. 40. [الترجمة العربية]

(٢) كونت نورماندي (١٠٥٤ - ١١٣٤م) المعروف بروبرت كيرثوس Robert Curthose ، دوق نورماندي . وهو ابن وليم الفاتح [ت ١٠٨٧م] ، الذي استولى على عرش إنجلترا في ١٠٦٦م . وقام روبرت برهن أراضيه لدى أخيه ، الملك وليم الثاني [روفوس Rufus] ، ليشارك في الحملة الصليبية وقد سجل معاصروه مآثره في الحملة الصليبية . ولكنه - بشكل عام - كان شخصاً غامضاً فيما يخص الأمور السياسية للحركة الصليبية . انظر

C.W. David. Robert Curthose of Normandy. Cambridge, 1920.

(٣) المنجنيقات تصنع من الخشب يدخل فيها القاطعون - وغالب النشّابين - ليلقوا بها من الأسوار ليصيبوا . وقد ذكر مرضي بن علي، وهي تستخدم أيضاً لكسر الرجال الذين يخرجون عبر الخندق وما شاكله من أن يرموا بحجارة منجنيق مقابل فيحصل منهم مضرتها ، وصحبت إبانة أنهما تدفع لتنصب - وقد أورد مرضي بن علي الطرسوسي وصفاً دقيقاً للساية ومجانيقها وقواريرها وجن سائر أنواع الستائر ، وذلك في كتابه « تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء » الذي وضعه خصيصاً لصلاح الدين الأيوبي . وقد نشرت مقتطفات من هذا المخطوط مع ترجمة فرنسية وتعليقات هامة للمؤرخ كلود كاهن . انظر

Cecil Cahen, Un Traité d'Armurerie Composé pour Saladin, BEO, 12, 1947-1948, pp. 100 - 153

(الترجمة العربية) .

(٤) جاءت رواية ريموندجيل عن حصار نيقية قريبة من رواية مؤلف الجستا المجهول ، إلا أن في كل منهما تفاصيل تشير إلى قربه من مصادر المطرمات . وقد استسلمت الحامية السلجوقية الموجودة داخل نيقية للقائد البيزنطي بوتوميتس Butumites في ليلة ١٨ يونية ١٠٩٧ م . وفي صباح اليوم التالي شاهد الفرنج الرايات البيزنطية ترفرف فوق نيقية . انظر :
Hagenmeyer, Chr . 154, 160

(٥) لا شك أن ريموندجيل - مثل بقية الصليبيين - قد حنق لاستسلام سلاجقة نيقية للبيزنطيين . الأمر الذي أضاع الفرصة على الصليبيين في نهب ثروات المدينة . إلا أن كل من فوشيه أوف شارتر ومؤلف الجستا إلى جانب ستيفن كونت بلوا - في خطابه إلى زوجته أديلا - والراهب أنسلم - في خطابه إلى مناسس رئيس أساقفة ريمس - والبرت دكس قد أشاروا صراحة إلى الهبات التي وزعها الامبراطور البيزنطي على قادة الصليبيين ، وإلى كميات الطعام التي وزعها على أفرادهم . انظر
Hagenmeyer, Epistolae, pp. 140 143, Gesta Francorum, pp. 15 - 17;
Fulcher of Chartres, p. 80

وقد نشر دكتور جوزيف نسيم يوسف خطاب ستيفن كونت بلوا إلى زوجته أديلا وترجمته العربية . انظر جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ، الملحق الرابع ، ص ٣٢٩ - ٣٣

وقد قمت بنشر النص اللاتيني (وترجمته العربية) لرسالة أنسلم راهب ريبمونت في رسالتي للماجستير . انظر : حسين عطية : امارة أنطاكية الصليبية وعلاقاتها بالدول الاسلامية المجاورة ، الملحق الثاني ، ص ٢٩٤ - ٣٠١

(الترجمة العربية) .

(٦) كان بطرس الناسك شخصاً مجهولاً حتى دعا البابا أوربان الثاني إلى قيام الحملة الصليبية الأولى في مؤتمر كليرمونت ، وقد قام بطرس - كداعية متجول - للفلاحين ليبدأوا المسيرات متجهة إلى بيت المقدس . ولقد وجه هينريش هاجنمير في كتابه « بطرس الناسك » هذا الرجل من دوره الأسطوري في الحملة الصليبية الأولى ومهما يكن من أمر ، فقد ظل بطرس شخصية لها شعبيتها لدى المؤرخين المعاصرين -

- وكان يمثل لديهم رجل الرب في الأناتي . وسيلاحظ القارئ أن ريموندجيل ينتهز كل فرصة ليظهر كراهيته للبيزنطيين .

(٧) تستخدم المؤرخين لاسم « رومانيا » " Romania " دون تدقيق ، والمقصود بها هنا الأناضول .

- لم تسمح مرتبة ريموندجيل ككاهن خاص لكونت تولوز بحضور مجالس أمراء الحملة الصليبية ، لذا فهناك الكثير من القرارات التي يتخذها هؤلاء ولا يدري عنها مؤرخنا شيئاً ويتضح هذا من بعض رواياته خاصة إذا ما ألقى اللوم على أقران سيده من قادة الفرنج . وهنا لم يعلم ريموندجيل . أن الأمراء قد عقدوا مجلساً للتشاور قبل وصولهم إلى دوريليوم وقرروا تقسيم الجيش إلى مجموعتين . الأولى - التي يلقى المؤرخ باللوم على قادتها - وتضم قوات بوهيمند وكونت الفلاندرز وكونت بلوا والبيزنطيين ، والثانية وتضم قوات كونت تولوز وجودفري وهيو فرماندوا . وعمد القادة إلى ذلك للتغلب على مشكلة المؤن . انظر :
Gesta Francorum, p. 18; Albert d'Aix, pp. 328 - 329

(الترجمة العربية) .

(٨) من الصعب الأخذ بالأرقام التي يوردها ريموندجيل . انظر :
Runciman, History of the Crusades, I, pp. 336 - 341

(٩) يصف ريموندجيل هنا معركة دوريليوم (بالقرب من إسكي شهر الحالية) ودارت المعركة في أول يوليو ١٠٩٧ م . انظر :
Hagenmeyer, Chr . 160.

ونتج عن هذه المعركة هزيمة السلاجقة ، ولم يتحدث ريموند عن هجوم أدهمار أسقف لي بوي الذي حوّل مسار المعركة لصالح الفرنج ، بينما يتجاهل ريموند مع المظاهر السماوية . ويرى سوماجي Sumberg مهارة أدهمار العسكرية . ويعتقد رنسيمان أن الجيش المشترك للصليبيين هو سبب انتصارهم في ذلك اليوم . وقلج أرسلان هو ابن سليمان بن قتلمش ويعرف بابن سليمان ، ويعرفه الصليبيون بسليمان . وقد أصبح قلج أرسلان ، بعد موت ملكشاه في ١٠٩٢م ، حاكماً لآسيا الصغرى ، ولم يحكم سيطرته عليها حتى موته في ١١٠٧م . وكانت السمة الإقطاعية التي اتسمت بها دولة السلاجقة هي التي أدت إلى نجاحات الفرنج .

(١٠) يحرص المؤرخ خلال تاريخه كله على تسجيم التفاصيل التي يمكن أن يؤيدها الشهود .
ومن الواضح أن هذا لم يكن مجرد أسلوب كتابي ... والفرسان ، ... الشموع اللامعة ،
عبارة من الحشاء أنها مقتبسة من كتاب المكابيين ، وتحقق النصر من خلاله قوة الرب
وقيع ... ... في الشموع اللامعة ... انظر

St. Ambrose, De Officiis ... MPL. 16 Col. 82.

(١١) يحذف المؤلف هنا كل تفاصيل لرحلة الشاق عبر جبال طوروس ومن لكنا الرحلة عبر
هضبة الأناضول ... ومن الصعب تفسير سبب تلك الفجوة في تاريخه .
- من المعروف أن الصليبيين رحلوا عن نيقية في ٢ يوليو ووصلوا إلى ... ...
خارج سور أنطاكية الشمالي في ٢ أكتوبر ١٠٩٧ م ، أي أن ... أكثر ... أحداث
ما يقرب من أربعة أشهر ، شارك بنفسه فيها . انظر

... p. 17 ... [illegible] ... Chartres, pp. ...

(الترجمة العربية)

(١٢) ثمة موضع يعرف كرشت ... جبل ... في ... يوقع (١٠٩٨ ، ...) ... ...
... ...
... ... ٤٨ ... ١٠ - ٤) هي جزء من ... ...
كيف يكون كرشت ... مريضا ... ...
... ... إلى ميدان القتال خلال أيام ... ...
١٠٩٧ م تاريخها ... ... انظر .

Hagenmeyer, Chr. ... 17...

(١٣) كان يطلق على أسقف ... Hugue ... ... ، وكان ... ... في الكنيسة
اليونانية ... ... ، ... ... في ... ...
الصالح

الفصل الرابع

إغلاق الطرق وبداية حصار أنطاكية

وبعد ذلك وبينما كنا نقترب من أنطاكية ، إقترح كثير من الأمراء أن تؤجل الحصار ، خاصة وأن الشتاء كان يقترب ، وقد توزع الجيش في الاستحكامات بعد أن أرهقه حر الصيف [1] ، كما قالوا بأنه ينبغي على الجيش أن ينتظر القوات الإمبراطورية ، والتعزيزات التي وردت تقارير تفيد بأنها في الطريق من فرنسا . ونصحونا بالدخول في مواقع الشتاء حتى يأتي الربيع . وقدم ريموند مع بعض الأمراء الآخرين المعارضين اقتراحاً مضاداً : « لقد وصلنا بوحي الله ، وبعطفه ومحبته ، وفزنا بمدينة نيقية الحصينة ، وبرحمته للنصر ونعيش في أمن من الأتراك ، وفي سلام وانسجام في جيشنا ، لهذا ينبغي أن نعهد إليه بأمورنا . فلا ينبغي أن نخشى الملوك أو قادة الملوك ، ولا نرهب الأماكن ولا الأيام ، حيث أن الرب قد أنقذنا من أخطار كثيرة » [2] . وانتصر الرأي الأخير ، ووصلنا أنطاكية وخيمنا بالقرب منها . حتى أن المدافعين عن المدينة قذفوا علينا النار من أعالي أبراجهم فأصابوا رجالنا في خيامهم ، وخيولنا .

ونتنهز هذه الفرصة لنصف أنطاكية وتضاريسها حتى يكون لقرائنا الذين لم يريدوا أن يتابعوا المعارك والهجمات [3] ففي أحضان جبال لبنان يقع سهل عرضه مسيرة يوم وطوله مسيرة يوم ونصف اليوم . ويحد السهل مستنقع ، وإلى الشرق يجري نهر يتدفق حول جزء من هذا السهل ، فيعود إلى حافة الجبال الواقعة في الاقليم إلى الجنوب ، بحيث لا يمكن العبور من الجبال إلى النهر ، ومن هناك ينطلق ليصل إلى البحر الأبيض المتوسط القريب منه . وتقع أنطاكية في هذه المضايق التي يكونها الجدول الذي يشق طريقه في الجبال المذكورة ، بحيث أن تدفق النهر غرباً عبر السور الأسفل يجعل الأرض بينه وبين المدينة تتخذ شكل السهم . والواقع أن المدينة التي تقع إلى الشرق قليلاً ، ترتفع في هذا الاتجاه ، وتحتضن داخلها قمم ثلاثة جبال . وتفصل الجبل الواقع في الشمال عن الجبلين الآخرين عقبة عظيمة بحيث لا يمكن إلا بصعوبة بالغة الانتقال من أحدهما إلى الآخر .

ويزهو التل الشمالي بقلعة ، والتل الأوسط بأخرى تسمى باليونانية كولاكس أما التل الثالث فليس به إلا أبراج . فضلا عن ذلك فإن المدينة تمتد ميلين طولا وتحميها الأسوار والأبراج والمتاريس حتى أنها لا يمكن أن تخشى هجوم الآلات ولا هجمة الإنسان عليها حتى إذا اجتمع على حصارها الجنس البشرى كله [٤] .

وباختصار ، فإن الجيش الفرنجى الذى كان يتكون من مائة ألف من الرجال المسلحين ، والذى كان يخيم على طول خط شمال أنطاكية التى وصفناها ، قنع بالبقاء فى مكانه دون أن يشن هجوماً على الجبهة . ورغم أن المدينة لم يكن بها إلا ألفان من الفرسان الممتازين ، وأربعة أو خمسة آلاف من الفرسان العاديين ، ونحو عشرة آلاف أو أكثر من المشاة . فإن أنطاكية كانت فى مأمن من الهجوم ، طالما أن الأبواب كانت عليها الحراسة ، لأن وادياً ومستنقعات كانت تحمى الأسوار العالية [٥] وعند وصولنا ، اتخذنا مواقعنا بشكل عشوائى ، ولم نعين مراقبين . وعسكرنا بغباء شديد ، حتى أن الأعداء لو عرفوا بذلك ، لأمكنهم أن يجتاحوا أى قطاع فى معسكرنا .

فى ذلك الوقت وقعت فى أيدينا قلاع إقليمية ومدن قريبة بسبب الخوف منا ، والرغبة فى التخلص من نير الأتراك . وترك فرساننا أنطاكية ، متجاهلين المصلحة العامة ، وجريا وراء الأمال الأنانية لكسب بعض المنافع المادية حتى من بقوا فى المعسكر كانوا يستمتعون بحياة الترف ، لدرجة أنهم كانوا لا يأكلون إلا أحسن قطع اللحم ، كالفخذ والأكتاف ويحتقرون لحم الصدر ، ولا يفكرون مطلقاً فى القمح والنبيذ . فى تلك الأيام الطيبة لم يكن هناك من يذكرنا بأعدائنا المختبئين داخل أنطاكية إلا رجال المراقبة على طول الأسوار ، إلا أن الأتراك سرعان ما اكتشفوا أن المسيحيين كانوا يخربون القرى والحقول علانية وبدون سلاح ، ورغم أن معلوماتى قليلة عن تحركات الأتراك ، فإن أعداءنا سرعان ما خرجوا من أنطاكية أو جاءوا من حلب ، على بعد مسيرة يومين وقتلوا كلاً منا (جنودنا الباحثين عن المؤن) المتناثرين بلا دفاع [٦] وقد عكرت هذه الإجراءات الانتقامية صفو حياتنا الهانئة . كما أن الفرص الجديدة للقتل والنهب شجعت المسلمين على شن إغاراتهم بشكل متكرر .

وحفزت أنباء هذه الأحداث الصليبيين على أن يطلبوا من بوهيمند ليقود هجوماً مضاداً . ورغم أن بوهيمند لم يستطع أن يجمع إلا مائة وخمسين فارساً ، فإنه انطلق أخيراً بصحبة كونت الفلاندر ، وكونت نورماندى ، يدفعه الخجل من أن يوصم بالتهرب من الانتقام ، وكان السبب الأكبر فى خروجه أمر الله . فهزموا مرابع الأعداء وطاردوهم ودفعوهم إلى حتفهم فى نهر الأورنت (العاصى) . ثم عاد المسيحيون إلى المعسكر فرحين بالغنائم . وفى نفس الوقت رست السفن الجنوية على الساحل فى ميناء سيميون على بعد نحو عشرة أميال [٧] . وفى هذه الأثناء كان الأعداء يتسللون تدريجيا من أنطاكية ، فيقتلون السادة والمزارعين الذين كانوا يرعون خيولهم وماشيتهم عبر النهر ويعودون بما نهبوه إلى داخل المدينة .

نتوقف الآن عن سرد روايتنا لكى نصف الإطار الذى وقعت فيه الأحداث حتى نوضح هذه الأحداث . كانت خيامنا تقوم على النهر مباشرة ، بينما يقطع هذا النهر جسر عائم مصنوع من الزوارق التى كانت موجودة هناك . كما كان لأنطاكية جسر عند الركن الغربى الأسفل ، وتل فى مواجهتنا يقوم عليه مسجدان ، وكنيسة صغيرة بها قبور . ونعود إلى روايتنا ، فنلاحظ أن قواتنا التى كثيرا ما كان العدو يتفوق عليها عددياً ، كانت تجرؤ وتشتبك مع المقاومة الطامعة . ولكن الأتراك الذين كانوا ينهزمون ويتبعثرون كثيراً ، كانوا يجددون القتال وسبب ذلك ، من ناحية ، أنهم كانوا يحملون أسلحة خفيفة ، هى الأقواس ، كما كانوا يتميزون بخفة الحركة على الخيول ، ومن ناحية أخرى ، فقد كانوا يستطيعون الإسراع بالعودة عبر جسرهم الذى ذكرناه . كما كانوا يحبون أن يطردونا بسهامهم من حقلهم . وأذكركم بأن جسرهم كان يبعد ميلا عن جسرنا ، وعلى السهل الممتد بين الجسرين كانت تدور اشتباكات يومية . ولما كان ريموند وأدهيمار يخيمان بالقرب من ضفاف النهر ، فإنهما كانا يتحملان ثقل الإغارات ، وكلفت هذه الإغارات التى تعتمد على الضرب الخاطف والفرار ، هذين القائدين كل خيولهما لأن الأتراك لم يكونوا يتقنون استخدام الرماح والسيوف ، فكانوا يقاتلون من على بعد . فكانوا يشكلون خطورة فى المطاردة أو الفرار .

وفي الشهر الثالث من الحصار عندما ذهب كونت نورماندي ، ومرض جود فري ، وارتفعت الاسعار إرتفاعا هائلا ، تم اختيار بوهيمند وكونت الفلاندر لقيادة حملة البحث عن المؤن في هيسبانيا Hispania بينما تولى ريموند وأدهيمار حماية المعسكر [8] . وعندما علم المحاصرون (داخل أنطاكية) بأخبار هذه التطورات فإنهم استأنفوا هجماتهم المعتادة . وتحرك ريموند بشدة لمواجهتهم بطريقته المعتادة ، ووضع مشاته في تشكيل قتالي ، ثم راح يطارد الأتراك في صحبة عدة فرسان . وفي الاشتباك الذي تلا ذلك ، أسر وقتل اثنين من المهاجمين على جانب التل ، وطرد الآخرين عبر جسرهم إلى أنطاكية . كان المنظر أكثر مما يتحمل المشاة الذين اضطربت صفوفهم ، وألقوا راياتهم ، وجروا في فوضى شاملة إلى الجسر . وفي أعقابهم الواثق راحوا يلقون بالصخور والقذائف الأخرى على المدافعين عن الجسر ، وتجمع الأتراك من جديد وشنوا هجوماً مضاداً عن طريق الجسر ومخاضة سفلية .

في ذلك الوقت اندفع فرساننا بخيولهم نحو جسر لمطاردة حصان شارد جعله يجري بلا فارس . وظن المشاة خطأ أن ذلك هروب يقوم به الفرسان ، وأسرعوا هاربين من الهجوم التركي . وفي الاشتباك ذبح الأتراك الهاربين بلا رحمة ووجد الفرسان الفرنجة - الذين توقفوا عن القتال - أنفسهم وقد تلقفتهم الحشود الهاربة التي راحت تخطف أسلحتهم وتشد خيولهم وذيولها وتجذبهم من فوق صهوات جيادهم . وتبعهم فرسان آخرون في اندفاعهم بدافع من الشعور بالرحمة والحرص على سلامة قومهم . وشرع الأتراك بمطاردة الأحياء بلا هوادة ، وسرقوا ممتلكات الموتى . ولم يكلف رجالنا عار إلقاء أسلحتهم والفرار دون أن يشعروا بأي خجل ، بل أنهم قفزوا في النهر ليرتطموا بالصخور أو السهام أو ليغرقوا ، ولم يعبر النهر ويصل إلى بر الأمان إلا السابحون والأقوياء .

وفي القتال الذي دار من جسر الأتراك إلى جسرنا ، قتل الأتراك نحو خمسة عشر فارساً وعشرين من المشاة . ولقي حامل راية أسقف لي بويه وأحد النبلاء ، يدعى برنارد آرف بيزيه ، مصرعهم هناك ، واستولى الأتراك على

وأدهيمار [9] . وإننا نأمل ألا تكون روايتنا لعدم حياء جيشنا ، سيأ في لوم عباد الله وغضبهم علينا ، لأن الله قد جعل الصليبيين الزناة الناهبين يتحدون إليه من ناحية ، ولأنه من ناحية أخرى جعل جيشنا يطهر نفسا في بلاد المسلمين .

وانتشر الكلام من معسكرنا عن حالة الازدهار التي كانت عليها قوات ريموند وانتصاره العظيم ، حتى وصل بوهيمند وارتفعت نتيجة لذلك الروح المعنوية بين رجاله . وأثناء هجوم على إحدى القرى سمع بوهيمند بعض مزارعيه يفرون ويصرخون طالبين النجدة ، فأرسل قوة تستطلع الأمر ، ورأت هذه القوة جمعاً من الأتراك والعرب في مطاردة محمومة . وكان من بين المجموعة المساعدة كونت الفلاندر وبعض البروفنساليين وهو اسم يطلق على كل من هم من برجندي وأوفرني وجاسكوني وجوثيا . وألفت نظركم إلى أن كل ماعدا ذلك من قوات في جيشنا يطلق عليهم إسم الفرنجة ، ولكن العدو لايميز ويستخدم كلمة فرنجة للإشارة إلى الجميع . لكن يجب أن أعود إلى قصتنا [10] . فقد اندفع كونت الفلاندر في تهور على حصانه في مواجهة الأتراك حتى لايناله عار الإنسحاب ليهلع من اقتراب العدو . ولما كان الأتراك لم يألفوا القتال بالسيف ، فقد ركنوا إلى الفرار ، ومع ذلك فإن كونت الفلاندر لم يغمد سيفه حتى قتل مائة من أعدائه .

وعندما عاد كونت الفلاندر منتصراً إلى بوهيمند ، اكتشف إثني عشر ألفاً من الأتراك يقتربون من حرس مؤخرته ورأى إلى يساره عدداً كبيراً من المشاة يقفون على تل غير بعيد . وبعد مشاورات مع بقية جيشه ، عاد بتعزيزات وبادر بالهجوم ، بينما تبعه بوهيمند مع الصليبيين الآخرين عن بعد ، ليحموا بذلك خطوط مؤخرته . وكان للأتراك أسلوب معتاد في القتال حتى عندما يفوقهم خصومهم عدداً ، هو أن يحاولوا الإحاطة بأعدائهم . وهذا ماتعلوه في تلك المواجهة ولكن بعد نظر بوهيمند جعله يتوقع حيلتهم .

وقد فر الأتراك والعرب الذين هاجموا كونت الفلاندر عندما أدركوا أن القتال الذي سيقع سيكون وجهاً لوجه بالسيوف وليس عن بعد بالسهام . ثم إن

كونت الفلاندر طارد الأعداء لمسافة ميلين ، وكان الأحياء يرون القتلى منطرحين على طول الطريق كحزم القمح في الحقل زمن الحصاد . وأثناء ذلك القتال وجه بوهيموند ضرباته إلى القوات التي كانت تكمن له في الكمين وقضى عليها ، إلا أنه لم يستطع أن يمنع الطغمة سالفة الذكر من مشاة الأعداء ، من التسلل من خلال أماكن لايمكن عبورها على ظهور الخيل .

ولولا التواضع لعُدت هذه المعركة أعظم من الحرب الثانية لأن ماكابيوس قضى بثلاثة آلاف على ثمانية وأربعين ألفا من أعدائه . بينما دحر فرساننا الأربعمائة ستين ألفا من الوثنيين ، ولكننا لانقلل من قيمة شجاعة ماكابيوس . ولا نزهو بجسالة فرساننا ، ومع ذلك ، فاننا نقول أن الله ، الذي كان عظيما مع ماكابيوس ، كان أكثر عظمة مع جيشنا [١٤١] .

ولقد كان ردنا على هروب الهاربين تائهاً في الشجاعة حتى أن الصليبيين أخفقوا في تتبع الهاربين . وبالتالي فإن جيشنا المنتصر عاد إلى المعسكر بدون عوْد . وكان من شأن المجاعة التي أعقبت ذلك أن ارتفعت الأسعار ، حتى أن اثنين من الصولدي لم تكد تكون لهما أي قوة شرائية تعادل نصيب الرجل الواحد من الخبز في اليوم ، كما ارتفعت أسعار الأشياء الأخرى بنفس الدرجة . فما كان من الفقراء ، والأغنياء أيضا الذين كانوا يودون إبقاء ممتلكاتهم ، إلا أن تركوا المعسكر . وأما من بقي لقوة روحية به ، فقد كان عليه أن يتحمل رؤية خيوله وهي تتلف من الجوع ، كان التبن شحيحاً ، ولم تكن سبعة أو ثمانية سولديات تكفي لشراء كمية من الحبوب لإطعام حصان واحد لليلة واحـــدة

ومما زاد من كربنا ، أن بوهيموند - وقد اشتهر بمنجزاته الباهرة في بلاد المسلمين - هدد بالرحيل ، قائلا أن الشرف هو الذي جعله يتخذ هذا القرار ، لأنه رأى رجاله وخيوله تموت من الجوع ، فضلا عن ذلك . فقد أوضح أنه رجل ذو إمكانات محدودة لاتكفي ثروته الشخصية لحصار مطول . وقد علمنا فيما بعد ، أنه قد أعلن تلك البيانات لأن طموحه كان يدفعه إلى اشتهاء أنطاكية .

في ذلك الوقت وقعت هزة أرضية في اليوم الأول من يناير كما رأينا علامة معجزة في السماء [١٤٢] . ففي فترة المناوبة الأولى من الليل ، كانت السماء حمراء في الشمال بحيث بدا كما لو أن الشمس أشرقت في يوم جديد . ورغم أن الله كان مؤدبا من الله لجيشنا ، حتى نتحول إلى النور الذي أشرق في الظلام . فإن عقول البعض كانت عمياء ، وكانوا عنيدين ، حتى أنهم لم يكفوا عن حياة الشغب والنهب . ثم أن أدهيمار حث الناس على أن يصوموا ثلاثة أيام . وأن يصلوا ، ويتصدقوا ، ويقيموا موكبا . كما أمر الكهنة بإقامة القداسات ، ورجال الدين بترديد المزامير وهكذا ، فإن الرب المبارك ، وقد أظهر عطفه ورحمته ، أخر عقاب أبنائه حتى لايزداد تفاخر الوثنيين .

انتقل الآن إلى شخص كدت أنساه ، لأنه ألقى بي في طي النسيان - وهذا الرجل - هو تاتيكيوس ، الذي صحب جيشنا بدلا من ألكسيوس ، وكان له أنف مشوه ، ويفتقر إلى أي صفات تعوضه عن ذلك [١٤٣] . كان تاتيكيوس كل يوم يخطر الأمراء بهمس ، أن يتراجعوا إلى القلاع القريبة ويطردوا المحاصرين بهجمات وكمائن متعددة . ولكن عندما علم الكونت بكل هذه المسائل ، وكان مريضا من جراء فرضه الاضطراري بالقرب من الجسر ، جمع أمراءه وأسقف لي بويه . وفي نهاية الاجتماع وزع ريموند خمسمائة مارك على المجموعة ، على شرط أنه إذا فقد أي واحد من الفرسان حصانه يعطي واحد آخر بدلا منه من الخمسمائة مارك ومن أرصدة تقوى صنعت للأخوة (brother hood) [١٤٤] .

كانت هذه المعاونة الأخوية هذه مفيدة جدا في ذلك الوقت . لأن فقراء كثير في الجيش الذين كانوا يرغبون في الانتقال إلى الجانب الآخر من النهر بحثا عن التبن كانوا يرهبون هجوم الأتراك . وكان القليل فقط هم الذين يرغبون في قتالهم ، حيث أن خيول البروفنساليين ، والتي لم تكد تبلغ المائة حصان ، كانت هزيلة ضعيفة . وأيادر فاقرا أن تغير الموقف كان سائدا في معسكر بوهيموند وقادة الآخرين [١٤٥] .

وبعد التصرف الأخوي ، هاجم فرساننا العدو بجرأة لأن من كان معهم خيول لا قيمة لها ومنهكة القوى . كانوا يعرفون تماما أنه يمكنهم أن يستبدلوا خيولهم

القضية خيراً أفضل ، أو ، حقاً يكتسى إضافة شىء آخر . فقد عرض كل الأمراء ، ما عدا الكونت ، أنطاكية على بوهيمند فى حالة الاستيلاء عليها ، وهكذا بناء على هذا الإتفاق ، أقسم بوهيمند والأمراء الآخرون على ألا يرفعوا الحصار عن أنطاكية لمدة سبع سنوات إلا إذا وقعت قبل ذلك[19].

بينما كانت هذه الأمور تجرى فى المعسكر ، انتشرت قصة غير مؤكدة بأن جيش الامبراطور كان يقترب ، وهو جيش قيل أنه كان يتكون من عدة أجناس ، من السلاف ، والبجناك ، والكومان والتركوبولية [*] وقد أطلق هذا الاسم على التركوبولية لأنهم إما كانوا قد تربوا مع الأتراك أو كانوا ذرية لأم مسيحية وأب تركى ، وكانوا يحشرون الارتباط بنا بسوء معاملتهم لنا طوال الرحلة . والواقع أن تاتيكيوس ، ذلك المشوه ، الذى كان يشفق على هلاك من يحارب معه لم يختلق هذه الكذبة فحسب ، بل أحتال إلى تثويه الحث بالجيش ، وخيانة أصدقائه ، بأن أسرع هاربا بعد أن تنازل لبوهيمند عن مدينتين أو ثلاث ، هى طرسوس والمصيصة وأدنه . وهكذا ترك تاتيكيوس المعسكر بحجة الانضمام إلى جيش تكسيوس ، وتخلى عن أتباعه ، ومضى تصحبه لعنة الله ، وجلب بهذا العمل لنفسه ، العار الأبدى على نفسه ورجاله[18].

• • • • •

هوامش الفصل الرابع

(1) أنطاكية مدينة قديمة تقع على الضفة الجنوبية لنهر الأورنت فى سهل يقع بين النهر وجبل حبيب النجار silpius . وترجع تحصيناتها إلى عهد جستنيان ، وقام كل من البيزنطيين والسلاجقة بتجديد هذه التحصينات . واستولى السلاجقة على المدينة فى عام 1085م ، وحصنوا الأسوار بشدة ، وقد وصل الصليبيون إلى أنطاكية فى الفترة من 20 إلى 22 أكتوبر 1097م . انظر : Hagenmeyer, Chr., 203.

- كان يطلق على أنطاكية فى العصور القديمة إسم ريبلاتا Rabiata . ثم جاء أنطيجونس أحد خلفاء الاسكندر المقدونى وأقام حولها سورا وجعلها عاصمة له وأطلق عليها إسم أنطاكية نسبة إليه وأكمل بناءها سلوقس الذى بنى اللاذقية وحلب وأفامية . ودخلها المسلمون لأول مرة عندما فتحها أبو عبيدة بن الجراح فى سنة 638م / 31 هـ أثناء فتح الشام . وبقيت أنطاكية فى أيدى المسلمين حتى استولى عليها الامبراطور نقفور فوقاس فى عام 969 م / 358 هـ . ثم عادت إلى أيدى المسلمين عندما فتحها سليمان بن قتلمش السلجوقى فى عام 1085م / 477 هـ . وبقيت فى أيدى السلاجقة حتى قدوم الفرنج إلى الشام ، انظر : حسين عطية ، إمارة أنطاكية الصليبية ص 82 - 83 (الترجمة العربية) .

(2) يختلق المؤرخ هنا تحدث من العهد الجديد ؛ وعلى سبيل المثال « لقد أنقذنا الرب من مهالك عديدة » . انظر : New Testament. II Corinthians, I 10.

(3) يجمع وصف أنطاكية هنا أسلوب المؤرخين . انظر وصف وليم الصورى لأنطاكية : William of Tyre. History of Deeds. vol. I, pp. 200 - 204

(4) تقع أنطاكية على شكل دائرة قطرها متصل بالجبل ، والأسوار تصعد مع الجبل ، فتتم الدائرة ويبلغ محيطها اثنى عشر ميلاً ، ويكون اجتيازها من طريق عدة أبواب . وتتم حراسة هذه الأسوار عن طريق ثلثمائة وستين برجا ، وعدد شرفاتها حوالى أربعة وعشرون ألف شرفة . وفى أقصى الجنوب من المدينة توجد القلعة فى أعلى جبل حبيب النجار ، حيث ترتفع عن المدينة بحوالى ألف قدم ، وهى قلعة حصينة لايمكن اختراقها . ومن الملاحظ أن فتح أنطاكية على أيدى السلاجقة ثم على أيدى الصليبيين لم يتم إلا عن طريق الخيانة من داخل المدينة . حتى أن صلاح الدين الأيوبى فى أوج قوته وجد أن تركها أفضل ، ولم تسقط المدينة بالسيف إلا فى عهد الظاهر بيبرس البندقدارى فى الوقت =

= التي لم يكن بداخلها من يدافع عنها . كل ذلك بسبب التحصينات الهائلة التي أحاطت بالمدينة . وللمزيد عن طبوغرافية أنطاكية وأهميتها ، انظر : سعيد عطية : إمارة أنطاكية الصليبية ، ص ٨٤ - ٨٤ .

(الترجمة العربية) .

(٥) الأرقام التي يوردها ريموند داجيل غير حقيقية . انظر

Runciman, op. cit., vol. 1, pp. 336-341

ولا يحتوي تحديد الفرسان من السرجة الأولى أو الفرسان العاديين له إلا القليل . انظر

R.C. Smail, Crusading Warfare, passim

(٦) كان يحكم حلب في زمن الحملة الصليبية الأولى القائد السلجوقي الماكر رضوان . الذي تلاعب بجمهور الشيعة الذين والعصبة الفاطمية .

• وكان يحكم في دمشق أخاه الملك شقيق رضوان ، وهما ولدا تاج الدولة تتش بن السلطان السلجوقي ملكشاه . وكان الأخوان في صراع دائم ، يحضر من أب المؤلف في بلاد الشام عند قدوم الصليبيين إلى المنطقة ، ويحاجهم في احتياجهم دون مقاومة مكافئة جادة . وفي صراعهما بحث كل من الأخرين عن حلفاء . وكان ياغي سيان حاكم أنطاكية حليفا لدقاق . وعندما تخلص رضوان من الأتابك جناح الدولة صاحب حمص وهدد ياغي سيان انضم الأخير إلى رضوان وأنقذه من أتابكه . وساعده في الحصول على أملاك أخيه . وعند قدوم الصليبيين عاد رضوان إلى حلب [illegible] ليراجع وهذه الحملة الصليبية الأولى . وكان رضوان قد تحالف مع الفاطميين ضد أخيه دقاق ، وأقام الخطبة للخليفة الفاطمي المستعلي في حلب في ١٠٩٦م / ٤٩٠ هـ وحتى ٩٨.١٠٩م / ٤٩٢ هـ . انظر : ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨م ، ص ١٣٣ ، ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ، ج ٢ ، تحقيق سامي الدهان ، دمشق ، ١٩٥١م ، ج ٢ ، ص ١٢٨ . راجع أيضا : سعيد عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ، الإسكندرية ، ١٩٨٩م ، ص ١١٢ .

(الترجمة العربية) .

(٧) ميناء سمعان Simeon ، مدينة ساحلية تقع عند مصب نهر العاصي . وكان الجنوية الذين وصلوا إليه حلفاء لكونت تولوز . وقدموا له يد المساعدة بعد ذلك أثناء حصار الصليبيين لبيت المقدس .

- في المقابلة قدم الجنوية هذا المؤن وآلات الحصار للفرنج دون تمييز بين قادتهم . إلا أنهم سيتخلون عن دعاوى بوهيموند بعد أن تسقط أنطاكية في أيدي الفرنج وبعد أن عقد معهم بوهيموند اتفاقية ١٤ يوليو ١٠٩٨م ، التي منحتهم بمقتضاها امتيازات كثيرة ، ثم تراجعوا بمساعدتهم كونت تولوز في حصار بيت المقدس . فالجنوية ينظرون إلى مصالحهم أولا قبل النظر إلى شخصية الحليف - ويطلق المسلمون اسم السويدية على ميناء سان سيمون .

(الترجمة العربية) .

(٨) يستعمل ريموند هنا اسم Hispania للتعبير عن بلاد المشرق .

- خرج كل من بوهيموند وكونت الفلاندرز على رأس قوة قوامها عشرون ألف مقاتل في ٢٨ ديسمبر ١٠٩٧م / ١٣ محرم ٤٩١ هـ متجهين إلى حماة . ويحدد ابن القلانسي عدد الفرنج بثلاثين ألف مقاتل وأيده في ذلك ابن العديم . ويبدو أن العدد الأول - الذي حدده مؤلف الجستا - هو الأقرب إلى الصحة . انظر : ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٣ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ١٣١ . راجع أيضا :

Gesta Francorum, p. 30.

راجع أيضا : Chalandon, Histoire de la Première Croisade, Paris, p. 187.

ورأى استعمال الفرنج لكلمة Hispania ليعبر بها عن بلاد المسلمين صرح بأن ناسخ المخطوط من سكان جنوب فرنسا، وأراد هذا الناسخ أن يرى الفرسان يحرزون انتصارات قتال ... لسانها . كما يرى المترجم في عدة مواضع يستخدم كلمة Chorozaim للتعبير عن بلاد المسلمين أيضا . وهي إحدى المدن التي لعنها المسيح لإقامة المسيح المعجزات فيها . وقد بحث الناشران عن اسم هذه المدينة في الكتاب المقدس (Liber de ... Antecessoribus) . ومن الواضح أن هذا الاسم يشير إلى إقليم خراسان بشمال فارس وهو الإقليم الذي طلب منه ملك حلب تعزيزاته السلجوقية . انظر :

Richard, Raymond d'Aguilers, p. 207

(الترجمة العربية) .

(٩) كان برنارد أول مبعوث Bernard of Bezers ضمن رجال ريموند داجيل . ويظهر اسمه كشاهد على منحة قدمها كونت تولوز لكنيسة القديس فيكتور بمرسيليا في عام ١٠٩٤م . وكان حامل لواء أدهيمار يدعى هرقل Heraclius . انظر :

L'appette, HGL 3, p. 752

(١٠) يؤدي استخدام ريموند أجيل لكلمة البروفنساليين بشكل إجمالي إلى ارتباك المؤرخين وعلى أية حال فقد كتب لرلشر أوف شارتر « ريموند كونت . البروفنساليين » مع القوط وأهل جاسكونيا . انظر : Mc Ginty, op. cit., p. 22
ويجب أن يدرك القارئ أن ريموند أجيل يطلق اسم البروفنسال على كل جنوب فرنسا أكثر مما يطلقه على إقليم بروفانس .

(١١) يظهر ريموند أجيل احترامه لسيرة مكابيوس لكنه يتمنى لو أن جنوده المسيحيين يتفوقون عليه . وهذا مثال للأرقام التي لا يمكن الوثوق بها والتي يورده المؤرخ المذكور :
Bernardum Romanum, in [?] Nocturna, III Libro Officiorum Sancti Ambrosii Episcopi, Lib. I, 40
ومن المحتمل أن المؤلف يذكر عبارات القديس أمبروز من ظهر قلبه
- والمكابيون هم حكام إقليم يهودا من سنة ١٦٧ ق . م إلى سنة ٣٧ ق . م والاسم في أصله كان يطلق بصفة خاصة على يهوذا إبن ماتياس . ثم أطلق فيما بعد على أسرته وأتباعه ، ويطلق الآن على قوية ماتياس عليه . وكان لماتياس خمسة أبناء هم جنا وسمعان ويهوذا والعازر ويوناثان . وهؤلاء قادوا الكفاح ضد قوات أنطيوخوس Epiphanes الذي حاول صبغ اليهود بالصبغة الهلينية . وقاد هؤلاء حركة الاستقلال السياسي في عهد يهوذا الذي مات في عام ١٦٠ ق . م واستمر أسلافه في الكفاح ضد الحكم اليوناني حتى عام ٣٧ ق . م حين تمنى هيرود ، الذي اعترف به الرومان ملكا على يهودا ، كل خيانة ضد الأسرة . انظر
Moses A. Gutteson, Maccabees, in CE, vol. 13, New York, 1966, pp. 151 - 157
أما عن المعركة بين المسلمين والصليبيين فهي نتيجة لأول رد فعل إسلامي للوجود الصليبي في بلاد الشام ، وقام به دقاق ملك دمشق السلجوقي بعد ثلاثة أشهر من قدوم الفرنج إلى شمال الشام ، ولا يوضح انشغال حكام المشرق الأدنى الإسلامي بمصالحهم الشخصية دون المصالح الإسلامي العام ، مما جعل كل ردود الفعل الإسلامية إما متأخرة ، وإما ضعيفة ، وإما تتسم بالجهل بحقيقة الحركة الصليبية ، وفي هذا الموضع يحاول ريموند أجيل أن يرجع انتصار الفرنج على دقاق وأتابكه طغتكين أمير حمص وقواتهم ، إلى كونت الفلاندرز ، في حين أن المسلمين كانوا قد انتصروا على -

- جد وروبرت كونت فلاندرز يرجح له . وطبيعي أن يخص مؤرخنا الأمير البروفنسالي - بوهيمند - حقه في هذا الإنجاز للغارة القائمة بين الأخير وكونت تولوز الذي يدين له المؤرخ بالولاء . وقد وقعت هذه المعركة عند قرية البارة في جنوب شرق أنطاكية في ٣١ ديسمبر ١٠٩٧م / ١٦ محرم ٤٩٢ هـ . انظر : ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٤ . ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٣١ . راجع أيضا
Albert d'Aix, p. 376.
(الترجمة العربية)

(١٢) استعار المؤرخ في وصفه للزلزال من كتاب صلوات القديس أمبروز . Et ecce, "terraemotus factus est magnus" وهذا هو هزة أرضية عظيمة تحدث ، وكتبها ريموند أجيل "Interea terraemotus factus est magnus" وفي تلك الأثناء ، حدثت هزة أرضية عظيمة ، ويضع هاجنماير هذه الهزة الأرضية في ٣٠ ديسمبر ١٠٩٧م . انظر Hagenmeyer, Chr. 221

(١٣) تاتيكيوس Taticius هو القائد البيزنطي الذي اصطحب الصليبيون إلى أنطاكية ، ويحمل كره المؤرخ له أمرا غريبا إلا ما وضعنا في اعتبارنا حقيقة أن كونت تولوز كان متعاطفا مع القضية البيزنطية .

(١٤) في هذه الفقرة نرى تطبيقا عمليا لفكرة الأخوة ، وهو دليل واضح على أن الصليبيين قد عقدوا المجالس واتخذوا القرارات التي تمليها الضرورة . ومن الواضح أن كونت تولوز قد صاحبه قريب له عند فقدهم . انظر
Edmund Bishop, Liturgica Historica, Oxford, 1918
وعن صلة مماثلة لفكرة الأخوة انظر
Thomas N. Bisson, The Military Origins of Medieval Representation, in AHR, 17, 4 (1966), pp. 1199 - 1218
- راجع أيضا حاشية رقم (١١) من الفصل الأول
(الترجمة العربية) .

(١٥) يذكر أنسلم أوف ريبمونت في رسالته إلى مانسيس رئيس أساقفة ريمز أنه لم يعد لدى جيش الفرنج جميعه حاليا سوى ٧٠٠ حصان . انظر حسين عطية : إمارة أنطاكية ، ملحق رقم ٢ ، ص ٢٤٩
(الترجمة العربية)

(١٦) هذه الرواية تدفعنا إلى الاعتقاد بأن ريموندابيل قد سبب الاضطراب في كتابه ... فمؤلف الجستا يورد رواية مشابهة ولكنه يضع تاريخ دخول الصليبيين أنطاكية ... في الليلة السابقة على سقوط المدينة ... وحسب ما جاء في الجستا ... فإن تسليم ... لبوهيمند كان مرتبطا بفشل ألكسيوس كومنين في إمداد الصليبيين بقوات ... انظر :

[illegible] op. cit., pp. 60 - 61

(١٧) التركبولية هم فرسان استخدمهم البيزنطيون في جيوشهم .
- والتركبولي كلمة مركبة معناها أبناء أو سلالة الترك . وهو مصطلح كان يطلقه البيزنطيون على فرقة من فرق جيشهم ... في أغلبها فرقة الفرسان ... ويتحدر أفرادها من أب تركي (أو عربي) وأم يونانية ... ويذهب الدكتور الشيال إلى ... تكوين هذه الفرقة قد تم بعد اتصال البيزنطيين بالسلاجقة بعد وقعة ملاذكرد ... فرسان هذه الفرقة يتميزون بطريقة قتال تعتمد على الكر والفر والحرب السريعة ... أشار إليهم ألبرت دكس ووليم الصوري ... وابن الأثير وأسامة بن منقذ والعماد الأصفهاني . ولقد كون المسلمون فرقا في جيوشهم تحمل نفس الاسم ... انظر ابن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، ٣ جـ ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، جـ ٣ ، ص ١٥٩ ، حاشية رقم (١) التي تنتهي في ص ١٦٠ . وأول ذكر للتركبولية في حروب الصليبيين يأتي في رواية ابن واصل عن شروط صلاح الدين في عقد الصلح مع الفرنج في عام ٥٨٨هـ/١١٩٢م ... صلاح الدين ... الأمر في فلسطين ... انظر ... المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٩٥

(المترجمة العربية)

(١٨) جاءت المراجع التي أدت إلى هروب تاتيكيوس ... عن ... فهو يصف ... هذه لقائد البيزنطي ... ومؤلف الجستا أكد على الخبر الذي ... تاتيكيوس ... غير ألبرت دكس أن تاتيكيوس قد خطط للهرب ... في ... ريموندابيل لأسباب هروب تاتيكيوس ... إلى ... وليس هناك ... على ... تخلى عن ... والمصيصة وطرسوس لبوهيمند ... ومن الواضح أن ريموندابيل لم تكن لديه المعلومات الكافية عن هذا الحدث ... واعتمد على الإشاعات أو على مصادر معلومات أخرى ... وأذنة والمصيصة مدينتان في قيليقية وقد استولى عليهما تنكرد من السلاجقة ... ومن المحتمل أن (Turn) هكذا في الترجمة الإنجليزية (تعني

طرسوس . انظر : Krey, The First Crusade, p. 252

وعلى أية حال ، فإن استيجاء ريموندابيل يوحي بأنه يقصد بها تل باشر " Turbessel "

وقد تخلى تاتيكيوس عن الحصار الصليبي لأنطاكية في نهاية فبراير ٩٨ ... م ... انظر ،

Hagenmeyer, Chr. 230

... في الحقيقة لم يكن رحيل تاتيكيوس من المعسكر الصليبي خارج أسوار أنطاكية هروبا ، يرجع إلى الجبن الذي وصفه به المؤرخون اللاتين أو خيانة منه للفرنج ، وإنما اضطر الرجل إلى الرحيل ... أنه غير مرغوب فيه بين الفرنج ... ولا ... ذلك إلا بمراجعة ... أو كومنين ... فقد ... أن تاتيكيوس رحل عن الفرنج ... الذي ... سرا بأن القادة الصليبيين قد علموا بأن الامبراطور البيزنطي قد ... تستحوذ على ... بالصليبيين ، ولذلك فهم ... الفرنج ... عن تاتيكيوس ... إلى الرحيل . وإذا ... رواية آنا كومنين أكثر ... يذكر مؤلف الجستا ... ودون أن ... ثم كيف يشرع تاتيكيوس ... العودة ... بعد أن ... في الوقت الذي ترك فيه جميع ... كذلك على ... ثم ... [illegible] ... الامبراطور البيزنطي مع الفرنج ... من قبل ... [illegible] ... القسطنطينية ... [illegible] ... الامبراطور البيزنطي ... وإذا ... فقد ... من بين طلائعهم ... أن ... تاتيكيوس ... للامبراطور البيزنطي ... إلى أنطاكية ... الفرنج ، ولم يتجه عن ... الذي هرب من المعسكر الصليبي ... أن السلاجقة ... الفرنج ... السلاجقة من ... وهو ... في بلاد الشام . انظر

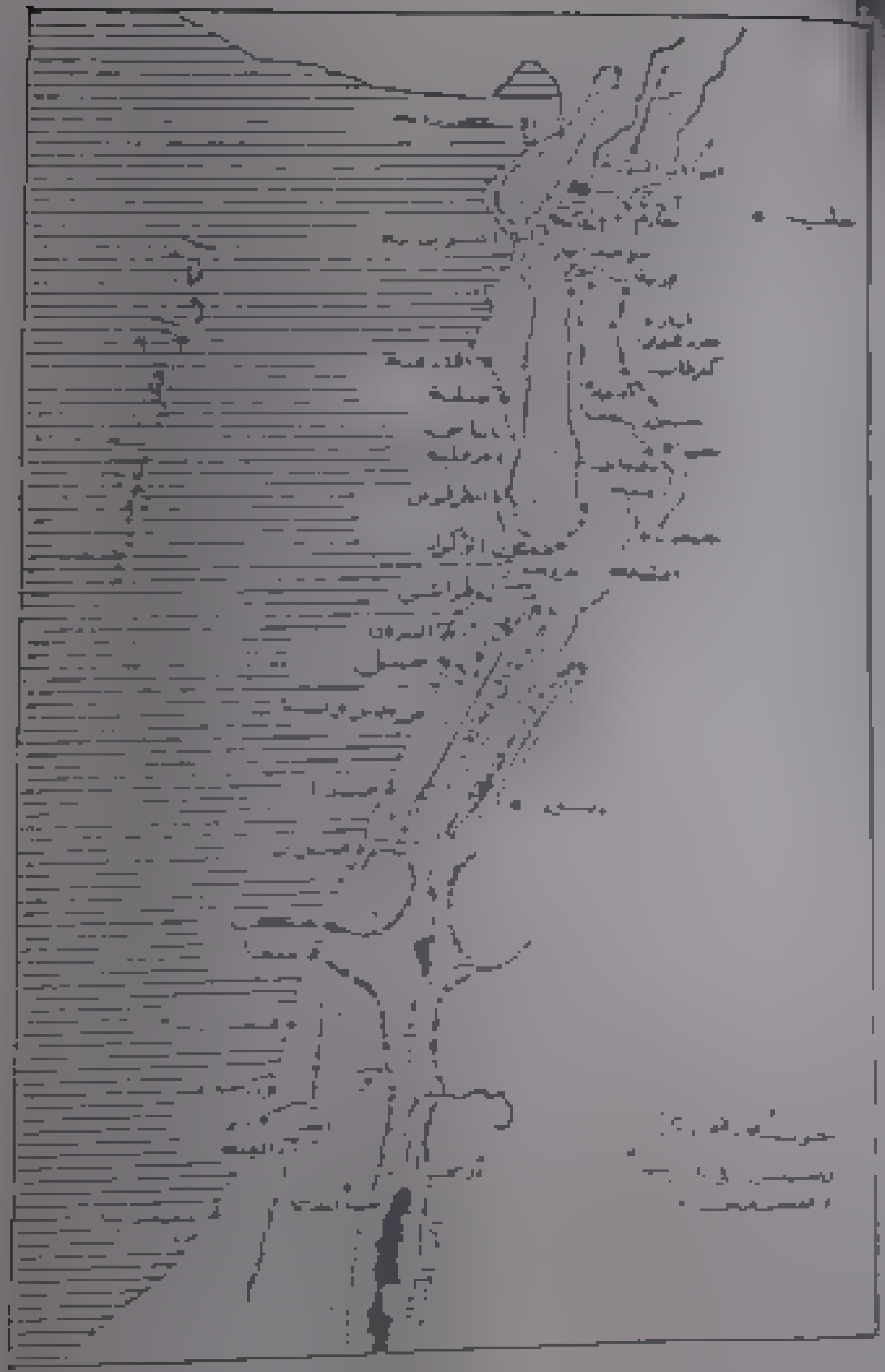

Anna Comnena, The Alexiad, p. 257; Gesta Francorum, pp. 34 - 35, 44 - 45; Raymond d'Aguilers, Historia Francorum, in RHC, vol. III, pp. 245 - 246; Orderic Vitalis, Historia Ecclesiastica, vol. 5, p. 77. C.F. also, Chalandon, Histoire de la Premiere Croisade, pp. 192 - 193; Runciman, A History of the Crusades, vol. 1, p. 224; J. France, The departure of Tatikios from The Crusading Army, in BIHR, vol. 44, no. 110, 1971.

راجع أحمد عوض محمد : [illegible] ، ص ٢٣٥ - ٢٤١ ؛ حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمين ، الإسكندرية ، ١٩٨٩ ، ص ١٩٦

(الترجمة العربية) .

الفصل الخامس

المرحلة المتأخرة من حصار أنطاكية

تشديد الحصار

جاءت الآن أخبار بأن قائد الخليفة على رأس جيش كبير من كربوغا Corozan كان يحث المسير إلى أنطاكية [1] . وبعد انعقاد مجلس الحرب في خيمة أدهيمار ، صدرت أوامر لرجال المشاة بالدفاع عن المعسكر وللفرسان بالخروج لملاقاة القوة الجديدة . وكان السبب في صدور هذا القرار أن الجبناء وغير اللائقين في صفوف المشاة ، ربما أظهروا جبناً أكثر مما يظهرون من شجاعة إذا رأوا قوة كبيرة من الأتراك . ورحلت الجماعة التي ستقوم بالحملة تحت جنح الظلام ، واختبأت في بعض التلال على بعد فرسخين من المعسكر ، بحيث لم يستطع المدافعون عن أنطاكية أن يعلموا برحيلهم . والآن أود أن يستمع من حاولوا أن يحطوا من شأن حديث في الماضي ، إلى هذا . وليستمعوا فعلاً ، حتى إذا فهموا الفعل الذي يصنعه الرب على رحمته نيابة عنا ، عساهم أن يسرعوا بإرضاء الرب بصدوع النفس .

فقد زاد الله من حجم الوحدات الست من الفرسان بحيث بدا أن كل وحدة زادت من أقل من سبعمائة رجل إلى أكثر من ألفين . وبكل تأكيد ، فإنه لما يشق علي ، أن أتحدث عن شجاعة الجيش ، الذي كان فرسانه يغنون أغاني الحرب بكل ابتهاج حتى بدا وكأنهم ينظرون إلى المعركة القادمة كما لو كانت من الألعاب الرياضية . ويجدر بنا هنا أن نلاحظ أن موقع القتال القادم كان بالقرب من مكان يتدفق النهر عنده على بعد ميل من المستنقع ، وبذلك حالوا دون استخدام الأتراك لحركات الإلتفاف المعتادة والتي كانت تعتمد على نشر قواتهم . وفضلاً عن ذلك فإن الرب الذي قدم لنا الميزات السابقة الذكر ، قد أمدنا الآن بستة أودية متلاحقة

تستطيع قواتنا أن تتحرك فيها إلى المعركة . هكذا ، ففي خلال ساعة كنا قد رتبنا واحتللنا الميدان . وما إن سطعت الشمس على أسلحتنا ودروعنا حتى بدأت المعركة ورجالنا يندفعون إلى الأمام ، بينما كان الأتراك يتحركون جيئة وذهاباً ويطلقون سهامهم ويتراجعون ببطء [2] .

ومع ذلك ، فقد تكبدت قواتنا خسائر فادحة ، حتى دفعت بالخط الأول من الأتراك إلى تشكيلات المؤخرة . وقد أخبرنا الذين تركوا مواقعهم فيما بعد ، أنه كان هناك على الأقل ثمانية وعشرين ألفاً من الفرسان الأتراك في هذا اللقاء . وعندما اختلطت خطوط الأعداء ، في النهاية حلّت الفرنجة للرب ، واندفعوا إلى الأمام . وفي الحال فإن الرب الحاضر أبداً ، القوي القدير في المعارك ، حمى لنا ظهر وأذل الوثنيين [3] . بعد ذلك طاردهم الفرنجة لعشرة أميال تقريباً من مكان المعركة إلى قلعتهم شديدة التحصين . ولدى رؤية هذا النبل الخارق قام من كانوا بالقلعة بإحراقها ولاذوا بالفرار [4] . وأحدثت هذه النتيجة ابتهاجاً وغبطة في المعسكر ، لأننا اعتبرنا أن إحراق القلعة نصر آخر .

وفي نفس الوقت نشب القتال بلا ضابط في كل مكان باتجاه أنطاكية أعداءنا كانوا يخططون للقيام بهجوم ذي شعبتين - إحداهما من المحاصَرين (بداخل أنطاكية) ، والأخرى من القوات المساعدة التي لم تكن متوقعة . يحابي الرب طرفاً على الآخر ، وحارب مع المشاة بينما كان يتصدى للفرسان بحيث لم يكن الانتصار الذي أحرزه المشاة على المحاصَرين أقل قدراً من صد الفرسان للتعزيزات . وبعد أن كسبنا المعركة وفزنا بالغنائم ، حملنا رءوس القتلى إلى المعسكر ، وعلقناها على أعمدة كتذكرة باقية خالدة على هزيمة الأتراك . وما يحط المحاصَرين من معنويات . والآن حين نتأمل ذاتنا نستنتج أن ذلك كان أمر الرب ، لأن الأتراك كانوا قد ألحقوا بنا العار من قبل ، حينما غرسوا سن راية من [illegible] المباركة ، التي استولوا عليها ، في الأرض . وهكذا قدّر الله أن رؤية رءوس الأصدقاء ، التي لا حياة فيها والمحمولة على عصيّ مدببة ، ستمنع المدافعين عن أنطاكية من معارضتنا بعد ذلك [5] .

وكان سفراء ملك مصر موجودين أثناء هذه الأحداث ، وعندما رأوا المعجزات التي يصنعها الرب من خلال عبيده ، أثنوا على يسوع ، ابن العذراء مريم ، الذي [illegible] من خلال أولئك الشحاذين التعساء تحت قدميه أقوى الطغاة [6] . وفضلاً عن ذلك ، فقد وعدوا بصداقتهم ومعاملتهم الطيبة ، وذكروا الأعمال الطيبة التي يقوم بها ملكهم للمسيحيين المصريين وحجاجنا ، وبالتالي فإن مبعوثينا المكلفين بالدخول في صلح وُدّي رحلوا معهم .

وقد تزامنت هذه الأحداث مع قرار أمرائنا بتحصين منطقة على التل تشرف على معسكرات بوهيمند ، بحيث يمكن فيها إحباط أي هجمات معادية محتملة على معسكراتنا . وعند اكتمال هذا العمل ، تفرّقت تحصيناتنا حتى أصبحنا ، من كافة النواحي ، مدينة معلقة هي نتاج العمل الجاد والمتاريس الطبيعية ، وهكذا ، فإن هذه القلعة الجديدة الواقعة إلى الشرق منا ، بالإضافة إلى أسوار أنطاكية ، والمستنقع القريب الذي يحميها ، كانت تحرس معسكرنا ، وتحد من هجمات المحاصَرين على المناطق القريبة من الأبواب . بالإضافة إلى ذلك ، فقد كان هناك نهر يتدفق إلى الغرب . كما كان هناك جسر فوقه يؤدي أسفل الجبل إلى النهر . كما أن خطة تقوية موقع آخر على الجبل الصغير الواقع أعلى الجسر التركي ، لاقت قبولاً عاماً ولكن الآلات [illegible] التي صنعت في المعسكر ثبت أنها غير ذات فائدة .

وفي الشهر الخامس من الحصار ، وبينما كانت سفننا التي تحمل المؤن راسية في الميناء ، [illegible] المحاصَرين يحرسون الطريق إلى البحر ويقتلون أطقم السفن [illegible] وفي أول الأمر ، كان الأتراك يهددوننا دائماً ، وكان السبب الأكبر في ذلك هو عدم ميل قادتنا إلى الرد عليهم بأعمال ثأرية ، فجرّأهم ذلك ولمواجهة هذه الأخطار ، تقرر في النهاية أن نحصن المعسكر بالقرب من الجسر . ونظراً لتغيب جزء كبير من قواتنا في الميناء ، فقد تم اختيار بوهيمند والكونت لتأمين عودة المتغيبين ، ولجلب وتنقل المعاول والأدوات الأخرى اللازمة لبناء القلعة الجديدة . وعندما علم المحاصَرون بجهة رحيل بوهيمند ، بدأوا هجماتهم المعتادة واندفعت قواتنا بدورها [illegible] دون نظام ، تبعثرت وانهزمت بشكل مشين .

وفي اليوم الرابع ، وعندما كان الكونت وبوهيمند عائدين مع جمع كبير من الميناء ، وهم يظنون أنهم في أمان في هذه المسيرة ، كان الأتراك يتجسسون عليهم . ولكن لماذا نطيل في سرد هذه القصة ؟ لقد جرى قتال ، وهربت قواتنا وخسرنا حوالي ثلاثمائة رجل ، ولا أحد يعرف كم فقدنا من الغنائم والأسلحة . وبينما كانوا يقتلوننا كالمواشي في الجبال والصخور ، تحركت المعونة القادمة من المعسكر لملاقاة الأتراك الذين توقفوا عن قتل الهاربين . يا إلهي ، يارب ، لماذا هذه المحن ! إن قواتنا داخل المعسكر وخارجه من كانوا يستحقون بخدمات أعظم قائدين لي جيشك ، ريموند وبوهيمند ، تغلب عليهم الأعداء وانهزموا . هل هرب إلى المعسكر أم يهرب حراس المعسكر إلينا ! ، قم أيها الرب ساعدنا نعمدنا لاسمك »[8] . ولو أن أخبار هزيمة الأمراء وصلت إلى المعسكر ، أو لو أننا علمنا بهزيمة كتائب الجيش لهربنا هروبا جماعيا . وفي اللحظة المناسبة ، ساعدنا الرب . وبث الشجاعة في قلوب الذين روّعهم من قبل ، فجعلهم يتقدمون إلى أول صفوف المعركة .

وعندما رأى ياغي سيان ، قائد أنطاكية[9] ، أمتعة الفرسان وانتصاره . فضلا عن اندفاع قلة من المسيحيين ، أرسل فرسانه ومشاته من المدينة ولما كان واثقا من نجاحهم ، فإنه أمر بإغلاق أبواب أنطاكية خلفهم ، فكأنه كان يطلب من جنوده أن ينتصروا في القتال أو يهلكوا . وفي نفس الوقت فإن المسيحيين حسب الأوامر الصادرة إليهم ، تحركوا إلى الأمام تدريجيا . إلا أن الأتراك راحوا يجرون هنا وهناك ويطلقون السهام ، ويهاجمون رجالنا بجرأة . ولم توقف هذه المناورات التركية رجالنا ، ورغم أنهم عادوا من تلك المناورات لأنهم انتظروا الوقت المناسب لشن هجوم كبير ، وكانت الصيحات المنهمرة والصرخات الصاعدة تحمل نذيرا بعتقه بأن رحمة الرب قريبة

وعندما حان وقت المواجهة رفع فيرمي بروفنسالي نبيل جدا ، وهو إيزوارد أوف جاليجيز ، بصحبه مئة وخمسين من المشاة ، وهتف بالعون من الرب . وحث رفاقه على التحرك صائحا ، «تقدموا يا جنود المسيح »[10] وألقى بنفسه على

وراي ، ومع اندفاع قواتنا إلى الهجوم ، تحطمت غطرسة العدو . كان الباب ضيقا ، والجسر ضيقا ، والنهر متسعا[11] . فماذا بعد ! لقد سحق الأتراك المنهزمون سحقا ، أو قتلوا أو حطمتهم الأحجار في النهر ، فلم يكن هناك مهرب . وكان يمكن أن يمر اليوم بسلام على أنطاكية ، لولا أن ياغي سيان نجح الباب على مصراعيه . ولقد سمعت بنفسي ، من كثيرين من المشاركين في ذلك اليوم ، أنهم أوقعوا عشرين شخصا أو أكثر من الأتراك في النهر مع سور الجسر . وهناك برز جودفري بشكل عظيم ، حيث سد الطريق على الأتراك المتراجعين ليدخلوا من الباب ، وأجبرهم على الانقسام إلى صفين وهم يصعدون المرتفعات .

وبعد قتال دموي ، سار المنتصرون السعداء عائدين إلى المعسكر ، ومعهم غنائم عظيمة وخيول كثيرة . آه أيها الأخوة المسيحيون يامن تحشرنا للوفاء بمعركم . كم كنا نود لو أنكم شهدتم هذا الحدث الجدير بالذكر . لقد أسرع فارس ، نجا من الموت ، بإلقاء نفسه في أعماق النهر لتخطفه زملاؤه الأتراك ، وألقوا به من على حصانه . وغرق في النهر مع الطغمة التي تعلقت به[12] . لقد كان لي رؤيتنا لتجمع العائدة مكافأة على أهوال ذلك اللقاء . فراح البعض يجرون هنا وهناك بين الغبار على خيول عربية وهم يعرضون على أصدقائهم كنوزهم الجديدة ، وأخذ البعض الآخر ، وهم في حلتين أو ثلاث من الحرير ، يمدحون الرب ، الذي أنعم عليهم بالنصر والغنائم ، بينما راح آخرون ، وقد تسلحوا بثلاثة دروع أو أربعة ، يعرضون تلك التذكارات لانتصارهم . وبينما كان يمكنهم إقناعنا بهذه العلامات وغيرها من الغنائم الأخرى بعظمة قدراتهم القتالية ، فإنه لم يكن في وسعهم إعطاؤنا أي معلومات دقيقة عن عدد الموتى ، لأن إبادة الأتراك انتهت ليلا وبالتالي فإن رؤوس القتلى من الأعداء لم تجلب إلى المعسكر .

ومع ذلك فقد اكتشفت في اليوم التالي في موقع كانت ستقام عليه تحصينات أمام حصنه ، اكتشفت جثث بعض أعدائنا في خندق قريب من أحد الجبال استخدمه المسلمون كمقبرة . وأثارت رؤية غنائم الأتراك ، رجالنا الفقراء ،

يهم ، سيلوذون بالفرار ، ولكن ، على العكس من ذلك ، أحاط به أعداء الصباح عند بزوغ الفجر .

وقد تجلت معجزة كبرى تدل على عناية الرب . عندما تمكن ستون من رجالنا من صد هجمة قام بها سبعة آلاف من المسلمين . وأروع من ذلك سيلاً من الأمطار أغرق في اليوم السابق الخندق المحيط بالقلعة وملأه بالماء . وهكذا ، فلم يكن هناك أي عقبة تعوق حركة الأعداء إلا قوة الرب . ومع ذلك ، فإنني أعتقد أن ذلك لايعني أن نتجاهل الشجاعة العظيمة لكثير من الفرسان الذين كانوا يقومون بحراسة الجسر ، فانعزلوا ، ووجدوا أنفسهم عاجزين عن الهرب ، حيث المسافة بينهم وبين قلعتهم مرمى سهم . فاندفع هؤلاء الفرسان إلى الأمام في مواجهة المسلمين في تشكيل دائري نحو ناحية بيت قريب ، حيث واجهوا بشجاعة وصبر ، الهجوم المحيط بهم في شكل سيل منهمر من السهام وسحبا هائلة من الصخور .

في الوقت نفسه جلبت حلبة القتال قواتنا ، وهكذا أنقذت القلعة من الذين حاصروها ، ومع ذلك فعلى الرغم من أن الأتراك توقفوا عن اندفاعهم عندما رأوا اقتراب التعزيزات ، وتم القضاء على من كانوا في المؤخرة ، رغم أنهم كانوا على مقربة من حصونهم ، وتم إصلاح خندق القلعة وأسوارها مرة أخرى ، بحيث يمكن لحاملي الطعام أن يعودوا بأمان من الميناء ، وبالتالي ، هدأ الغضب الذي كان قد حل بالكونت إلى حد أن نادى باسم « أبو حيشا » والمدافع عنه . وفي أعقاب هذه الأحداث فاح صيت ريموند لأنه واجه هجمات العدو وحيداً . وبعد سد طريق الجسر وباب الجسر ، قام الأتراك بطلعات من باب آخر يقع في الجنوب وبالقرب من النهر . ومن هنا قادوا خيولهم إلى ركن . كفل لهم مرعى رائعاً بين الجبال والنهر .

وبعد الاستطلاعات وتحديد الوقت ، دار بعض رجالنا حول المدينة بعيون جب وعر ، بينما خاض آخرون في النهر ، وقاد هنا الفريق المشترك ألفي حصان بعيدا عن المرعى . ولم يكن محل في هذا العدد البغال وإناثها التي استردت .

فانتهكوا حرمة القبور ، فنبشوها وأخرجوا جثث الأتراك ، ولم يعد هناك شك في حجم الانتصار . فقد كان عدد الموتى نحو ألف وخمسمائة ولن أذكر من دفنوا بالمدينة ، ولا من جرفتهم مياه النهر . ولكن الجثث ألقيت في نهر العاصي حتى لاتعرق الروائح التي لا تطاق العمل في بناء القلعة

ولقد كان البحارة الذين انهزموا وأصيبوا في حروب الكونت وبوهيمند ، مازالوا في رعب ويتشككون في النتيجة ، ولكنهم بدأوا يمجدون الرب ، كما لو أن رؤية العدد الكبير من الموتى لم تمنحهم القوة . فالله دائما يؤدب أبناءه ويشجعهم ، وهكذا شاء الله أن الأتراك الذين قتلوا حاملي الطعام على طول الساحل وضفاف النهر وتركوهم للوحوش والجوارح ، صاروا بدورهم طعاماً في ذلك المكان لنفس الوحوش ونفس الجوارح[١٠٣] .

وبعد تكريس الانتصار وما صحبه من احتفالات واكتمال العمل في القلعة ، حوصرت أنطاكية من الشمال والغرب ثم ثار الجدل حول اختيار أمير ليكون حارساً على القلعة الجديدة ، حيث أن المسائل الخاصة بالجماعة تكون موضع استخفاف في أغلب الأحوال ، لأن الجميع معتقدون أن آخرين سيقومون بذلك العمل[١٠٤] وبينما خشي بعض الأمراء من الراغبين في إثارة أصوات ملاتهم للحصول على الوظيفة ، اشترى الكونت - خلافا لرغبات حاشيته - زمام الأمور من ناحية لتبرئة ساحته من تهمة التراخي والبخل ، ومن ناحية أخرى - نتيجة طريق القوة والحكمة للفاعلين[١٠٥]

وخلال الشهر الثاني ، كان ريموند قد أضعفه المرض الخطير والطويل ، وبلغ به الضعف خلال الشتاء فقيل إنه لا يميل إلى القتال أو العطاء ، ورغم أنه أدى خدمات عظيمة ، فقد اعتبر شخصاً لا أهمية له . لأن الناس كانوا يعتقدون أنه قادر على بذل المزيد من الجهد . وقد تحمل عداوة مرضها التشكك في قوته المسيحية حتى كاد أن يحترق من المروساليين في عدد من الأيام بعد تكريس هذه الإهانات أدى إلى ضعفه ، فثقة منه في أن التحكيم مختصرين ، وقد انهزم

وجدير بالذكر أن الكثير من اثاث البغال كانت قد تعرضت للسرقة فى وقت سابق فى الطريق من البحر إلى أنطاكية ، وذلك على يد الأتراك ، وبعد استردادها من الحيوانات الآن أعيدت إلى أصحابها بعد التعرف عليها .

بعد ذلك مباشرة حصَّن تانكرد ديراً يقع على الجانب الآخر من النهر ونظراً لأهميته فى سد طريق المدينة أعطى كونت تولوز لتانكرد مائة مارك فضى كما أسهم الأمراء الآخرون كل حسب قدرته . وهكذا فانه يتحدى أن أذكر أننا رغم كوننا أقل عدداً فان نعمة الله جعلتنا أقوى من العدو كثيراً . وفي ذلك الوقت كان حملة الأخبار الذين يحضرون إلينا يبلغون عن تعزيزات للعدو . والواقع أن هذه الشائعات لم تنتشر فقط من عند الأرمن واليونانيين ، بل أيضا من المسلمين في أنطاكية . وألفت نظركم إلى أن الأتراك قد احتلوا أنطاكية قبل أربعة عشر عاماً . ولعدم وجود خدم فإنهم استخدموا الأرمن واليونانيين لذلك فخرجوا [illegible] وزوجوهم من بناتهم . ومع ذلك فقد كانوا يبلغون إلى العرب [illegible] بالخيول والأسلحة بمجرد أن يتاح لهم الهرب . وهرب كثير من الصليبيين الجبناء مع التجار الأرمن عندما انتشرت هذه الشائعات . ولكن من ناحية أخرى ، [illegible] الأقوياء من قلاع عديدة عددا وجلبوا أسلحتهم وأسلحوها وعدلوا من [illegible] . وعندما اختفى الجبن المتخاذل مرجعه كآبة أو عادات الجراءة ، التي [illegible] في كل وقت وزمن لمواجهة كل الأخطار مع الأخوة ومن [illegible] . [illegible] واحدا من الأمراء المحاصرين وثق في أمرائنا إلى حد أنه كان يسلمنا أنطاكية ...

• • • • •

(١) المقصود بكوروزان Corozan هو إقليم الموصل من العراق . وكانت هذه المنطقة فى وقت من الأوقات هي الجزء الشمالي من إيران المعروف بخراسان . ونعتقد أن المؤرخ يستخدم هذه الكلمة ليقصد بها التوبيخ كما جاء فى إنجيل متى

انظر : Matthew, 11 21

ويشير ريموندا جيل إلى رضوان صاحب حلب .

- في الحقيقة إلتبس الأمر هنا على ريموندا جيل ولم يفرق بين رضوان بن تتش صاحب حلب وبين كربوغا أتابك الموصل الذي سيأتي لنجدة أنطاكية بعد أن سقطت في أيدي الفرنج . أما عن محاولة رضوان مساعدة أنطاكية فتأتي كرد الفعل الاسلامي الثاني بعد محاولة شقيقه دقاق من قبل . وقد خرج رضوان من حلب في نهاية فبراير ٩٨ . ١م / آخر صفر ٤٩٢ هـ بصحبة سلمان بن أرتق . وكالعادة جاء رد الفعل الاسلامي هذه المرة أيضا متأخرا وهزيلا . نظرا أن رضوان كان تناسى خلافاته مع باغي سيان وأخيه دقاق وحاصر الصليبيين أنه [illegible] الإقتصادية خطتهم على فك الحصار عن المدينة . انظر :

Duc de Castries, La Conquête de la Terre Sainte Par Les Croisés, Paris 1973.

بالنسبة لما جاء هنا المؤرخ حديثه في هذه الفقرة (جاءت الآن أخبار) ، نؤكد بأن مؤرخنا لم يكن يعرف من تفاصيل هذه الأخبار سوى قدوم رضوان لنجدة أنطاكية . بينما كان مؤلف الجستا تابع وصف بحكم كل التفاصيل ، مما يدل على أن رواية ريموندا جيل عن سيده كونت تولوز كانت مبنية بحتة على الأقل حتى الآن . فقد كانت خطة رضوان أن يهاجم [illegible] بينما يهاجم باغي سيان المعسكر الصليبي من الخلف وذلك بخروج [illegible] الرمي . إلا أن جواسيس الفرنج من السريان والأرمن قد أخبروا بهذه الخطة إلى وصف التي استعد تماماً . انظر :

Gesta Francorum p. 39; William of Tyre, vol. 1, pp. [illegible]

(الترجمة العربية)

(٢) جاء وصف ريموندا جيل للمعركة مشيرا للعواطف رغم يساعد على فهم الأحداث وقد لاحظ أن الملاحظة لم يتمكنوا من القيام بحركة الالتفاف التي كانت تؤدي إلى هلاك الفرنج لو تمت . وفي هذه المعركة ، حصر الفرنج قوات رضوان في المنطقة الضيقة بين بحيرة أنطاكية ونهر العاصي .

(٣) [الرب الحاضر أبدا ، القوى القدير فى المعارك] . هذه العبارة اقتبسها المؤرخ من العهد القديم . أنظر Psalm 23 : 8

(٤) يتحدث المؤرخ هنا عن استيلاء الفرنج على حارم بعد هزيمة رضوان ، وحارم تقع إلى الشرق من أنطاكية

- وتقع حارم على بعد ١٩ ميلا من أنطاكية كما جاء فى معجم البلدان ، وكان استيلاء الفرنج عليها بعد [illegible] مباشرا منهم [illegible] ، وكانت هزيمة قوات [illegible] وسقوط حارم فى أيدى الصليبيين فى ٩ فبراير ١٠٩٨م / ٤ ربيع أول ٤٩١ هـ .

أنظر : ياقوت الحموى : معجم البلدان - ٤ ج وفهرس - لبزج ١٨٦٦ - ١٨٧٣ ، ج ٢ ، ص ١٨٤ . راجع أيضا : A. Beri & Aus pp. 381 - 382

(الترجمة العربية)

(٥) يمارس المؤرخ هنا فكرة العدالة الالهية حين يجعل الرب يرسل من [illegible] أعدائه ويثبت رؤوسهم فى أطراف العصى كعقاب لهم على [illegible] حرمة البارئ

(٦) المقصود بملك مصر هو الأفضل شاهنشاه ، وزير مصر ، وكان الفاطميون يرغبون فى مشاركة اللاتين ضد أعدائهم الأتراك ، وكان الامبراطور ألكسيوس ميالا إلى [illegible] وحث الصليبيين على التعاون معهم ، ولكن الخليفة [illegible] على الصليبيين أن تقسم بلاد الشام السلجوقية بين اللاتين والفواطم ، ورفض اللاتين هذا المشروع لأنهم كانوا يتطلعون إلى أخذ فلسطين . أنظر

Hamilton Gibb : The Caliphate and the Arab States. A History of the Crusades ... 1955, pp. 11 - 49

- فى الحقيقة تعد هذه الرواية من أهم القضايا التى تخصصها تاريخ الحملة الصليبية الأولى ، والتى لا زالت تحتاج إلى قول حاسم فيها ، [illegible] لبحث هذه القضية [illegible] للباحث إلا أن الظروف حالت دون طبعها حتى الآن [illegible] هذه القضية فى رسالتى للدكتوراة . إلا أن فرصة ترجمة تاريخ [illegible] لأحداث الحملة الصليبية الأولى بكل دقائقها - تقتضى مناقشة هذه القضية [illegible] [illegible] خلال عشرة وعشرين [illegible] وبعض حقائق تاريخ الحملة الصليبية الأولى - مع [illegible] العصر الاسلامى [illegible] العربى [illegible] إلى الحقيقة التاريخية كاملة [illegible] من هذه الأمور التى حساسة

ترق آخر ، فيجب عرض جوانب هذه القضية - الأمر الذى تشكك فيه الترجمة الانجليزية ، ربما عن عمد - حتى تستبين الحقيقة كاملة . فكل المؤرخين المحدثين أخذوا بما ذهب إليه هاملتون جب وغيره فى ذلك مثله ، معتمدا بما جاء فى روايات المؤرخين اللاتين المعاصرين للحملة الصليبية ، دون تمحيص ودراسة لنصوص هؤلاء .

فقد أيد مؤلف الجستا رواية ريموندأجيل عن وجود رسل الأفضل الوزير الفاطمى فى المعسكر الصليبى ، كما ذكر ذلك كل من ستيفن كونت بلوا (فى رسالته التى بعث بها إلى زوجته أديلا والتى كتبها خارج أسوار أنطاكية بتاريخ ٢٩ مارس ١٠٩٨ م) وانسلم راهب ريبمونت (فى رسالته إلى مناسيس أسقف ريمز والتى كتبها فى يوليو ١٠٩٨ م) ، ولا يتعدى ما أورده هؤلاء أن الأفضل قد طلب من الصليبيين عدم التعرض لأملاكه ودولته فى بلاد الشام ويعنى بذلك فلسطين . إلا أن رواية ابن الأثير قد فتحت مدى أوسع للمؤرخين المحدثين . ولما كانت روايات اللاتين شهود العيان قد أمدتهم بنصف البرهان على ما ذكره هاملتون جب ، وهو وجود رسل الفواطم فى المعسكر الصليبى خارج أنطاكية ، فقد أمدتهم رواية ابن الأثير بتفاصيل اتفاقية [illegible] بين الطرفين ، وهى اقتسام بلاد الشام بينهما . ثم عادت المصادر اللاتينية لتؤكد التفاهم بين الطرفين حين ذكرت عودة السفارة الفاطمية إلى مصر بصحبة بعض الرسل من اللاتين [illegible] الاتفاق فى القاهرة ، وكل ذلك يعنى الوزير الفاطمى الأفضل - رأس الخليفة المستعلى - وهو [illegible] فى يده الحل والعقد فى الدولة الفاطمية . [illegible] تعرض [illegible] عامة على موقفهم المتخاذل تجاه الصالح الاسلامى العام . إلا [illegible] فى هذه القضية ، وبتحليل النصوص والأحداث يتضح لهم [illegible] من المصادر اللاتينية - أو الاسلامية - أية نصوص محددا [illegible] مع اللاتين وفقا كانت هناك اتفاقية محددة البنود كما أورد ابن الأثير ، لكن [illegible] هو تنسيق وضعها مع الفواطم ، وهو الذى تولى أمور الفرنج منذ معركة [illegible] حتى سقوط أنطاكية فى أيديهم ، ولكان أوردها مؤلف الجستا - [illegible] فى الأحداث . أما ابن الأثير فهو يكتب عن أحداث لم يشاهدها ، [illegible] معاصرا لها (ولد ابن الأثير فى عام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠م) . كما أن روايته [illegible] ، يفهم منها أن اتصال الفواطم بالفرنج قد تم قبل خروج اللاتين من أوربا ، وقبل أن أصحاب مصر من [illegible] لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها

واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزة ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم ودخول الإكسيس (أتسز) إلى مصر وحصرها فخافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ويملكوه ويكون بينهم وبين المسلمين والله أعلم » . كما يبدأ عبارته بما يثبت عدم تأكده منها « وقيل » . « وكذلك فإنه ينهيها بما يشبه ذلك « والله أعلم » ، كما أنه لم يحدد صراحة إقتسام الشام بين الفرنج والفواطم بل « ويملكوه ويكون بينهم وبين المسلمين » والمسلمين هنا تعني السلاجقة والأمراء العرب في طرابلس وشيزر وحماة والفواطم أيضا . وإذا سلمنا بوجود رسل الأفضل لدى الفرنج ، الذي حمل ولم المصري (الذي لم يكن شاهد عيان إلا للأحداث منذ عام ١١٦٧م / ٥٦٣ هـ فقط) يكشف في فرح وسرور الفواطم لما ألم بالسلاجقة على أيدي الفرنج ، فإن التفسير الوحيد لوجود هؤلاء الرسل لدى الفرنج هو أن الأفضل - مثله في ذلك مثل كل حكام الشرق الأدنى الإسلامي في ذلك الوقت - قد خدع ، ولم يتفهم طبيعة الحركة الصليبية والهدف من وجود الصليبيين في بلاد الشام ، وربما اعتقد أن الحملة الأولى ما هي إلا مجرد حملة بيزنطية أخرى لصد المد السلجوقي . إلى جانب ذلك فإن الفرنج استغلوا عدم دراية الفواطم بطبيعة حملتهم على بلاد الشام . وبعثوا إلى دقاق ملك دمشق يخبرونه أنه لا مطامع لهم في أملاكه ، وأن هدفهم هو استعادة أملاك بيزنطة بالشام ، حتى يشتروه من نجدة أنطاكية ، كما راسلوا رضوان ملك حلب لمهادنته ، ليتفرغوا لفتح أنطاكية . كما ذكر ابن الأثير نفسه « وكان الفرنج قد كاتبوا صاحب حلب ودمشق بأننا لا نقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم لا نطلب سواها مكراً منهم وخديعة حتى لا يساعدوا أنطاكية » . وما من شك أن مراسلات الفرنج إلى أمراء وقادة المسلمين تعد عملا سياسيا ناجحا ساعدهم على ستر مقصدهم وأهدافهم الحقيقية ، الأمر الذي أدى إلى خديعة بعض القوى في المنطقة ، حتى استولوا على أنطاكية ولما احتفظوا بها لأنفسهم ، اتضحت الصورة للأفضل ، الذي سارع بالاستيلاء على بيت المقدس من الأراتقة نواب تتش فيه ، كما أن موقف الأفضل من الحملة الأولى وتصديه لها في عسقلان فيما بعد ، ثم حملاته ضد مملكة بيت المقدس اللاتينية ، وتصادمه معهم في حملات الرملة الثلاث توضح عدم تراخيه في التصدي للوجود الصليبي قدر استطاعته. وتوضح أن الانشقاق في الصف الإسلامي وعدم تضافر القوى الإسلامية في المنطقة هو السبب الرئيسي في النجاحات التي حققها صليبيو الحملة الأولى ، ومن كل ما سبق =

= لا نستطيع الأخذ بما يذهب إليه كثير من المؤرخين المحدثين باطمئنان تام . انظر : ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١١٣ - ١١٤ . راجع أيضا :

Gesta Francorum, p. 37., Epistolae, ed. Hagenmeyer, pp. 149 - 152, 156 - 160; William of Tyre, History of Deeds, vol. 1, pp. 222 - 224. C.F. also, Runciman, op. cit., vol. 1, p. 229

راجع أيضا : سعيد عاشور : شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، المجلد ١٦ ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ١٩ وما بعدها ، حسين عطية : إمارة أنطاكية ، ص ١٠٥ - ١٠٧ .

(الترجمة العربية) .

(٧) تتبع القلعة التي اقترح بناؤها في مواجهة باب الجسر . والأسطول الذي يشير إليه المؤرخ هو الذي حضر على متنه بعض الحجاج (الصليبيين) الانجليز والايطاليين ، ولم يتفق المؤرخون المحدثون حول مشكلة حضور ذلك الأسطول المصر إبحار أتلتع Edgar Atheling .

(٨) « قم أيها الرب . ساعدنا تمجيدا لإسمك » ، تستخدم هذه العبارة عادة للتأثير . انظر : Psalm. 34 : 2.

لم تكن رواية ريموند أجيل عن حب الكمين لقوات كونت تولوز وبوهيمند مرضية ، وقد أحجم المؤرخ عن التباهي بوصفها بما يستخدمها كوسيلة ينقل بها إلينا العلوم الكنسية التي درسها هو ، وقد كانت مهمة كونت تولوز وبوهيمند قد وقعت في ٥ مارس ١٠٩٨م

انظر . Hagenmeyer, Chr., 241

ومن المحتمل أن الكمين قد حدث للفرنج في ٦ مارس . انظر . Ibid., 243

(٩) كان باغي سيان السلجوقي حاكما لأنطاكية (١٠٨٧ - ١٠٩٨ م) . ولم يكن في استطاعة القادة الأتراك توحيد قواتهم ولم تفلح جهود رضوان ابن تتش المعوقة في فك الحصار الصليبي حول أنطاكية .

(١٠) كلمة « Era » كلمة عامة في الشعر ، وقد ترجمناه ترجمة غير حرفية لأننا نعتقد أن كلمة « إجبيرا » « Charge » تعبر عن معنى كلمة Era في هذه الفقرة .

(١١) من المحتمل أن المؤرخ قام بالتماس التعليقات على أخطار « الطريق الواسع والصعوبات التي تكتنف الطريق الضيق » من الجبل حتى أو الجبل لوقا . انظر .

Matthew, 7 : 13; Luke, 13 : 24.

(١٢) يستعد ريموندأجيل هنا للشرق الأحرار ، والمياه العميقة هي رموز عامة للبؤس ، اقتبسها المؤرخ من مزامير داود (العهد القديم) .

انظر . Psalm, 106 : 24

(١٣) لدينا هنا مثال آخر للعدالة الإلهية ، وفي هذه المرة أصبح لتل السلاجقة طعاما للوحوش والجوارح التي تكونت وليمتها السابقة من جثث الفرسان الذين قتلهم السلاجقة ، وهذا مقتبس من سفر إرميا (العهد القديم) .

انظر . Jeremiah, 16 : 4.

(١٤) أطلق الصليبيون على الحصن الجديد اسم قلعة الثور La Mahomerie ، وقد قام كل من جاستون دي بيرن Gaston de Bearn وبطرس أوف كاستيلون Peter of Castillon وريموند أوف تورين Raymond of Turenne ووليام أوف مونتبلييه William of Montpellier وجوفري أوف لاستور Geoffrey of Lastours ووليام أوف سبران William of Sabran بمساعدة كونت تولوز في حماية الحصن ، وجلب الأحجار من مقبرة المسلمين لبناء الحصن ، وتم العمل فيه حوالي ٢٠ مارس ٩٨ ١ م .

. واسم قلعة الثور Mahomerie هنا مشتق من كلمة فرنسية قديمة تعني مسجد Mosque ، ولأن ريموند كونت تولوز هو صاحب فكرة بناء هذه القلعة ، وهو الذي تولى أمر الدفاع عنها فقد صارت تحمل اسم قلعة ريموند .

أنظر . Runciman, op. cit., vol. 1 p. 228

(الترجمة العربية) .

(١٥) استغل ريموندأجيل سيرة كونت تولوز ليستعرض معلوماته عن شرور الكسل والشح ، والعودة إلى طريق القوة والحكمة ، وعن تعاليم الشح ، انظر .

St. Ambrose, De officiis, in MPL. 16, Cols. 137 - 138

(١٦) شيد الصليبيون قلعة في المكان الذي كان به دير القديس جورج ، وقرر المجلس الذي عقده الفرنج في ٥ أبريل ٩٨ ١ م بناء هذه القلعة واتفق على أن يدفعوا لتنكريد

أربعمائة مارك لقاء حماية القلعة . وقد ساهم كونت تولوز مع هذا المبلغ . والإشارة إلى التركي الذي دخل في أمرائنا لها أشكال متعددة ، فيتفق المخطوط Codex مع النسخة A ولا يستخدم تعبير « خلال بوهيمند » " Per Boamundum " . ويستخدم المخطوط B هذا التعبير ، حيث ورد في هذا المخطوط كما يلي :

" quidam de Turcis qui erat, per Boamundum et Comitem, principibus mandavit nostris "

« حيث أحد أتراك المدينة ، بواسطة بوهيمند ، وكان سيعهد إلى أمرائنا بالمدينة » .

وهذه الجملة ليست واضحة وتدفعنا إلى الاعتقاد بأنه قد تم إقحام بعض الألفاظ في النص .

الفصل السادس

الاستيلاء على أنطاكيـــة

في أعقاب اجتماع مشترك أرسل الأمراء بوهيمند وجودفري وأيضا كونت الفلاندر للتحقق من هذا العرض . وعند وصولهم إلى أحد تلال أنطاكية في منتصف الليل أتى رسول من التركي الخائن وأمرهم « لا تتحركوا حتى يمر أمامكم مصباح » [1] .

وكان من المعتاد أن يمر ثلاثة رجال أو أربعة حاملي المصابيح بمحاذاة الأسوار ، لإيقاظ الحراس وتنبيههم . وعندما مرت المصابيح ، وضع رجالنا الرابضين في ظلال الأسوار سلما وبدأوا يتسلقون . واعتلى السور فرنجي يدعى فولشر ، وهو بلا شك شقيق بودلوس أوف شارتر ، بلا خوف وتبعه عن كثب كونت الفلاندر الذي أمر بوهيمند والدوق بأن يتبعاه [2] . وعلى أية حال ، انقطع السلم في [illegible] ، إلا أن البعض كانوا قد وصلوا إلى أعلى السور فعلا ونزلوا داخل المدينة وفتحوا أحد الأبواب بالقوة . ودخل الصليبيون بهذه الطريقة ، وقتلوا كل من لاقوه . وعند الفجر صاحوا صيحات مرعبة جدا حتى أن المدينة كلها اضطربت وبكى الأطفال والنساء .

وراح بعض المسيحيين في قلعة ريموند القريبة ، وقد أيقظتهم الجلبة يرددون « لقد جاءت تعزيزات إلى العدو » .

ورد عليهم آخرون « إن صرخات كهذه ليست كأصوات الفرح » .

ومع بزوغ الفجر رفرفت أعلامه فوق التل الجنوبي لأنطاكية . وفزع الأنطاكيون لرؤية قواتنا على التل الذي يشرف على المدينة ، فاندفع بعضهم من الأبواب وقفز بعضهم من الأسوار . فجعل ثوب الفوضى تدب بينهم حتى أن واحداً منهم لم يبق ويقاتل . وبعد شهور كثيرة من الحصار المضني تكشف أمامنا هذا المشهد السعيد وهو مشهد لم يستطع فيه المدافعون عن أنطاكية من فترة أن يهربوا من المدينة ولا أن يتجنبوا الموت إذا ما تجرأوا على الفرار [3] .

ووقع لنا هنالك حادث سعيد رائع ، عندما لقي بعض الأتراك—في محاولتهم للهرب دون أن يراهم أحد من خلال الشقوق التي تتخلل التلال من الشمال— مجموعة من الصليبيين . واضطر الأتراك الذين هبطت أعمالهم إلى التقهقر فهمزوا خيولهم بسرعة كبيرة حتى أنهم سقطوا جميعا من فوق الهضاب الصخرية . لقد كان سقوط الأتراك القاتل مشهدا سعدنا له حقاً ولكننا حزنا لضياع أكثر من ثلاثمائة حصان لاقت حتفها هناك [٤] .

ولن نعلق على كمية الغنائم ، ولكن يمكنكم أن تصدقوا أي شيء يمكن أن يتبادر إلى ذهنكم وتحسبوا أكثر منه . فلا يمكننا تقدير عدد القتلى من الأتراك والمسلمين ، ومن القسوة أن نحكي القصة وطرق الموت المختلفة . وفي الوقت نفسه فإن المدافعين كانوا يراقبون من موقعهم فوق تل أوسط مقتل زملائهم ، وتوقف المعركة ، وبالتالي فإنهم اختاروا أن يدافعوا عن قلعتهم . ولكن باغي سيان ، أثناء هروبه من أحد الأبواب ، وقع في يد الفلاحين الأرمن ، الذين قطعوا رأسه وقدموه لنا بعد ذلك هدية . وأعتقد أن باغي سيان الذي قطع رؤوس الكثيرين من الأرمن ، قد قُدِّر له بإرادة الله التي لاترحم أن تقطع رأسه على أيدي فلاحيهم .

وقد سقطت مدينة أنطاكية في اليوم الثالث من يونيه ، ولكنها كانت هدفا للهجوم منذ حوالي الثاني والعشرين من أكتوبر من العام السابق . وأحجمت قواتنا عن مهاجمة القلعة . بينما راح رجالنا يفحصون الغنائم ويصنعون سجلا وأسمنوا في تسبيح الله ، مانح كل هذه النعم . فأفرطوا في الأكل منهم شبعٌ وبذخ ، واحتسوا بالراقصات .

وبعد ذلك ثلاثة أيام . أي في اليوم الخامس من يونيه ذاته ، حصر المسلمون الصليبيين . وهكذا فإن الصليبيين الذين كانوا قد حاصروا أنطاكية التركية برحمة من الرب ، وجدوا أنفسهم الآن وقد أحاط بهم الأتراك حسب مشيئته . ومما زاد من خوفنا أن الحصن الأكبر . الذي كان بكل المقاييس قلعة

حقيقية ، كان في حوزتهم . ولذلك ، فقد وحّدنا الصفوف وحاصرنا القلعة . ولكن كربوغا ، سيد الأتراك ، بعد وصوله بوقت قصير ، واعتقادا منه أن المعركة ستكون خارج المدينة ، عسكر على بعد نحو ميلين من أنطاكية ، وتقدم في صفوف منظمة نحو جسر المدينة [٥] . وفي اليوم الأول ، دعّم رجالنا الدفاع عن قلعة الكونت ، خشية أن يستولي من هم في القلعة على أنطاكية لو خرج المسيحيون للقتال . ومن ناحية أخرى فقد شعروا أنهم ، إذا تخلوا عن قلعة الجسر ، فإن العدو سيستولي عليها ويسد طريق الخروج للقتال ، لأنه كان يسيطر على مخارج المدينة .

وكان روجر أوف بارنفيل ، وهو فارس شهير ومحبوب ، يتابع تقهقر الأتراك في أحد الأيام ، عندما وقع في أيديهم وقطعوا رأسه [٦] . فاستولى الحزن آنذاك والخوف على رجالنا ، ودفع بالكثيرين منهم إلى اليأس من القتال [٧] . ثم تركت نكستان بأعدائنا في المعارك التي جرت بعد ذلك . ولكنهم في اليوم الثالث هاجموا القلعة بقوة حتى بدا أن قدرة الرب فقط هي التي كانت تحميها وتوقف الأعداء ، لأن الأتراك — ولسبب مجهول — أصيبوا بالفزع الشديد أثناء عبورهم الخندق المائي المحيط بالقلعة وهدمهم للسور ، فأسرعوا بالفرار . وبعد أن انسحبوا لمسافة قصيرة ، رأوا أنه ليس هناك سبب للهروب غير خوفهم ، ولذلك عاودوا الهجوم . وشنّوا هجومهم بعنف كما لو كانوا يريدون أن يمحوا تراجعهم المشين ، ولكن الرب بث الخوف في قلوبهم مرة أخرى ، وبالتالي عاد رجال كربوغا إلى معسكرهم في اليوم نفسه .

ولقد أحرق الصليبيون القلعة ، وانسحبوا إلى داخل أنطاكية بعد أن عاد أعداؤهم في اليوم التالي ومعهم معدات ثقيلة . وزاد قلق الفرنجة بينما ارتفعت ثقة الأعداء في أنفسهم إلى عنان السماء ، لأنه لم يكن لدينا أمل خارج المدينة ، بينما كان أعداؤنا يحتفظون بالقلعة الرئيسية داخل أنطاكية . ودفعت هذه العوامل المشجعة الأتراك إلى التقدم نحونا عن طريق القلعة ، ولكن المسيحيين ثقة منهم في مواقعهم الاستراتيجية وأراضيهم المرتفعة زحفوا على الأعداء .

وهزموهم في أول هجوم [٨] . لكنهم غفلوا عن هجوم مضاد وقع عليهم ، وانشغلوا بغنائم المعركة ، فنزلت بهم هزيمة مشينة . وعند أحد مداخل أنطاكية ، لقي أكثر من مائة من المسيحيين وعدد كبير من الخيول مصرعهم . ونتيجة لذلك ، أصبح الأتراك يحلمون عند دخولهم الحصن بهاجمة المدينة السفلى .

كان هنالك واد صغير يحوي سهل وعين ماء ، ويقع بين جبلنا وقلعتهم ولهذا بذل الأتراك كل جهودهم لاكتساحنا وطردنا من طريقهم ، لأن النزول إلى أنطاكية لم يكن ممكناً إلا عن طريق جبلنا . واستمر القتال عنيفاً فرصاً من الصباح حتى المساء بشكل لم يسمع عنه أحد من قبل . وفي غمار وابل السهام والصخور التي انهمرت ، وقعقعة السلاح التي لم تتوقف ، ومقتل أعداد كبيرة من المحاربين ، غطت قواتنا في نوم عميق ، وهذا بكل تأكيد تجربة رهيبة غير عادية بالنسبة لنا . وإذا أردت أن تعرف ، فقد انتهى القتال ليلاً [٩] .

وعند صلاة الليل ، وهو وقت الثقة في رحمة الرب ، فقد الكثيرون الأمل ، وربطوا أنفسهم بحبال ونزلوا من أعالي السور . وفي المدينة نشر الجنود العائدون من القتال ، إشاعة بأن قتلاً جماعياً للمسيحيين كان ينتظرهم ، وما زاد الرعب أنهم لاذوا بالفرار هم أيضاً بالرغم من حث البعض المترددين على الصمود . ومع ذلك ، كما قلنا ، فإن رحمة الرب كانت حاضرة ، حتى والمسيحيون في محنة ويأس ، فكان عقاب الرب للداعرين من أتباعه مواساة لهم في المصائب [١٠] .

• • • • •

هوامش الفصل السادس

(١) من الواضح أن فيروز ، الذي ، كان في خدمة باغي سيان ، ويطلق عليه بعض Firuz وبيرغوس Pyrrhus وفيروس Feirus كما أن له عدة أسماء أخرى ، ويسميه ريمونداجيل ، التركي ، ويذكر مؤرخون آخرون أنه أرمني .

انظـــــر : Runciman, op. cit., I, p. 231, n. 3

ويبدو أنه لشل بسرء الحظ في صفقة تجارية وزوجة غير مخلصة .

انظـــــر : Hagenmeyer, Chr., 64

- ترى رواية ريمونداجيل أن فيروز قد اتفق على تسليم أنطاكية مع قادة الفرنج بصفة عامة ، دون توضيح دور بوهيمند في استدراج فيروز ودون ذكر تفاصيل وتطور العلاقة بين بوهيمند وفيروز . وربما قصد ريمونداجيل أن يسجل الرواية بمثل هذا الإيجاز حتى يبخس بوهيمند حقه في توفير الفرصة لدخول الفرنج أنطاكية بسهولة ، إلا أنه من الواضح أن المؤرخ - مثله في ذلك مثل بقية قادة الفرنج - لم يكن يعلم شيئاً عن العلاقة بين بوهيمند وفيروز . كما لم يعلم أحد غير بوهيمند بنوايا فيروز . فلم يخبر بوهيمند قادة الفرنج عن وسيلة لدخول أنطاكية إلا عشية الهجوم عليها (٢ يونيو ١٠٩٨م) . ومن المخصص أن تلاحظ رواية مؤلف الجستا الذي أبرز دور بوهيمند في هذا الخصوص

انظـــــر : Gesta Francorum, p. 44

(الترجمة العربية) .

(٢) فولشر Fulcher يورد هربرت Burchard مارسين مصريين من مقاطعة شارتر .

(٣) يكشف وصف ريمونداجيل لسقوط أنطاكية عن حساسية معينة لأهوال الهجوم الصليبي على المدينة وروعة مكان أنطاكية ، ويستخدم كلمات من المزامير ليضخم من طبيعة الحدث .

(٤) تكشف سعادة المؤرخ لمصرع الأتراك وحزنه على فقدان الجهاد ، عن مشاعر الرافضة الدفينة ، التي جبل على كره الأتراك .

(٥) كربوقا هو أتابك الموصل ، وقد أخفق حين هاجم الرها وهو في طريقه إلى أنطاكية وبذلك أعطى الفرنج الفرصة للاستيلاء على أنطاكية .

= استفرق حصار كربوغا للرها الثلاثة أسابيع الأولى من شهر مايو ١٠٩٨م/ جمادى الآخرة ٤٩١ هـ ، وبدأ حصاره للصليبيين في ٥ يونيو / ٣ رجب من نفس العام . وكان خطأ كربوغا دليلا جديدا على أن ردود الفعل الاسلامية ضد الوجود الصليبي في بلاد الشام لم تأت في الوقت المناسب . وللمزيد عن حصار كربوغا لأنطاكية .

انظـــــر : Fulcher of Chartres, p. 101.

(الترجمة العربية) .

(٦) روجـــــر أوف بارنفيل Roger of Barneville - ... - يذكره مؤرخ الحملة في حديثه عن حصار نيقية .

(٧) « الحزن والحرب » تعبيرات ترد بشكل متكرر في المزامير .

انظـــــر : Psalms. 7 - 13, 17 - 2, 34 . 6

(٨) كان أحمد بن مروان يحتل القلعة ، وهو مقـــــدم قوات كربوغا وبديل شمس الدولة ابن باغي سيان .

- لدى سقوط أنطاكية في أيدي الصليبيين بعث شمس الدولة بن باغي سيان إلى كربوغا يطلب مساعدته فأجبره كربوغا على تسليم القلعة إلى أحمد بن مروان وهو أحد أتباعه المخلصين . وبقي الأخير يدافع عن القلعة حتى سلمها إلى بوهيمند بعد هزيمة كربوغا في ٢٨ يونيـــة ١٠٩٨ م / ٢٩ رجب ٤٩١ هـ . ووجهه إلى المرســـل . انظـــر ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٣٦

(الترجمة العربية) .

(٩) لا يعرف ريموندأجيل من تفاصيل هذا الصـــــيام إلا القليل ، ويحيله دائماً إلى كتابه المقدسة . وقد ترجمنا هذه الفقرة لتعني أن المسيحيين قد غلبهم النعاس ، والنعاس غير الطبيعي لم يكن أمراً غير عادي في الحلوم المكتسبة ، وربما قصد ريموندأجيل بذلك التعبير ليفسر لنا نوم الروح ، لأنه يستشهد بالرؤية التي لابد أن يؤدي أصحاب الخطايا إلى طريق الفضيلة . انظر

Haliser Hermann. The Problem of Wasteland, Islandica, 25, 1936, p. 40

وعن « نوم الرب » " Sopor Domini " انظر : Samuel. 26 : 12

- يبدو أن الكتب الدينية كانت المجال الرئيسي لقراءات ريموندأجيل ، ومنها استمد سياقاته وعناصر رواياته . وربما يعني النوم غير الطبيعي فهو صورة لنوم الروح تحت منه بعنصر الجسد أو استرخائه . وهذا النوم عرفه كثير من المتاليق ، فالتعود على التقشف الشديد (حديثا) يسمح للرجال المتحمسين بالنوم تحت النيران . وهذا التعبير يدل على أن النثرات تبعها مجهود كبير طبيعة ثقافة ريموندأجيل ومعارفه الفكرية ومصادر استعاراته منها . انظر :

see Rechard, Raymond d'Aguilers, pp. 298 - 299.

(الترجمة العربية) .

(١٠) يشير ريموندأجيل هنا إلى الزاحفين على الحبال ، الذين تخلوا عن حصـــــار أنطاكية وانضموا إلى ستيفن كونت بلوا عند الإسكندرونة ثم أسرعوا بإخبار الامبراطور ألكسيوس كومنين عن محنة الصليبيين .

= من المعروف أن كونت بلوا قد ترك حصار أنطاكية قبل سقوطها في أيدي اللاتين بيوم واحد (٢ يونيه ١٠٩٨ م) وتوجه إلى طرسوس ، وفي ليلة ١٠ يونية ، أي فور وصول كربوغا بحاصرا الصليبيين داخل أنطاكية ، هرب عدد من الفرنج بقيادة وليم وأخيه كرتس جرانت ميسنيل ولامبرت كونت كليرمونت ، ووصلوا إلى ميناء السويدية حيث ترسو بعض السفن الجنوية والبرلونية ، فبادرت السفن بالإقلاع حين أعلن الفارون عن محنة الفرنج في أنطاكية . ورحلت السفن ومعها الفارون إلى طرسوس حيث ستيفن ومنه ترحه الجميع إلى معسكر تحر حيث قابلوا الإمبراطور البيزنطي ، وأخبروه بأن الأتراك قد قضوا على القوات الصليبية ، وخاطبه كونت بلوا قائلا ، فكر في أحوالك وعجلا بنفسك . واقتنع الامبراطور - الذي كان في طريقه إلى أنطاكية لمساعدة الفرنج - كما ذكر المؤرخ اللاتيني أنونيموس جستا - بكلام ستيفن ورأى أن يراعي مصالح دولته دون المخاطرة بالتوغل في بلاد الشام . وبذلك ضاعت آخر فرصة للفرنج لنيل مساعدة البيزنطيين ، كما ضاعت آخر فرصة لقيام التعاون بين الطرفين . وربما ضاعت بذلك أيضا أهم الفرص لقيام الشقاق في ترحيب الكنيستين الشرقية والغربية . ومن هنا فيتضح أن الهام المؤرخين اللاتين أمثال مؤلف الجستا - تابع بوهيمند عن =

= أنكيس الأول – وغيره من المؤرخين ، بالخيانة لمرة لم يمين على الامبراطور ، فلفترخ لميناليوس لاتيس وغيرمانلي في نفس الوقت وهو ينقله يوجه كلام آن كومنينا التي التمست العذر لوالدها في عدم وصوله إلى أنطاكية ، وإن كان ذلك قد مهد الطريق أمام بوهيمند ليستقل عن الارتباط بمعاهدة القسطنطينية عام ١٠٩٧ م ، ويتركز حق بوهيمند في أنطاكية ، ويستأثر بها لنفسه . انظر : حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ، ص ١٢٠ - ١٢١ .
[الترجمة العربية] .

الفصل السابع

حصار كربوغا لأنطاكية والعثور على الحربة المقدسة

هنا يبدأ العثور على الحربة المقدسة :

في أعقاب الإستيلاء على أنطاكية ، أظهر الرب قدرته وإحسانه ، بأن اختار فلاحاً بروفنسالياً بعينه ويسلم الرسالة التالية لريموند وأدهيمار [1] :

« لقد أنذرني أندرو ، مبعوث الرب وسيدنا يسوع المسيح ، منذ زمن في أربع مناسبات وأمرني أن أبلغكم ، وأعيد إليكم ، عند سقوط أنطاكية ، الحربة التي اخترقت جنب مخلصنا ، بل إنني اليوم عندما انطلقت مع بعض الآخرين للقتال خارج أسوار المدينة ، وقعت في يد اثنين من الفرسان ، وكدت أسحق في أثناء انسحابي . فدفعت مغتماً فاتر الهمة على صخرة ، وعندئذ ظهر لي القديس أندرو ورفيق له ، وأنا طائب نفس ما أزال أرتجع من العذاب والمخاوف ، وحذراني من مزيد من الهموم إذا لم أسرع بتسليمكم الحربة » .

وعندما طلب الكونت والأسقف تفاصيل عن طبيعة المكتشفات وتعليمات القديس أندرو رد البروفنسالي قائلا :

« أثناء الحصار الفرنجي لأنطاكية في زمن الهزة الأرضية الأولى ، اشتد بي الرعب ولم أعد أنطق إلا بقولي « أغثني يارب » . كنت وحدي في الفراش في كوخي ، دون أصدقاء يبثون الطمأنينة في قلبي ، كان الظلام مخيفاً ، وكما قلت ، فإن الصدمات استمرت لوقت طويل مما زاد من قلقي ، وفي هذه اللحظة ظهر لي رجلان في ملابس زاهية ، كان لأكبرهما شعر أحمر يتخلله البياض ، ولحية كثة بيضاء عريضة ، وعينان سوداوان ، ومظهر لطيف ، وكان متوسط القامة . وكان رفيقه أطول منه و « أجمل هيئة من أبناء البشر » . وسألني الرجل الأكبر « ماذا تفعل ؟ » ، كنت وحيداً ، وشعرت بالرعب . فقلت بصوت مرتعش :

« من أنت ؟ » . فقال : « قم . لا تخف واستمع إليّ . إنني أندرو الرسول . فلتجمع الأسقف لي بويه وكونت سان جيل وبطرس ريموند من هوت بول Hautpoul (١) . واسألهم ، لماذا لا يعظ أدهيمار بالكلمة ، ويحث الناس ويباركهم بالصليب الذي يحمله كل يوم ؟ إن هذا سيكون بركة كبيرة لهم بكل تأكيد » .

ثم أمرني قائلا : « إنهض وسأكشف لك عن مكان حربة أبينا التي يجب أن تعطيها للكونت لأن الرب قد جعلها له عند مولده » .

« فتركت فراشي وأنا في رداء نومي فقط ، وتبعته إلى داخل أنطاكية حيث كنيسة الرسول بطرس المبارك عن طريق الباب الشمالي ، والذي كان المسلمون قد بنوا أمامه مسجدا . وكان هناك مصباحان في الكنيسة يضيئان المدخل كما لو كنا في منتصف النهار . ثم إن أندرو أمرني قائلا : « إبق هنا » . ثم أمرني بأن أقف بجوار العمود الذي كان قريبا من الدرجات الجنوبية المؤدية إلى الهيكل بينما بقي رفيقه على مسافة من درجات الهيكل . مد القديس أندرو يده تحت الأرض ، وسحب الحربة ووضعها بين يدي » .

« ثم وجه القديس أندرو حديثه إلي قائلا : « انظر إلى الحربة التي اخترقت جنب المسيح ، والذي كان السبب في خلاص العالم » .

« وبينما جرت دموع الفرح على وجهي . قبضت على الحربة وخاطبت القديس أندرو وأنا مجهش بالبكاء ، « إذا كنت تريد ذلك فدعني آخذها من الكنيسة وأضعها بين يدي الكونت » .

« وأجاب القديس أندرو : « انتظر إلى بعد الاستيلاء على المدينة ، ثم عد ومعك إثنا عشر رجلا ، وابحث عن الحربة في نفس المكان الذي كشفت عنها فيه وسأخفيها الآن » . ودفنها في الموضع ذاته . وبعد هذا انسحبت ، فأخذني من فوق أسوار المدينة إلى كوخي ثم اختفى بعد ذلك » .

« وباختصار ، فإنني لما تأملت في حالتي الرثة وعظمتك لم أجرؤ على

المجيء إليك . وبعد ذلك ، وبعد أن رحلت إلى قلعة قريبة من الرها بحثا عن الطعام ، وفي اليوم الأول من الصوم الكبير عند صياح الديكة ، أتاني القديس أندرو في نفس الهيئة ومع رفيقه السابق ، وسألني وقد غمر البيت نور عظيم : « هل أنت نائم ؟ » (١) .

وأيقظتني كلماته فأجبت « لا ياسيدي ومولاي أنا مستيقظ » .

« وسألني « هل أبلغت رسالتي الأخيرة ؟ » فأجبت : « سيدي ، ألم أتوسل إليك أن ترسل شخصا أكثر جدارة إليهم ، لأنني خشيت من حالتي الرثة فلم أجرؤ على الشروع بإبلاغهم ؟ » .

فسألني مرة أخرى : « ألا تعرف السبب الذي من أجله قادك الرب إلى هذا المكان ، وحبه الكبير لك ، واهتمامه الخاص باختيارك ؟ لقد خلقك هنا لكي يعيد اختياره ويختار من يختارهم . إن حبه لك كبير جدا لدرجة أن القديسين يرقدون الآن في سلام وهم مدركون لنعمة الرعاية الإلهية ، ويودون لو عادوا لحما ودما ، ويشتركوا في جهادك . لقد اختارك الرب من بين كل الناس كما تجمع حبوب القمح من بين الشوفان ، لأنك تقف فوق كل من جاءوا من قبل ، أو من سيأتون بعدك في جدارتك وبركتك كما يفوق ثمن الذهب ثمن الفضة » .

« وبعد رحيلهم وقعت فريسة لمرض هدد بصري حتى أنني بدأت أتخلص من مرضي المحدودة عندما استنتجت فجأة أن هذه الأمراض قد حلت لعصياني أوامر الرسول . وهكذا عدت الطمأنينة إلي فعدت إلى الحصار . وفكرت مرة أخرى في حالتي الرثة ولم أقل شيئا لأنني خشيت إذا ما أخبرتكم أن تصيحوا بأنني رجل يتصور ويحتكم بهذه الحكاية من أجل الحصول على الطعام . وبعد فترة من الوقت كنت أستريح مع سيدي وليام بطرس في خيمة في ميناء سان سيمون عشية أحد السعف عندما ظهر لي أندرو المبارك في نفس هيئته السابقة ، ومع رفيقه السابق ، وقال لي : « لماذا لم تسلم رسالتي إلى ريموند وأدهيمار ؟ » (١) .

فأجبت قائلاً : « يا سيدي ألم أتوسل إليك أن ترسل بديلاً أذكى مني . يعبأ به . كما أنه يجب أن تعرف أن الأتراك يقتلون أي شخص يسلك الطريق إلى أنطاكية » .

« وهنا رد القديس أندرو : « لا تخف فلن يؤذيك الأتراك . ولكن أبلغ الكونت ألا يغطس في نهر الأردن عند وصوله ، بل عليه أن يعبر النهر أولاً في قارب ، وعندما يصل إلى الجانب الآخر ، يرش على نفسه الماء وهو مرتد قميصاً وسراويل من الكتان . وبعد ذلك يحفظ ملابسه المجففة مع الحربة المقدسة » . ويمكن لسيدي وليام بطرس أن يشهد بصحة هذا الحديث رغم أنه لم ير القديس أندرو » [5] .

« فاطمأننت وعدت إلى المحاصرين لأنطاكية ولكني لم أستطع أن أحدثكم كما وعدت . وهكذا ذهبت إلى ميناء المصيصة . وهناك ، وبينما أنا أنتظر [illegible] عبوري لأبحر طلبا للتزود من قبرص ، واجهني القديس أندرو بتهديدات خطيرة إذا لم أعد إلى أنطاكية وأعيد عليك تعليماته [6] . وعندئذ رأنا أفكر في طريق السفر الذي سيستغرق ثلاثة أيام من المصيصة إلى معسكر الصليبيين ، بدأت أبكي بشكل هستيري لأنني أدركت أن ذلك كان مستحيلا . وأخيراً وبناء على إلحاح سيدي وزملائي ، أبحرنا وجدفنا ليوم كامل والريح تساعدنا حتى غروب الشمس . عندما هبت عاصفة فجأة وأعادتنا إلى المصيصة خلال ساعة أو ساعتين . وهكذا بعد أن حيل بيننا وبين المضي إلى قبرص ثلاث مرات ، عدنا إلى ميناء سان سيمون حيث مرضت مرضاً شديداً . ولكن بعد الإبلال على أنطاكية أتيت إليكم وأنا الآن أقدم شهادتي لتقبلوها . »

واعتبر الأسقف هذه القصة زائفة ، ولكن الكونت صدقها في الحال ووضع بطرس بارثولوميو في حراسة قسيسه ريموند (المؤرخ) .

وفى الليلة التالية تجلى سيدنا يسوع المسيح لكاهن يدعى ستيفن كان يبكى وهو ينتظر الموت له ولأصدقائه [7] . فقد أصابه الرعب عندما أبلغه بعض

الهاربين من القتال عند القلعة بنزول الأتراك من الجبل وهروب الصليبيين وانسحابهم بغير نظام . وقبل موته التي ذكرها دخل ستيفن – رغبة منه أن يشهد الرب عليه – كنيسة مريم المباركة ، واعترف ونال الغفران لذنوبه ، وبدأ يرتل التراتيم مع أصدقائه ، وظل يصلي بالليل بينما نام الآخرون ، وهو يردد « ياسيدي ، من سيعيش في بيتك ؟ من سيجد الراحة على جبلك المقدس ؟ » [8] .

في هذه اللحظة ظهر رجل وسيم ليس كهيئة البشر ، وسأل ستيفن : « من دخل أنطاكية ؟ » .

ورد ستيفن « المسيحيون » . فسأل الرجل : « بم يؤمن هؤلاء المسيحيون ؟ » . وأجاب الكاهن . « إنهم يؤمنون بأن المسيح قد ولد من العذراء مريم ، وتحمل الآلام على الصليب ، ومات ، ودفن ، ثم قام من القبر في اليوم الثالث ، وصعد إلى السماء » . فسأل الرجل : « وإذا كانوا مسيحيين ، فلماذا يخافون جموع الوثنيين ؟ » ، واستطرد قائلا : « ألا تعرفني ؟ » .

فأجاب الكاهن ستيفن : « أنا لا أعرف إلا أنك بالغ الجلالة » . وهنا طلب منه رجل « انتبه لي جيداً » .

« وعندما رآه ستيفن من كثب ، رأى شكل صليب يخطف الأبصار أكثر من الشمس يظهر توهجها فوق رأسه . وهنا رد الكاهن على الرجل الذي كان يسأله « يا سيدي . إننا نسمي الصور التي تشبهك في مظهرها صور يسوع المسيح » [9] .

وواصل السيد حديثه قائلا : « لقد نطقت بالصواب لأنني يسوع المسيح ، أليس مكتوباً أنني السيد القوي القادر في المعارك ؟ هل لي أن أسأل من هو [illegible] » .

ورد ستيفن قائلا : « يا سيدي .. ليس لديهم قائد واحد ، ولكننا نثق في أدهيمار أكثر من الآخرين »

فأمرنى المسيح : « أبلغ الأسقف أن هؤلاء الناس بأعمالهم الشريرة قد أبعدونى عنهم . ولهذا فإنه ينبغى أن يقول لهم : « ابتعدوا عن الخطيئة وسأعود إليكم » [10] . وفيما بعد عندما يذهبون للقتال سيقولون « لقد تجمع أعداؤنا وتباهوا بقوتهم ، فحطم قوتهم يارب واهزمهم حتى يعرفونك يا إلهنا ، حارب معنا وحدنا » [11] وبعد هذه التصليات ، ستكون رحمتى معكم لو اتبعتم أوامرى خمسة أيام » .

وبينما هو يتكلم اقتربت امرأة ، هى مريم أم يسوع المسيح ، وقد أحاطت بوجهها هالة باهرة ، ونظرت نحو السيد وسألت : « ماذا تقول لهذا الرجل ؟ » .

فرد المسيح على مريم : « لقد سألت عن الناس الذين هم فى أنطاكية » .

فأجابت السيدة : « آه ! ياسيدى ! إنهم مسيحيون يكونون دائماً فى صلواتى لله » .

وعندما أيقظ الكاهن رفيقه النائم على مقربة ليشهد الرؤيا ، اختفى المسيح ومريم من أمامه . وفى الصباح التالى صعد ستيفن التل فى مواجهة البرج التركى حيث كان أمراؤنا ينتظرون ، باستثناء جودفرى الذى كان يحرس حصن الجبل الشمالى ، وأبلغهم ستيفن فى اجتماع عقدوه برؤيته المذكورة . وأقسم بالصليب على صحتها وأعرب أخيرا عن استعداده لاختراق النار أو إلقاء نفسه من أعلى برج إذا لزم الأمر لإقناع من لا يصدقونه .

وإزاء هذه الوقائع اعتقدت الجموع أن الأمراء كانوا يرغبون الآن فى الهروب إلى الميناء ، وأن قلة منهم فقط من راسخى الإيمان لم تكن تفكر فى الهرب أثناء الليلة السابقة . فأقسم الأمراء أنهم لن يهربوا ولن يتخلوا عن أنطاكية إلا بناء على قرار مشترك ، وهكذا اطمأن الكثيرون وحتى ذلك الوقت فإن إغلاق أبواب أنطاكية بناء على أوامر بوهيمند وأدهيمار منع الجلاء الكامل عن المدينة ، ورغم كل الاحتياطات فقد هرب وليام أوف جرانت مسنيل مع أخيه وعدد كبير من رجال الدين والعوام . إلا أن الكثيرين ممن هربوا من المدينة معرضين أنفسهم لأخطار شديدة ، واجهوا خطرا أكبر هددهم بالموت من رجال كربوغا .

وانتشرت قصص التجليات التى تظهر لزملائنا . ورأينا نحن أيضا إحدى العجائب فى السماء ، فقد رأينا نجماً كبيراً معلقاً فوق أنطاكية لوقت قصير ، ثم تفتت إلى ثلاثة أجزاء وسقط داخل المعسكر التركى . وتشجع الصليبيون إلى حد ما وترقبوا بلهفة اليوم الخامس الذى أعلن عنه الكاهن . وفى ذلك اليوم ، حمل اثنا عشر رجلا ومعهم بطرس بارثولوميو الأدوات اللازمة ، وبدأوا يحفرون فى كنيسة بطرس المبارك ، بعد أن أبعدوا كل المسيحيين الآخرين . وكان من بين الاثنى عشر أسقف أورانج وريموند أجيل ، كاتب هذه السطور ، وريموند سان جيل ، وبونز أوف بالازون وفارالد أوف ثوارز [12] .

وظللنا نحفر حتى المساء ، ويئس البعض من إخراج الحربة من تحت الأرض . وفى هذه الأثناء ، وبعد أن ذهب الكونت لحراسة القلعة ، أقنعنا عمالاً جدداً بأن يحلوا محل الحفارين الذين تعبوا ، وحفروا بجد شديد ، ولكن بطرس بارثولوميو المتلهف شوقاً عندما رأى الإرهاق قد أخذ من رجالنا كل مأخذ ، تجرد من ملابسه الخارجية ، ونزل فى الحفرة حافى القدمين وليس عليه إلا قميص ، ثم توسل إلينا أن نصلى لله ليعيد حربته إلى الصليبيين ، ليجلب لشعبه القوة والنصر . وأخيراً أظهر لنا الله برحمته المباركة ، حربته وقبلت ، أنا ريموند مؤلف هذا الكتاب ، سن الحربة عندما برزت من الأرض . ولا أستطيع أن أصف السعادة والابتهاج اللذين غمرا أنطاكية . ولكن يكفى أن أذكر أن الحربة قد اكتشفت فى اليوم الثامن عشر قبل اليوم الأول من يوليو (١٤ يونيو) .

وفى الليلة التالية وقف أندرو المبارك أمام الشاب الذى كشف عن الحربة وقال له : « أنظر ! إن الله قد أعطى الحربة للكونت . وفى الحقيقة ، أنه قد حفظها له وحده عبر العصور ، كما جعله قائداً للصليبيين ، على شرط أن يكرّس نفسه لله » .

وعندما طلب بطرس بارثلميو الرحمة للمسيحيين ، أجاب أندرو المبارك :
« حقاً أن الرب سيكون رحيماً بشعبه » .

ومرة أخرى سأل بطرس زائره الليلي عن اسم رفيقه : « من كان الشخص الذي رأيته بصاحبك يكتمل متنكراً ؟ » . وقال أندرو المبارك : « اقترب وقبّل قدمه » . فاقترب البروفنسالي ورأى ما بدا أنه جرح حديث ودام في قدمه ، وعندما تراجع بسبب ذلك المنظر الدموي ، أمره أندرو المبارك : « أنظر إلى الأب الذي سُمّر على الصليب من أجلنا ، وتحمّل منذ ذلك الوقت هذا الجرح . فضلاً عن ذلك فإن الرب يأمرك بالاحتفال بتاريخ اكتشاف حربته ، في ثامن أيام العيد من الأسبوع القادم . لأن استخراج الحربة وقت صلاة المساء يمنع الاحتفال في ذلك اليوم ، وبعد ذلك فإنك ستحتفل كل عام بيوم اكتشاف الحربة » . . . « ثم أبلغ المسيحيين بأن يكبحوا جماح أنفسهم كما تعلمهم قراءة رسالة أخي بطرس (كانت هذه الرسالة تعلم : « تواضعوا تحت يد الرب القوية ») »[٩٤] . كما أن الكهنة سيترنمون كل يوم بالترنيمة التالية "Lustra sex qui jam peracta tempus implens corporis" . وعندما يصلون إلى قولهم " Agnus in cruce levatus immolandus stipite " بأنهم يجثون على ركبتيهم ويختمون مختتم الترنيمة »[٩٥] .

وفيما بعد ، عندما استفسرنا أسقف أورانج وأنا ، من بارثولوميو ، عما إذا كان يعرف خدمة القداس الكنسي ، فإنه - إذ أنسا منه أن الإجابة بالإيجاب لن تقابل بالتصديق أجاب « أنا لا أعرفه » . ورغم أنه كان يعرف بعض الطقوس فإنه كان مرتبكاً جداً حينئذ ، لدرجة أنه لم يتذكر القداس الكنسي ، أو يذكر بالمرة ما تعلّمه منها باستثناء Pater Noster, Credo in Deum, Magnificat, Gloria in excelsis Deo, Benedictus Dominus Deus Israel ونسي كل ماعدا ذلك تماما ، ولم يتذكر إلا فيما بعد عدة كلمات وبصعوبة[٩٦] .

(١) الفلاح البروفنسالي هو بطرس بارثلميو Peter Bartholomew . ويعير ريمونداجيل القصة الخرافية الخاصة إحساساً أكثر مما أعارها المؤرخون الآخرون . وقد أشرنا في كتابنا Raymond IV, Count of Toulouse, p. 109, n. 3 أن المؤلف شرع في رواية مرجزة ويضيف إليها التفاصيل اللازمة لرواية صحيحة عن مثل هذه المعجزة ، ويحاول الأحداث مع المعجزات ليلبس روايته ثوب الحقيقة . ونعتقد أنه اختلق معظم الرواية ولبس الراوي الساذج نفسه (بارثلميو) . وقد ألقى المؤلف برقاقة من الكلمات التي وردت في المزامير مثل انتظر Expecta وانظر Vigilante ورفي مسيحيا على القصة كلها . ولا يتردد المؤرخ في أن ينقل عبارات كاملة ليحرك روايته ، وعلى سبيل المثال : « وأجمل شكلاً من أبناء البشر » نفس العبارة مأخوذة من (Psalm, 44 : 3) . وعبارة « لا تخف » مأثورة ومأخوذة من سفر الخروج .

انظـــــر : Exodus, 20 - 20.

راجع أيضا : Steven Runciman, The Holy Lance Found at Antioch, in AB, 68, 1950

ومن المفترض أن يكون بطرس بارثلميو قد روى قصته في ١٠ يونية ١٠٩٨ م .

انظـــــر : Hagenmeyer Chr., 277.

وقد وقعت الهزة الأرضية في الفترة ما بين ٣ ديسمبر ١٠٩٧ م وأول يناير ١٠٩٨ م .

- من هنا وحتى نهاية كتاب ريمونداجيل ، تكتسي عرض المؤرخ على سرد كل الرؤى التي يحدثها له - أو لغيره - أشخاص مجهولون ، وفي الحقيقة لم نجد أية قيمة تاريخية لهذه الرؤى . إذ إنها تضطر القارئ إلى أن يسترجع الأحداث التاريخية السابقة عليها إلا ما قام المؤرخ بتوقيفه عند الرؤيا واستئنافه للحدث التاريخي الأصلي - وهذا يؤدي إلى الاضطراب في سياق الأحداث .

وفي نفس الوقت ، فإن تشككه في صحة هذه الرؤى ، الذي أبداه من استمعوا إلى أصحابها من المعاصرين ، قد تحوّل إلى عدم الأخذ بصحتها بالمرة من قِبَل المؤرخين المحدثين . وهذا أمر طبيعي وقد يعزى الأخذ بمثل بطرس بارثلميو كل من المندوب البابوي أدهيمار الذي من المفترض أنه يمثل الجانب الروحي في الحملة الصليبية ، ورأى مثل هذه الرؤى . خاصة إذا ما تمثل فيها المسيح عليه السلام وبعض حوارييه لرائيها ،

تقوى جانب الكنيسة ومركز أدهيمار نفسه . كما رفض الأخذ بها كل من شكوا به وكثيرين من قادة الحملة ، وحتى ريموند كونت تولوز الذي جعله بارثلميو جزء من رؤياه . هذا بالرغم من محاولة بارثلميو – أو المؤرخ نفسه – إخافة كل من يتشكك في صدق روايات عما أصاب أدهيمار ، في رؤيا أخرى ، بجعله يتلظى نار الجحيم لتشككه فيه .

وإذا كانت حجتنا قبيل بحث أية قضية تاريخية نتناولها بالتحليل والدراسة ، هي النصوص التاريخية – المعاصرة بالدرجة الأولى – فإن ما يهمنا في هذا المقام هو عرض آراء مؤرخي الحملة الصليبية الأولى بشأن هذه الرؤى ، وبشأن صاحبها أيضا . حيث يؤكد ريموند داجيل ثقته في صحة هذه الرؤى خاصة وأنه مرافق البروفنسالي بارثلميو . نجد مؤلف الجستا يورد رواية الحربة في ثلاثة أسطر دون ذكر لأي اسم ، كما أوردها ريموند داجيل دون أن يدلي فيها برأي . بينما تشكك فولشر أوف شارتر في حقيقة الحربة ويعتقد أن بطرس بارثلميو كان كاذبا ودليله على ذلك أن بطرس احترق أثناء اختبار النار الذي مر به وعرف الناس ، أنه كان مذنبا ، لأن جلده احترق ، وعرفوا أنه أصيب بأذى لبث ، وقد اتضح هذا بعد ذلك . فقد توفي في اليوم الثاني عشر ، وزودي بالذنب الذي ارتكبه . انظر : Fulcher of Chartres, op. Cit., p. 101
كما يعتقد فولشر أيضا أن بطرس دفن الحربة بنفسه ولم يعثر عليها ، وعند حديثه عنها أخفيت تحت الأرض سرا ... "... lanceam fallacitas occultatam foderat"
انظر : MPL, Vol. CLV, 843

أما رادولف أوف كان ، فلم يخف تشككه في بطرس وفي رؤياه نفسها ، وكان بطرس بارثلميو هو الشخص الوحيد لرادولف كي يظهر كرهه للبروفنساليين بصفة عامة ، وجعل هذا بطرس يحقق رؤيا أخرى أثناء حصار عرقة فقد ارتكب فولشر والنورمان ... في أمر الحربة المقدسة . كما أكد رادولف تشككه فيها وغضبه لبارثلميو
أما عن قادة الحملة . فقد أظهر كونت تولوز إعتقاده في صحتها . ثم ما لبث أن أبدى ارتيابه فيها إذا كانت رؤى بطرس لأمور مشكوكة . أما بوهيمند ، فبالرغم من أن بطرس بارثلميو لم يرى أنه نسب من تسامح لبوهيمند باستيلاء أنطاكية ، وذلك بعد وفاة أدهيمار ببرهين ، فإن بوهيمند أعلن إحداثه وتشككه في أن يظهر المسيح أو القديسين لرجل فاسق مثل بارثلميو ، أعتاد ارتياد الحانات والتسكع في الطرقات ... وكما يتساءل بوهيمند أمام جموع الفرنج عن أي من المؤرخين قد كتب ... =

= الحربة التي طعن بها المسيح قد وصلت إلى كنيسة بطرس في أنطاكية ، إلى جانب الكثير من الحجج التي قدمها بوهيمند دليلا على تلفيقات بطرس بارثلميو والتي أوردها بالتفصيل رادولف أوف كان .
انظر : Radulf of Caen, p. 678
أما عن جموع الجيش الصليبي ورجال الدين فيه فكان من الطبيعي أن يثق البروفنساليون منهم بروايات بطرس بينما أبدى نورمان الشمال وبقية الجيش توجسهم من بطرس ورؤاه .
ومهما يكن من أمر فإن روايات بطرس بارثلميو ورؤاه لم تكن إلا وسيلة لريموند داجيل لإبراز الدور البروفنسالي في الحملة الصليبية ، وهو كرجل دين ، فقد عمل جاهدا على إثبات أن المشروع الصليبي كان من عمل الرب وإرادته Deus Volt دون أن يجرؤ أن يتفحص في الأحداث التي شملها كتابه – مثل كثير غيره من مؤرخي الحملة الأولى – بالعلاقات التي سادت بين قادة الحملة وتضمنتها صفحات كتابه . وأن سلوك الفرنج وصلافتهم مع خضوعهم البعض على معايير المادة وأربحة وتسجيل هاما التي عاشوها في بلاد الشام . إلا تثبت أن هذا المشروع الصليبي لم يكن من عمل الرب ولا هي إرادته Deus Volt . انظر :
Gesta Francorum, p. 57 - 60; Fulcher of Chartres, pp. 99 - 100. C.F. also, Runciman, The Holy Lance Found at Antioch, in AB, Vol. 68, 1950
(الترجمة لعربية)

(٢) كان بطرس ريموند أوف هوتبول Peter Raymond of Hautpoul (Alan Pulto) تابعاً لكونت تولوز وتقع القلعة التي تحمل اسمه في دولة لانجو Lantar بالقرب من حدود نابلس Narbonne وكركاسون Carcassonne . وكان لبطرس ريموند دوراً بارزاً في حصار أنطاكية ، ومات في حمص العشرة التي مات فيها أدهيمار تقريبا . ومن الطريف أنه تم دفن بطرس أمام بوابة كنيسة القديس بطرس في أنطاكية ، انظر :
HGL, 3 , p. 317, 5 , p. 692, Tudebode, Historia, RHC, H. Occ., 3, p. 77

(٣) الرها حصن العائل الأرمنية ، وكانت في أيدي بلدوين ، شقيق جودفري .

(٤) وليم بطرس William Peter عرفه انسبان كأحد الحجاج المسيحية .

(٥) يقرر المؤرخ في وقت لاحق أنه لم يفهم لماذا أبلغ بطرس بارثلميو هذه التعليمات لكونت تولوز، وربما أضاف المؤرخ هذه المعلومة ليجعل قصته تبدو أقرب إلى الحقيقة. انظر: Ezechiel 44 : 17 - 19 وربما أوحت هذه الأسطر بطريقة ملابس رفيقه عند نهر الأردن

(٦) كانت قبرص بمثابة نقطة إمداد للصليبيين، وكانت معروفة لهم جيدا.

* وعن دور قبرص في الحروب الصليبية انظر، سعيد عاشور، قبرص والحروب الصليبية. القاهرة، ١٩٥٧م

(المترجمة العربية).

(٧) في بعض الأحـــــــاديث يسمى ستيفن باسم ستيفن فالنتين Valentine ومن المحتمل أنه تسمى من فالنس Valence وكان يظهر في رؤى عدة

(٨) يكرر المؤرخ على لسان ستيفن «من سيمشي في يمينك؟ من سيصعد الراحة على جبل المقدس؟». وهنا ما يرد كلمة بكلمة من العهد القديم. انظر Psalm 24 : 3 ويعتبر رواية ستيفن ممارسة منحرفة في إحياء الأسطر. والمؤرخ حاذق في هذه الرواية

(٩) يفسر لنا المؤرخ في هذا الموضع أوصافا لهؤلاء السائحين، تلك الأوصاف التي قام باقتباسها من النص ... في عهد ... وصفها ... ليس ... الشعر ... يشير إلى المسيح، وأنه ... الرجال ... بطرس ذلك انظر

Saint Augustine, De Civitate Dei, MPL 41, Col. 588 ... Cf. also Louis Réau, Iconographie de l'art chrétien, Paris 1955

(١٠) التعليمات التي تقول ... من العهد القديم ... Proverbs ...

(١١) والتعليمات التي صدرت إلى الصليبيين لتولوز ... انظر

Eustathius ...

(١٢) كان ... of Grand Mesnil ... وهو من ... التي تقع ... ١١ يونية ١٠٩٨م انظر Hagenmeyer, Chr. 271

(١٣) جاء فارالد تراورز Farald of Thouars من مدينة ثوارز التي تقع إلى الشمال الغربي من بواتييه Poitiers. وقد ذكر مؤلف الجستا أن ثلاثة عشر رجلا قاموا بالحفر للعثور على الحربة المقدسة. ولم يحص ريموند أجيل بطرس بارثلميو، وفضل استخدام الرقم ١٢، ربما نسبة إلى الإثني عشر حواريا. وقد تم العثور على الحربة في يوم ١٤ يونية ١٠٩٨م انظر Hagenmeyer, op. cit., 264

(١٤) يبين المؤرخ هنا باعتماده على رسالة بطرس «تواضعوا تحت يد الرب القوية» انظر: I Peter, 5 : 6

(١٥) لم نشأ ترجمة البيت الشعري Lustra Sex. وهذا البيت من شعر فينانتيوس فورتوناتوس، ولم يستخدم ريموند أجيل من هذا الشعر سوى أجزاء فقط. ويعتقد أن النص اللاتيني، كما هو، أصلح من أي ترجمة.

* ولد فينانتيوس هونوريوس كليمنتانوس فورتوناتوس

Venantius Honorius Clementianus Fortunatus

(٥٣٠ - ٦٠٠م) بالقرب من مدينة Treviso بشمال إيطاليا، وتلقى تعليمه في مدينة رافنا. وفي عام ٥٦٥م رحل إلى فرنسا وعاش في مدينة بواتييه Poitiers حيث صار أسقفا. وكشاعر يكتب في مختلف الموضوعات، كتب فينانتيوس قصائد في المسائل الدينية والدنيوية، كما صاغ بعض أعماله نثرا. ويعتبر فينانتيوس آخر الشعراء الرومان وأول شعراء العصور الوسطى. انظر:

Allen Hudson Williams, Venantius Fortunatus, in Oxford Classical Dictionary, p. 1112

وفي الحقيقة، فإنه من الصعب الحصول على معنى مستقيم للفقرات التي وردت هنا باللاتينية، إذا ترجمت إلى لغة أخرى، ويرجع ذلك إلى أن ريموند أجيل اقتبس فقرات غير كاملة من نشيد فينانتيوس، الأمر الذي يجعل المعنى غامضا إذا ما تم ترجمته. وعلى أية حال، فإن الفقرات المذكورة تشير إلى تحمل الصعاب والآلام في سبيل الرب، وإلى نبذ الرغبات التي تشغل الجسد، وإلى تمجيد الرب والتقرب منه وتبجيله.

(المترجمة العربية)

(١٦) كان بطرس بارثلميو جاهلا، لأنه لم يتذكر إلا جزءا من الصلاة «والمجد في الأعالي» Gloria in excelsis كجزء من القداس. وهنا تفسير لفلسفة الجهل

الفصل الثامن

هزيمـــــــة كربوقـــــــا

في تلك الأثناء ، أصبح الطعام نادراً جداً ، حتى أن رأس الحصان بدون لسان ، كانت تباع باثنين أو ثلاثة صولدى ، وأمعاء الماعز بخمسة صولدى ، والدجاجة بثمانية أو بتسع صولدى . وماذا يمكن أن أقول عن أسعار الخبز عندما يشتد الجوع بعد أكل ما قيمته خمسة صولدى ؟ . أما الأغنياء الذين يملكون الذهب والفضة والملابس ، فلم يكن غريبا عليهم ، أو مرهقاً لهم ، أن يدفعوا التكاليف الباهظة . هكذا فقد ارتفعت الأسعار لأن عساكر الفرسان الشريرة كانت تفتقر إلى الشجاعة المسيحية ، فكانوا يجمعون التين النيء ويطهونه ويبيعونه ويسلقون جلود الماشية ، والخيول ، والنفايات الصالحة للأكل ، ويبيعونها بأسعار مرتفعة جدا ، حتى أن أي انسان كان يمكنه أن يأكل كمية تكلفه صولدين . ولكن أولئك الفرسان ، الذين كانوا يتوقعون رحمة الرب ، رفضوا أن يذبحوا خيولهم ، وتحملوا بمعاناتهم .

وبينما كانت هذه المصائب وغيرها مما لانستطيع ذكره لما فيه من بؤس تقض مضجع المسيحيين ، فإن رجالنا لجأوا إلى المهادنة ، وأبطروا الأتراك بحالة البؤس التي تعيش فيها أنطاكية ، فأرادوا بذلك من عدونا ، وحفزت هذه الأنباء الأتراك إلى القيام بأعمال جريئة جعلتنا عرضة لتهديداتهم . ووقع أحدها في شهر أحد الأيام . فقد احتل نحو ثلاثين منهم أحد أبراجنا ، وظلوا لفترة من الوقت خائفة من الشعر . ولكن قواتنا التي تعرضت للخطر ، قاتلت بتأييد من الرب فقتل رجالنا بعض الأعداء ، وأبعدوا الآخرين من الشرفات . في ذلك الوقت وعد كل المشتبكين باتباع أوامر بوهيموند لمدة خمسة عشر يوماً بعد القتال ، بحيث يمكنه أن يسير أمر حماية أنطاكية ، ويضع خطط القتال . وكان سبب هذا القرار هو التهديد التركي ومرض الكونت ريموند وأدهيمار ، وهروب ستيفن أوف بلوا (١) وأذكركم بأن ستيفن ، رغم اختياره قائدا صليبيا قبل سقوط أنطاكية ، قد لم

هارباً نتيجة الشائعات بقرب وقوع المعركة . وكما ذكرنا فقد جاءتنا معونة السماء لتحيينا للمهزومين المثقلين بالهموم والأحزان ، عن طريق بطرس بارثولوميو . مكتشف الحربة . الذي كان يحدثنا النصح فيما نفعل قبل المعركة وأثنائها . فأخبرنا أن أندري المبارك قد أمرنا .

« أن الجميع قد أغضبوا الرب إلى حد بعيد ، فوقع عليهم العقاب . وأنت قد صمت للرب واستمع إليك الرب . فليهجر كل منهم الآثام ويتجه إلى الرب ويقدم خمس صدقات بحسب جروح الرب الخمسة . وإذا عجز عن ذلك فليردد « أبانا » خمس مرات Pater Noster . وبعد اكتمال تنفيذ هذه الأوامر ، ابدأوا المعركة باسم الرب ، نهاراً أو ليلاً ، وفقاً لخطة المعركة التي وضعها الأمراء ، لأن يد الرب ستكون معكم . ومع ذلك فإذا ارتاب أحد في نتيجة المعركة ، فلتفتحوا الأبواب ، وتدعوه يجري إلى الأتراك حيث سيشهد كيف يحميه إلههم [illegible] . وتثبت من الله ، فيمكن أي [illegible] على [illegible] ، مع جهدا . [illegible] يتخلى عن الرجل [illegible] .

« وبالصدق ، فجميعهم سيقدمون إلى المعركة . ويُبين بطرس المذكور ، متمسكين بوعد المسيح [illegible] وظهوره في [illegible] ، وادعهم يتقدمون إلى المعركة . لأن هذه الأرض ليست [illegible] ، بل تدخل في اختصاص القديس بطرس . ولكن صيحة الجميع ستكون : ساعدنا أيها الرب . وسوف يساعدكم الرب فعلاً . وستأتي معكم كل رفاقكم الذين ماتوا في سبيل الرب ، [illegible] قيادته [illegible] الأعداء ، [illegible] تقاتلون [illegible] . أسرعوا إلى المعركة حتى لا [illegible] الرب [illegible] من الأتراك [illegible] . حتى يأكل [illegible] . ولكن [illegible] إلى [illegible] الأيام التي [illegible] المسيح [illegible] قد جاءت ، الأيام التي سيطيح فيها [illegible] ويسحقها تحت قدمه ، [illegible] الإمارة المسيحية . ولكن لا تتحولوا إلى خيام الأعداء طلباً للذهب والفضة » .

ثم تجلت يد القدرة الإلهية ، والذي أمرنا بالأوامر المذكورة أعلن لنا عن طريق القديس أندرو ، ما شجع كل القلوب بالآمال والإيمان ، حتى أن كل مسيحي شعر أنه قد أحرز نصراً . تعاودت إليهم حماستهم للقتال عندما راحوا يشجعون بعضهم البعض . وأصبحت الجموع ، التي كان الخوف والفقر قد أصاباها بالشلل منذ عدة أيام فقط ، تتساءل عن السبب في تأخير المعركة وتتهم الأمراء . وبالتالي ، حدد الزعماء تاريخ المعركة ، ثم أرسلوا بطرس الناسك إلى كربوغا ، أتابك الموصل ، ومعه أوامر بأن يتخلى عن حصار أنطاكية ، لأنها كانت تدخل في نطاق اختصاص القديس بطرس والمسيحيين . إلا أن كربوغا المتغطرس ، أجاب بأنه سواء كان على حق أو خطأ ، فإنه يرغب في أن يصبح سيداً على المدينة وعلى الفرنجة ، وجعل بطرس الناسك يركع أمامه رغماً عنه [1] .

في ذلك الوقت ، ثارت مسألة اختيار بعض القوات لحراسة أنطاكية من الهجمات التي تتم من القلعة ، بينما تخرج قوات أخرى إلى ميدان القتال . وهكذا ، أقاموا سوراً حجرياً وتحصينات فوق تل يواجه العدو ، وحصنوها بالصخور ، وتركوا عليها حامية بها ريموند كونت تولوز ، الذي كان مصاباً بمرض خطير ، ومعه مائتان من الرجال . وأتى اليوم المحدد للمعركة . وتناول الجميع العشاء الرباني ، في ذلك الصباح . وخضعوا لإرادة الرب ، وحتى للموت إذا شاء الله . ولشرف الكنيسة الرومانية وجنس الفرنجة .

وبناء تنظيم القتال على أساس وجود طوابير مزدوجين من الـ[illegible] من قوات [illegible] ، مع مشاة في المقدمة ، حاملين أو يشكلون طبقاً لأوامر قادتهم ، ثم يتبعهم الفرسان كحرس مؤخرة . وسارت قوات بوهيمند بنفس النظام القتالي ، وكذا قوات تانكرد وكونت نورماندي ، والفرنجة ، والدوق والبرجنديين . وانطلق المنادون في أنطاكية يحثون كل رجل على القتال مع قائده . وكان نظام الزحف كما يلي : هيو العظيم ، وكونت الفلاندر وكونت نورماندي أولاً ، ثم الدوق والأسقف ، وأخيراً بوهيمند [2] . وبهذه الطريقة وقفوا في صفوفهم الفعلية تحت المدينة وأمام باب الجسر .

أو ! كم هي مباركة تلك الأمة التي يكون سيدها هو الرب ، والشعب الذي اختاره ليرثه !! وكم تغير مظهر هذا الجيش ، من حالة الكسل والتراخي ، إلى النشاط والحركة [41] . فقبل أيام قليلة ، كان القادة والنبلاء يسيرون في شوارع أنطاكية يسألون الرب العون ، وكان العامة يسيرون في المدينة حفاة ، وهم يصرخون ويضربون صدورهم ، وبلغ من بؤس هؤلاء المسيحيين أن الأب والابن ، والأخ وأخاه ، لم يكونوا يتبادلون التحية ولا النظرات وهم يمرون في الشوارع . ومع التغير المفاجىء في الروح ، صار المرء يرى المسيحيين يخرجون كجياد نشطة ، ويضربون بأسلحتهم ، ويلوحون برماحهم ، ويتحدثون في صخب بالسلوك والكلام ، ولكن لماذا نؤخر هذه القصة ! إن الرغبة في القتال كانت أمراً مقدوراً منه ، وخطط القادة كانت نُفذت

في الوقت نفسه وبينما كان كربوغا يلعب الشطرنج في خيمته ، فقد تواتر إليه أن الفرنجة كانوا خارجين للقتال . فاضطربت نفسه لهذا التحرك المفاجىء . واستدعى ميردالين Mirdalin وهو لاجىء تركي من أنطاكية ونبيل شجاع معروف وسأله : « ماذا يجري ؟ ألم تخبرني بأن [illegible] الأقل عدداً منا لن يقاتلوا أبداً لأن عدد الفرنجة كان صغيراً ! » .

ورد ميردالين على هذا السؤال قائلاً : « لا تقلق ، إنهم لم يتخذوا شيئاً من هذا القبيل . ولكن تمهل حتى أرقبهم وأخبرك إذا كان يمكنك التغلب عليهم بسهولة » .

وعندما تقدم الصف الثالث من صفوفهم ، استطاع ميردالين معرفتها وأبلغ كربوغا « أن المسيحيين سيهزمون قبل أن يهزموا » .

وسأل كربوغا جنوده : « ألا يمكن دفع بعض المسيحيين إلى الخلف قليلاً ؟ » .

ورد ميردالين « لو استطعت قتلهم كلهم ما تحركوا قيد أنملة » .

ورغم خوف كربوغا ، فإنه وضع جيشه العظيم في تشكيل قتالي ، وسمح للصليبيين أن يخرجوا من أنطاكية دون مضايقات ، رغم أنه كان يستطيع سد الطريق عليهم ، وخشية أن تتعرض قواتنا لتكتيكات الالتفاف من الخلف ، فإن قواتنا نقلت خطوطها القتالية نحو الجبال التي كانت تقع بعد ميلين كاملين من الجسر ، وتقدمنا في موكب يشبه تماماً موكب رجال الدين ، ولعلي أضيف ، أنه كان موكباً حقاً ، فسار الكهنة والكثير من الرهبان وهم يرتدون القمصان البيضاء أمام صفوف فرساننا ، وهم ينشدون ويطلبون العون من الرب وحماية القديسين . ومع ذلك فقد هاجمنا الأتراك وأطلقوا علينا سهامهم . ولكن كربوغا ، الذي لم يعد يتجاهل العروض المسيحية ، اقترح على قادتنا أن يقاتل خمسة أو عشرة من الأتراك نفس العدد من الفرنجة ، على أن يغادر الجيش الذي انهزم مخلفه من الفرسان ميدان المعركة في سلام .

وأجاب رجالنا : « لقد رفضت ذلك عندما أردناه ، ولكن لما كنا على استعداد تنفيذه فليقاتل كل إنسان في سبيل حقوقه » .

ولكن أوضحنا ، فقد كنا مصطفين على السهل عندما هاجمت كتيبة من الأتراك مؤخرتنا من خلفنا ، ومرتة من المشاة الذين داروا وقابلوا الهجوم بشجاعة . وعندما عجزت قوات الأعداء عن القضاء على المشاة ، أشعلوا ناراً حولهم حتى تحترق من لا يرهب السيف . ولما كانت الأعشاب بالغة الجفاف فقد جرى [illegible]

ومع خروج جيشنا من أنطاكية ، وقف الكهنة حفاة يرتدون الملابس الكهنوتية ، فوق الأسوار يبتهلون إلى الرب أن يحمي شعبه ويمنح الفرنجة نصراً يكون دليلاً على العهد الذي قطعه معه . إلا أننا عند التقدم من الجسر إلى الجبل ، قاتلنا قتالاً شديداً لإعاقة الأتراك عنا ، وفي هذه الأثناء ، اندفع الأعداء مهاجمين الذين كانوا منا في صفوف أدهمار ، ومع التفوق العددي فإنهم لم

يجرحوا [illegible] من رجالنا أو يطلقوا سهامهم علينا ، لاشك ، بسبب حماية الحربة المقدسة لنا . وقد كنت شاهدا على هذه الحوادث ، وحاملاً للحربة المقدسة . أكثر من ذلك فاذا كانت الشائعة قد انتشرت ، بأن هرقل حامل راية الأسقف ، قد أصيب في القتال . فليكن معلوما أنه أعطى رايته لشخص آخر وكان بعيدا عن صفوفنا .

ولما صار كل جنودنا خارج أنطاكية ، كوّن أمراؤنا ، كما ذكرنا من قبل ، ثمانية صفوف . ولكن ظهرت في صفوفنا خمسة أخرى . فصار عدد الصفوف بذلك ثلاثة عشر صفاً . ولن نمر مر الكرام على هذا الحدث الجديد بالذكر ، حيث أنزل الرب على المسيحيين المتقدمين للقتال ، مطرا خفيفا إبتهجوا لسقوطه فكانت قطرات هذا المطر تجلب لمن تشُمهم خفة وقوة ، حتى أنهم صاروا يحتقرون العدو ، وهاجموه كما لو كانوا قد تربوا على الطريقة الملكية ، وكان لهذا الوابل من المطر تأثير على خيولنا لايقل إعجازا ودليل ذلك انني أسأل ، أي حصان انهار قبل نهاية القتال ، رغم أنه لم يكن قد أكل إلا لحاء الشجر وأوراقه لمدة ثمانية أيام ؟ ولأن الرب قد أضاف جنوداً إلى جيشنا ، فقد تفوقنا عدديا على الأتراك رغم أننا كنا نبدو قبل ذلك أقل عدداً[2]

وعند اكتمال تقدمنا وتشكيلنا القتالي ، هرب العدو دون أن يمنحنا الفرصة للقتال ، ثم طاردتهم قواتنا حتى غروب الشمس ، وعمل الرب بشكل مدهش مع الرجال والخيول ، فلم يكن يشجع بعزق الرجال ، ولكن هذه الخيول التي لم تأكل منذ فترة ، والتي قادها أصحابها بعيداً عن العلف القليل ، إلى ميدان القتال ، تطارد أسرع الخيول التركية . وأعد الرب لنا حدثاً معجزاً آخر ، وهو أن المدافعين عن القلعة عندما رأوا هروب رجال كربوغا ، يئسوا واستسلم بعضهم بعد ضمان حياتهم ، بينما لاذ آخرون بالفرار على وجه السرعة . ورغم هذه المعركة الفظيعة الرهيبة ، فإن ثلة من الفرسان الأتراك قد هلكوا ، ومن ناحية أخرى فلم يضح بحياته أحد من المشاة ، فضلا عن ذلك فإن الغنائم كانت تضمن كل خيام الأتراك والكثير من الذهب والفضة ، والكثير من الأسلاب ، وكميات لا تقدر من الحبوب ، وأعداداً لا تحصى من الماشية ، والجمال . فذكرتنا بهروب السوريان في سامرة عندما كان صاع الدقيق والشعير يشترى بشيكل SHEKEL (٧) ، وقد وقعت هذه الأحداث في ليلة عيد القديس بطرس والقديس بولس ، وكان ذلك ملائما ، لأنه من خلال هذين الشفيعين المقدسين ، جلب الرب يسوع المسيح هذا النصر إلى كنيسة الحاج الفرنجية . حقاً لقد كان ربنا الرحيم هو الذي يعيش مع خدمه ويسكن معهم إلى أبد الآبدين .

• • • • •

هوامش الفصل الثامن

(١) كان ستيفن كونت بلوا وشارتر صليبيا عاقا . وكانت زوجته أديلا Adela إبنة وليم الفاتح - قد حثته على الاشتراك في الحملة الصليبية . وقد زال أثر هروبه والخزي الذي سببه بمصرعه في عام ١١٠٢م أثناء هجوم بلدوين الأول ملك بيت المقدس [١١٠٠ - ١١١٨م] الفاشل وفرسانه على القوات الفاطمية في الرملة . انظر :

James Brundage, An Errant Crusader Stephen of Blois, in Traditio, 16, 1960, pp. 380 - 395

(٢) بعث كربوغا مع بطرس الناسك بترجمان يدعى آرلوين Arluin لمساعدته في التفاهم مع [illegible] ، وذلك في ٢٧ يونية ١٠٩٨م / ٢٥ رجب ٤٩١ هـ . ولا نعرف ما هو كنه ما جرى على لسان كربوغا وبطرس . ويبدو أن الأخير حاول في أول الأمر اخافة كربوغا وتهديده بالكلام عن إمكانيات الصليبيين وأسلحتهم وتمسكهم بأنطاكية . وربما جرت اقتراحات بإجراء مبارزات فردية لحسم الأمر ، إلا أن السفارة الصليبية اصطدمت بعناد كربوغا الذي رأى أن يستسلم الصليبيون دون قيد أو شرط ، أو أن السيف هو الذي يحسم من تكون له الغلبة . انظر :

Albert d'Aix, p. 420, Gregory Bechada, chanson d'Antioche en provencal, French Trans. by Meyer, in AOL, vol. 2, pp. 496 - 498

ويذكر المؤرخ الانجليزي وليم مالمسبري أن كربوغا رفض الرد على بطرس واستمر في لعب النرد ، وعبّر على لسانه وصرف بطرس كما جاء . انظر :

William of Malmesbury, Gesta Regum Anglorum, 2 vols. ed. W. Stubbs, in RS, London, 1889, vol. 2, p. 419.

[الترجمة العربية] .

(٣) مصرع هيو Hugh de Crezi ابن هنري الأول ملك فرنسا ويعرف بكونت فيرماندوا . واشترك أيضا في حملة ١١٠١م . وكما جاء في بعض الروايات ، فقد لقي حتفه في طرسوس لإصابته بسهم جرحه جرحا قاتلا .

(٤) يصف معركة الصليبيين المتحيزة بعبارة « أنه كما هي معاركة تلك الأمة التي

= وفي الحقيقة ، فقد حل النشاط محل التراخي ، ولم يتردد ريموند اجيل في استخدام معلوماته عن التصرف السيء الذي سلكه الفرنج في هذه اللحظة . كما يجد أيضا التهاون جعل كربوغا مضطرب النفس وهو يلعب النرد

(٥) لم يتم التعرف على من يحمل لقب ميرالدن Mirdalin من رجال كربوغا . وربما كان في الاسم تحريفا لاتينيا على الكلمة الفرنسية القديمة أميرال Amiral ، من كلمة أمير العربية . ولقد نصح ولاب بن محمود وهو قائد عربي ، نصح كربوغا بأن يقتض على الفرنج بمجرد خروجهم من المدينة . واختار كربوغا أن يهاجمهم جميعا دفعة واحدة على أمل أن يحقق نصرا كاملا .

- ربما اغتر كربوغا بضخامة قواته حيث أمر كاتبه أن يرسل إلى الخليفة العباسي والى السلطان السلجوقي يخبرهما بحصاره للفرنج ، ويؤكد انتصاره عليهم ، وربما أكد له فكرته هذه ما سمعه عما سببته المجاعات للفرنج من متاعب . انظر : ابن الأثير .

راجع أيضا :

[illegible] Baldrici III. Historia Nicaenae vel Antiochenae Prologum, in RHC . H. Occ . vol 5, p 163

(الترجمة العربية) .

(٦) لم يكن وصف ريموند اجيل للمعركة ثريا بالمعلومات التاريخية . ويحصل المؤرخ أن يكتب عن مواكب الفضائل الصلبة مقارنا إياها بالمواكب الكهنوتية ، ويستحضر نجدة القديس كأثر نافع في المعركة ، ولم يقاوم نفسه في جعل المطر تخفيف التعب بسقوطه على الصليبيين . وهرقل هو فيكونت بوليجناك Polignac وهو الأخ الأصغر لبونز . ومسيرة بوليجناك تقع بالقرب من لي بوي مقر أسقفية أدهيمار ، ولقد صرح بونز وهرقل بإصلاحات أدهيمار

(٧) يذكرنا انتصار الصليبيين بهروب السريان في السامرة ، وهذا التشبيه مقتبس من Liber Quartus Regum
سفر الملوك ، انظر
ولقد وقعت المعركة في صباح يوم ٢٨ يونية ١٠٩٨ م / ٢٦ رجب ٤٩١ هـ

الفصل التاسع

موت أدهيمار والإبلاغ عن بطئ

في أعقاب الانتصار استولى بوهيمند ، والكونت والدوق ، وكونت الفلاندر على القلعة من جديد ، ولكن بوهيمند أضمر شرا دفعه إلى الإثم . فاستولى على الأبراج العالية ، وطرد بالقوة أتباع جودفري وكونت الفلاندر وكونت سان جيل من القلعة متعللا بأنه كان قد أقسم للتركي الذي سلمهم أنطاكية أنه هو فقط الذي سيمتلكها (١) . وتشجع بوهيمند بهذا العمل الذي مر دون عقاب ، فجاء يطالب بالقلعة وبأبواب أنطاكية ، التي كان يحميها ريموند وأدهيمار وجودفري من أيام حصار كربوغا . واستسلم الجميع باستثناء الكونت . فرغم حالة الضعف التي كان عليها ريموند فإنه لم يشأ أن يتنازل عن باب الجسر ، ولم تثنه عن عزمه الصلوات ، والوعود ، والتهديدات .

ويثير قادتنا بسبب الصراع الباطل الذي قوض أسس العلاقات الودية ، بحيث أن قلة فقط هي التي كانت تتجنب النزاعات مع الزملاء ، أو الحسد على السرقة أو العنف ، وفي غيبة قاض يمكنه أن يناقش القضايا ، فإن كل شخص أصبح قانونا في حد ذاته . وفي هذه الظروف لم يكن الكونت المريض والأسقف يقدمان حماية كبيرة لأتباعهما . ولكن لماذا نشغل أنفسنا بمثل هذه التفاصيل الصغيرة ؟ فالصليبيون الذين كانوا يرفلون في خمول وثراء ، وخلافا لأوامر الله ، أجلوا الرحلة حتى أول نوفمبر . ونحن نعتقد ، أن الفرنجة لو تقدموا ، فإنه لم تكن هناك مدينة بين أنطاكية وبيت المقدس تلقي عليهم حجرا واحدا . فقد كانت مدن المسلمين في ذلك الوقت تعيش في رعب وضعف شديدين بعد هزيمة كربوغا (٢) .

في هذه الأثناء ، انتقل إلى الرب في سلام - في الأيام الأولى من أغسطس أدهيمار (٣) اللورد أسقف لي بوي المحبوب من الرب والناس ، والذي كان بلا خطأ في تقدير الجميع ، وكان حزن كل المسيحيين عليه عظيما عندما

وفي الحقيقة ، لقد حل النشاط محل التراخي ، ولم يتردد ريموندأجيل في استعراض معلوماته عن التصرف السيئ الذي سلكه الفرنج في هذه المعركة . كما يبين أيضا التباين بجعل كربوغا مضطرب النفس وهو يلعب النرد .

(٥) لم يتم التعرف على من يحمل لقب ميرواليس Mirdalin من رجال كربوغا . وربما كان هذا الاسم تحريفا قائما على الكلمة الفرنسية أميرال Amiral ، من كلمة أمير العربية . ولقد تصبح رواية [illegible] وهو [illegible] . [illegible] كربوغا بأن يلتمس نصر الفرنج لمجرد خروجهم من المدينة . واختار كربوغا أن يهاجمهم [illegible] على أمل أن يحقق نصرا كاملا .

- ربما اعتبر كربوغا ضخامة قواته حيث أمر كتائبه أن تصل إلى الخنيفة [illegible] السلطان السلجوقي بخروجهم بحصولي الفرنج . وبتركه انتصاره عليهم ، [illegible] ذكرته عنه ما [illegible] عما سببت المساعدات للفرنج من متاعب . انظر ابن الأثير ، راجع أيضا

[illegible] Historia [illegible] Prologum in [illegible]

(الترجمة العربية)

(٦) لم يكن وصف ريموندأجيل للمعركة [illegible] بالمعلومات التاريخية [illegible] الفرنج [illegible] عن مواكب الصلوات الصيت مقارنا إياها [illegible] . [illegible] المقدسة كأثر نافع في المعركة ، ولم يقاوم نفسه في [illegible] على [illegible] وهو [illegible] Polignac وهو الأخ الأصغر لبرنو [illegible] [illegible] إصلاحات [illegible] .

(٧) [illegible] انتصار الصليبيين ، [illegible] . انظر [illegible] Liber [illegible]

وقد وقعت المعركة في صباح يوم ٢٨ يونية ١٠٩٨م / ٢٦ رجب ٤٩١ هـ .

الفصل التاسع

موت أدهيمار والإبلاغ عن ذلك

في أعقاب الانتصار استولى بوهيمند ، والكونت والدوق ، وكونت الفلاندر على القلعة من جديد ، ولكن بوهيمند أضمر شرا دفعه إلى الإثم . فاستولى على الأبراج العالية ، وطرد بالقوة أتباع جودفري وكونت الفلاندر وكونت سان جيل من القلعة متعللا بأنه كان قد أقسم للتركي الذي سلمهم أنطاكية أنه هو فقط الذي سيتملكها [١] . وتشجع بوهيمند بهذا العمل الذي مر دون عقاب ، فجاء يطالب بالقلعة وأبراج أنطاكية ، التي كان يحميها ريموند وأدهيمار وجودفري من أيام حصار كربوغا . واستسلم الجميع باستثناء الكونت . فرغم حالة الضعف التي كان عليها ريموند فإنه لم يشأ أن يتنازل عن باب الجسر ، ولم تثنه عن عزمه [illegible] والتهديدات .

وقلق قادتنا بسبب الصراع الباطل الذي قوض أسس العلاقات الودية . بحيث أن قلة فقط هي التي كانت تتجنب النزاعات مع الزملاء أو تحتم على السرقة أو [illegible] ، وفي قضية تافهة يمكن أن يناقش القضايا ، فإن كل شخص أصبح قانونا في حد ذاته . وفي هذه الظروف لم يكن الكونت المريض والأسقف [illegible] كبيرة [illegible] . ولكن ثالثا تشغل أنفسنا بمثل هذه التفاصيل [illegible] كانوا [illegible] في [illegible] ، وطلاقا لأوامر الله . [illegible] ونحن نعتقد ، أن الفرنجة لو [illegible] ، فإنه لم تكن [illegible] أنطاكية بيت المقدس تتقي شيئهم حجرا ولحما ، فقد كانت [illegible] في ذلك الوقت تعيش في رعب وضعف شديدين بعد هزيمة كربوغا .

في هذه الأثناء ، انتقل إلى الرب في سلام - في الأيام الأولى من أغسطس أدهيمار ، [illegible] أسقف لي [illegible] المحبوب من الرب والناس ، والذي [illegible] بلا خطأ في تقدير الجميع ، وكان حزن كل المسيحيين عليه عظيما عندما

مات ، حتى أنا ، وقد كنا شهود عيان له ، لم نستطع أن نصف ورود الأفعال عندما شرعنا في تسجيل عظمة الأحداث . ولقد أثبت تشتت القادة في أعقاب موت أدهيمار ، وعودة بوهيمند إلى أنطاكية ، ورحلة جودفري إلى الرها [14] كم كان أدهيمار تابعاً لجيش المسيح Militia Christi وقائده .

وفي الليلة التالية لدفن الأسقف في كنيسة بطرس المبارك في أنطاكية ، ظهر الرب يسوع وأندرو المبارك وأدهيمار في كنيسة ريموند لبطرس بارثولوميو ، وهو الرجل الذي كان قد حدد موقع الحربة في أنطاكية . ثم قال أدهيمار لبطرس :

« الشكر للرب ولبوهيمند ولكل أخوتي الذين خلصوني من الجحيم ، بعد اكتشاف الحربة ، أثمت في الآثام ، وألقى بي لذلك في الجحيم ، وعُذبت بقسوة ، وكما يمكنك أن ترى ، فقد احترق رأسي ووجهي . وبقيت روحي في الجحيم منذ الساعة التي غادرت فيها جسدي ، حتى أعيد جسدي التعس إلى التراب . أما الثوب الذي تراه الآن فهو ثوب أعاده الرب إليّ في اللهب المشتعل لأنني عند ترسيمي أسقفاً كنت قد أعطيته لأحد الفقراء . شكراً للرب ورغم أن جهنم كانت تغلي وكلاب جهنم تزمجر في وجهي ، فإنها لم تصب مني أي شيء تحت الثوب ، ولم ينفعني من كل الأشياء التي حملتها من وطني ، كما ساعدتني شمعة قدمها أصدقائي تقدمة لي ، والدنانير الثلاثة التي قدمتها تقدمة ، فقد أحيتني هذه الصدقات عندما خرجت من الجحيم . ورجاء سيدي بوهيمند أن يحمل جسدي إلى بيت المقدس ، ومن أجل خاطره ، فإنه لن ينقل جثماني من مقره لأن بعض دم الرب الذي أصبحت الآن مرتبطاً به مازال هناك .

« ولكن إذا كان يشك في أقوالي فليفتح قبري ، وسيرى رأسي ووجهي المحترقين ، ولقد عهدت بأتباعي إلى سيدي ، الكونت ، فليعطهم ريموند عطفه حتى يكون الله رحيماً ويفي بوعوده ، كما أن إخوتي لا ينبغي لهم أن يحزنوا لموتي ، لأنني سأكون أكثر نفعاً ، وأنا ميت ، مما كنت حياً ، إذا ثابروا المحافظة

على وصايا الرب . فسأعيش أنا وكل إخوتي الراحلين معي ، وسوف أظهر وأقدم لهم نصحاً أفضل مما كنت أقدمه حياً ، فاخشوا يا إخواني بآلام الجحيم الثقيلة المخيفة واعبدوا الرب ، مُخلّص الإنسان من هذه الآلام وغيرها . فالسعيد حقاً من ينجو من عقوبات الجحيم . فالمخلّص سيستطيع أن يمنح عفوه لمن حافظوا على وصاياه . كما عليكم أن تُبقوا على هذه النقاط المتساقطة من هذه الشمعة والمتبقية عند الفجر . ولما كنت ميتاً فليختر الكونت ورجاله المختارون أسقفاً بدلاً مني ، حيث إنه لا ينبغي أن يبقى كرسي أسقفية مريم المباركة بدون أسقف . وأعطوا إحدى عباءاتي لكنيسة القديس أندرو » [16]

ثم قدم أندرو المبارك احتراماته واقترب وأمر : « احفظوا بكلمات الله التي نُطق بها . تذكر يا ريموند الهدية التي منحها لك الرب . وليكن ما تفعله باسمه حتى يرشدك الرب في كلامك وأعمالك ، ويقبل صلواتك . فإن حقيقة أول مدينة سيمنحها لك الرب . إنما حولها هو إيمانك ، لقد أعطاك الرب مدينته ، وانتزعها من أسلافك ، لكي تشكر له حمد الله في هذا المكان : لأن أعمال الرب لم تكن مسيرته ، ربما طلب أحد معونة الرب كان صائباً ، ومع ذلك فإن الرب جبر رحمته لا يريد أن يتخلى عنكم ، وسيمنحكم ما تطلبون ، بل وأكثر مما حصلوتم عليه ، لأنه سلّم لكم الحربة ، التي اخترقت جسده الذي جرى منه ... ولتذكروا أن الرب لم يعطكم هذه المدينة لتخسروها كما فعلتم في الأخرى ، وتستطيعون بكل تأكيد أن ترون أن الرب لم يعطها لأنها لكم .

« إن الرب يأمرك ، يا ريموند ، أن تعرف من ينبغي أكثر إلى حكم أنطاكية ، وستعرف عن دور الرب في حكمه ، لذلك فإننا وجدنا أنت وإخوانك ، وأنتم الحراس على أنطاكية ، من يحب بإخلاص على عدالة الرب ، فاحفظوه السنة ولكن إذا كان يخطط للاحتفاظ بأنطاكية بالقوة ، محتقراً بذلك العدالة والحكم ، فاطلب أنت وإخوانك المشورة من الرب ، وسوف يقدمها لك ، ولن يخذلك الأتقياء والذين يعبدون الرب حقاً ، أما غير الأتقياء فيمكنهم أن يعودوا إلى من

هو عدو للعدالة ، وسترون كيف سينتقم الرب ، سينزل بهم حتماً نفس اللعنة التي أنزلها الرب وأمه بإبليس الذي هوى . فإذا كنتم متفقين ، فاطلبوا النصح في الصلاة ، وسيقدمه لكم الرب » .

« وإذا كنتم متفقين ؛ فاعقدوا مجلساً بخصوص بطريرك لكنائسكم ... تمنحوا الغفران للأسرى الراغبين في التمسك بوصاياكم . ولا تسمحوا لهؤلاء الذين اتبعوا القرآن لكي يحسبوا الله الذي يعبده الأتراك Allah (٢٠) . أظهروا ... كأتراك وأرسلوا اثنين أو ثلاثة إلى السجن وسيطلبونكم على الآخرين ... بعد الانتهاء من هذه المهمة ، اطلبوا مشورة الرب بخصوص الرحلة المقبلة . وسيمنحكم النصح . ولكن إذا لم تفعلوا هذا الأمر ، فإنكم لن تدخلوا بيت المقدس في عشر سنوات ، رغم أنها لاتبعد عنكم إلا عشرة أيام ، وسأقود الكفار إلى بلادهم من جديد ، وسينتصر مائة منهم عليكم . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن عليكم باسم الرب ، أن تستعطفوا الرب كما فعل الرسل ، وكما استجاب لصلاتهم فإنه سيستجيب لصلاتكم » .

« أما أنتما ... يا روبرت وبوهيموند ، فاذهبا إلى كنيسة أندرو الرسول . وسيعطيكم أفضل نعمة من الرب . واتبعوا مايعلمه الرب في قلوبكم ... وبعد هذه الرؤيا لأندرو البارثلوميو ... أمامه . لا أنتم فقط ، بل أحضروا أخوانكم ليفعلوا ذلك أيضاً . وبكل وحدة ، اعطوا السلام وحب الرب ... بينكم ، يا روبرت وبوهيموند ، لأنكما إذا اتفقتما ، فلن يستطيع شيء أن يحطمكما . وعليكما أن تنشئا العدالة التي يجب أن تلزماها . فاجعلا كل الرجال الموجودين عن طريق أسقف كل منهم يحلفون على الثلاثة نيات ثرواتهم ، ويساعدون الفقراء حسب مقدرتهم والحاجة إلى هذه المساعدة ، واعرفوا أنها لاتحقق ... وإذا لم يرغبوا مراعاة هذه القاعدة وغيرها من القواعد العادلة ، فاكبحوا جماحهم . وإذا رغب أي شخص في امتلاك أي مدينة ، أعطاها له الرب من أجل المسيحيين ، فإنه المسلك الذي يتفق مع الوصايا المذكورة . وإذا لم يفعل فليعاقبه الكونت وأتباع الرب » .

ولقيت تحذيرات القديس أندرو تصديقاً في أول الأمر ، ولكن سرعان ما كان نصيبها التجاهل . فقد قاد بعض الصليبيين « قلعة أنطاكية إلى ألكسيوس » ، ولكن آخرين اعترضوا .

وفيما بعد ، وأثناء حصار عرقة ، وبينما كان بطرس بارثولوميو يرقد رقاد الموت ، استدعى الكونت وأوصاه قائلاً : « عند وصولك إلى بيت المقدس مر الجيش أن يصلي للرب ليطيل حياتك وسوف يضاعف الرب عمرك . وعند عودتك ضع الحربة على بعد خمسة فراسخ من كنيسة سان تروفيموس ومر ببناء كنيسة هناك ، واجعل - بنفسه - مالاً كثيراً ، ولا تسمح بارتكاب أي باطل في هذا المكان (١٨) . ويسمى هذا المكان جبل البهجة . ولعل هذه الأشياء تشكلت في بروفانس لأن بطرس المبارك وعد تلميذه تروفيموس أن يرسل له الحربة المقدسة » (١٩) .

وأهملت مصالح الفقراء بسبب الصراع والشقاق ، ولم يحدث شيء بخصوص المشورة التي تلقاها القادة من القديس أندرو في ذلك الوقت . حاصر الأتراك قلعة تسمى عزاز ... (٢٠) وقتل الأتراك المحاصرين داخلها . فطلبوا من جودفري ، الذي كان في منطقة قريبة منهم ، أن يطلبوه فلتحمه . لأنهم يحتلون سبباً فرنجياً . وبالتالي استدعى الدوق عند عودته إلى أنطاكية ، ريمند الذي كان قد شفي من مرضه ، وكل فرسانه وحشانه الذين كان الكونت قد قادهم إلى أراضي المسلمين لنهب الريف من أجل الفقراء .

كما حث في طلبه من رغبوا أن يسرع الأخير من أجل الرب ، ومن أجل شرف جيش الفرنجة - لمساعدة الأتراك المرتدين الذين كانوا الآن يخدمون الرب . كما أوضح أن الأتراك المحاصرين رسموا علامة الصليب في مواجهة الأتراك المحاصرين . ونتيجة لهذه الالتماسات وغيرها ، سار الكونت مع جودفري ، إلا أن الأتراك تخلوا عن الحصار لدى سماعهم هذا النبأ . وبالتالي فقد وصل جيشنا إلى عزاز ، أخذ الدوق رهائن من القلعة تضمن ولاء أهل عزاز في المستقبل ، وعاد

ويعود إلى أنطاكية وقد تكبد حيث نفقات كبيرة . وهنا ، استعفى قرصان نكر بقوة الناس الفقراء ، الذين انخفضت معنوياتهم بسبب الجوع والتعب إلى أملاك المشرق »[٩٩] .

وفي نفس الوقت ظهر القديس أندرو لبطرس بارثولوميو في خيمة في قلعة الروج Castel - Rouge التي كان يحتلها أسقف أبت Apt ، وريموند جيل ، كاهن الكونت ، وكان يدعى سيمون - وعندما سمع سيمون الحديث بين القديس أندرو وبطرس ، غطى رأسه ، وكما قال فيما بعد ، سمع كثيرا مما دار ، ولكنه لم يذكر إلا « سيدى ، إنني أقول ... »[١٠٠] .

ومع ذلك فقد أخبرني أسقف أبت ، إنني غير متأكد ما إذا كنت قد رأيت شيئا أو لم أر ، ولكن رجلا كبيرا في السن يرتدي عباءة بيضاء ويمسك في يديه حربة الرب المقدسة ، وسألني : « هل تؤمن بأن هذه حربة يسوع المسيح ؟ » .

فأجبت قائلا : « إنني مؤمن بذلك يا سيدى » ، وعندما كرر السؤال مرة ثانية وثالثة أجبت قائلا « حقا إنني أعتقد أن هذه هي الحربة التي استنزفت الدم من جنب يسوع المسيح الذي افتدى به العالم » .

ثم هزني أسقف أبت ، وريموند جيل ، وأنا نائم على عقبة ، وعندما استيقظت لاحظت الضوء غير العادي ، وكما لو كانت النعمة الإلهية قد دخلت روحي ، فاستفسرت من أصدقائي الحاضرين عما إذا كانوا يشعرون كما لو كانوا في مصحوبة تحركها عاطفة عشبة ، ردوا صائحاً : « لا حقاً » ، وبينما كنت . . . ما سبق ، إيجاب بطرس متلقى الوحى السماوى « إنك رأيت فعلا نورا مبهجا لأن الرب ، صاحب كل النعم ، كان يقف في هذه البقعة لفترة طويلة » .

وعندما طلبنا منه أن يحكي كلمات زواره السماويين ذكر بطرس لنا وللكونت ما يلي :

« الليلة جاء هنا الرب وأندرو المبارك في شكليهما المعتادين - في صحبة

رفيق صغير ، ذي لحية طويلة ويرتدي ثوبا من الكتان ، ثم أن أندرو المبارك ، وقد أسخطه أنني تخليت عن رفاته الموجودة في الكنيسة في أنطاكية ، عنفني وأنّبني قائلا « بعد أن ألقاني الكفار من فوق الجبل بدون احترام ، انكسر لي إصبعان ، وبعد موتي حفظهما هذا الرجل ثم نقلهما إلى أنطاكية . ولكنك لم تهتم كثيرا بجثماني بعد أن عثرت عليها ، فسمحت بسرقة أحدهما ، وبعث الآخر بشكل معيب » ، ثم أراني يده التي كان ينقصها إصبعان » .

واستأنف بطرس قائلا : « أيها الكونت ، لقد انتقدك القديس أندرو بمرارة لأنك لا تخشى ارتكاب الآثام الخطيرة الشريرة ، رغم أنك تلقيت الهدية التي لا توصف التي منحها الرب لك وحدك . وهذا هو السبب في أن الرب أعطاك هذه العلامة ، وهي على وجه التحديد . أنك في عيد القديس فيلبس منذ خمسة أيام قدمت شمعة هي شمعة كبيرة تستغرق ثلاثة أيام وثلاث ليال لتحترق ، ولكنها سرعان ما ذابت ، وهوت إلى الأرض ، وهذه الليلة على العكس من ذلك قدمت شمعة صغيرة لكي تحترق تماما قبل صباح الذكية ، وهي تظل [illegible] ولم تنطفئ حتى الآن ، رغم أن النهار قد طلع الآن »[١٠١] .

[illegible] الرب يطلب منك هذه الأشياء : لا تتم شيء حتى تكون قد كفرت عن [illegible] ، وإذا لم تفعل ذلك ستكون أنت ومشروعاتك كشمعة ذائبة تهوى إلى الأرض ، ولكن الرب سيجعل كل أعمالك تامة ناجحة باسم الرب ، إذا كفرت ، وسيمنحك الرب مهرجانه الصغيرة ، كما جعل هذه الشمعة الصغيرة التي تراها تبقى وقتا طويلا » .

ورغم أن ريموند أنكر صحة أثامه ، فإنه اعترف وكفر عنها بعد أن واجهه بطرس بارثولوميو بشبيه

واستمر بطرس في توجيه كلامه إلى الكونت : « أيها الكونت إن أندرو المبارك يعترض على مستشاريك لأنهم قدموا لك نصيحة سوء لغرض ما ، ولهذا

فإنه يأمرك أن تتجاهل نصيحتهم . إلا إذا أقسموا على ألا يعطوك نصيحة غير طيبة وهم يعلمون ذلك » .

« استمع جيداً يا ريمون إن الرب يأمرك بألا تضيع الوقت . لأنه مساعدتك فقط بعد الاستيلاء على بيت المقدس . ولا تجعل صليبياً يقترب أكثر من أرمحين عندما تقترب من بيت المقدس . وإذا اتبعت التعليمات ، فإن الرب سيسلمك المدينة » .

« وبعد هذه الأوامر شكرني القديس أندرو كثيراً لأنني حققت تكريس الكنيسة التي شيدت باسمه في أنطاكية ، ولم يتكلم لي عن هذا الأمر فقط بل في أمور أخرى لا تخصنا الآن . وبعد ذلك صعد هو ورفيقه إلى الفضاء » .

• • • • •

(١) قام أحمد بن مروان ، متولي القلعة ، بتسليمها للفرنج بعد تأكده من هزيمة كربوغا وسحب الفرنج لمقاومة القلعة بالخروج منها . وأرسل لأحمد بن مروان ويخبر ريموندجيل أن الصليبيين اشتركوا في احتلال القلعة . بينما يقرر مؤلف الجستا أن ابن مروان قد عدل عن رأيه ولم يسلم القلعة لكونت تولوز ، وأعطاها لبوهيمند . انظر : Gesta. p. 158 ويذكر ريموندجيل أن بوهيمند كان « يحضر الشر الذي دفع إلى الإثم » . انظر Psalm. 7 5 وفي ذلك الوقت أصبح العداء بين كونت تولوز وبوهيمند صريحاً .

(٢) يشكر المؤرخ هنا لهم رجال الدين حيث تعاظم الأمور العسكرية . وقد فرضت مشاكل الجيش المجهد ، والإصابات ، وظروف الطقس (الصيف) على الفرنج تأجيل السير إلى بيت المقدس والبقاء عند أنطاكية .

(٣) كان موت المطران السابق شيجة لوباء تفشى في أنطاكية لكثرة الجثث التي لم يتم مواراتها التراب . انظر Albert d'Aix. p. 432

(الترجمة العربية)

(٤) التمس رجال الفرنج ملاذاً لهم بعيداً عن أنطاكية تجنباً للوباء المنتشر في المدينة فاجتاز بوهيمند جبال طوروس إلى قيليقية حيث أكد سلطاته فيما استولى عليه تنكريد من أملاك . كما توجه جودفري إلى تل باشر والراوندان حيث سلمهما له أخوه بلدوين . بينما توجه ريموند التولوزي إلى اللاذقية انظر

Ibid. pp. 440 441

(الترجمة العربية)

(٥) مات أدهيمار في أول أغسطس ١٠٩٨ م . وقد مدحه المؤرخ بالرغم من أنه كان هاجماً منه لتشككه في الحربة المقدسة وروايته عن عودة أدهيمار في رؤيا كانت بشكل حربي ، وهناك رواية مشابهة في عودة القديس ليودس Fursey . انظر

Benjamin Thorpe, The Homilies of the Anglo - Saxon church. London. 1844 . 46. 2 pp. 332 439

وقد أنقذ أدهيمار من العقاب لأنه كان إنساناً طيباً وعن حالات التعلق بإسهامات أدهيمار ، انظر مقدمة الترجمة الإنجليزية ، حاشية رقم (٢٩) . ويذهب جيمس بروندج =

أنا تنقص من قدر الدور الذي قام به أدهيمار . وقد أوضحنا أن المصادر الأولية محدودة للغاية ، وأن مؤرخي أدهيمار يجب أن يتناقشوا بسبب هذا الصمت . ونحن أيضا نبحث بسبب هذا الصمت في المصادر . واعترافا بحقيقة أن أدهيمار قد مات في وقت حرج ، فإننا لا نستطيع القول بأنه استطاع أن يلم شمل الصليبيين . فمجرد تأثير الخطر المشترك . فمن غير المحتمل أن يكون أدهيمار قد استطاع أن يمنع الاشتقاق بين النورمان والبروفنساليين . وقد عبر ريموند اجيل أحسن تعبير عن ذلك حين قال عن فقدان أدهيمار أنه ، سيكون أكثر غما وهو ميت منه وهو حي .

(٦) رواية المؤرخ عن تعليمات أندرو إلى ريموند جاءت مسهبة ، ولكنها بعد تعمق دقيق ، قريب لا يريد أن يتخلى عنكم ، وسيحكم ما تخلفون ، وربما نلاحظ هنا التعبير عن العهد القديم (المزامير وسفر التثنية) انظر Psalms 28 . 5 ; Deuteronomy 31 6

(٧) يستعمل المؤلف كلمة Carocana (حرفيا العاهرة الملكية) انظر ملاحق من الفصل الخامس ، حاشية (١) . انظر أيضا
Numbers. 33 . 51; [illegible]
وقد اقتصرنا على استعمال كلمة « القرآن » نظرا لغلبة أن معنى تعليق ريموند واضح .

(٨) وهرقلة مدينة اسلامية تقع على بعد خمسة عشر ميلا من طرابلس . ويستخدم المؤرخ الأحداث في رواياته ويكشف عن مهارته في كتابة التاريخ بعد الأحداث

(٩) كان تروفيموس Trophimus أسقفا أفسوسيا لأرض مقدسة ومن المفروض أنه تابع للقديس بطرس . انظر
Acts 20 . 4, 21 . 29
وقد تأصلت التعاليم الخاصة بكنيسته من الأسطورة ، وكان معقل الخير يسمى حمل المهجة Mosaic

(١٠) عزاز Azaz أو Hazart مدينة من مدن العصور الوسطى تقع إلى الشمال الشرقي من أنطاكية ، وكانت الحملة على عزاز في ١٤ - ١٧ سبتمبر ١٠٩٨ م
- « عزاز » بليدة بها قلعة ، تقع على بعد أربعين كيلومترا شمالي حلب ، على الطريق الرئيسي بين أنطاكية من ناحية ، والرها وتل باشر من ناحية أخرى . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٩٦٧
ومن الواضح أن الترجمة الانجليزية لم تهتم بتحديد المواقع التي لم يرد لها وصف في كتب المؤرخين اللاتين المعاصرين ، إلا أنه من الواضح أن الترجمة الانجليزية كان على

الاقتسام خلالها بترجمة النص اللاتيني . فالمعلومات عن هذه المواقع متوفرة في كتب الرحالة اللاتين ، الذين تزخر بأعمالهم مجموعة نصوص حجاج فلسطين ببيت المقدس .
(الترجمة العربية)

(١١) موضوع ارتداد بعض المسلمين عن الاسلام ، التي يرد في المصادر اللاتينية بشكل كرواية متفرقة حيث تكتنفه الشكوك ، وهذا ما سنقوم به في بحث منفصل إن شاء الله .
أما ما يرويه ريموند اجيل هنا فتنقصه الدقة ويبعد عن الحقيقة . فكل ما حدث أن ابن عمر صاحب عزاز كان قد خرج عن طاعة سيده رضوان ملك حلب السلجوقي . واستنجد بالفرنج بعد أن قام رضوان بحصار عزاز . وبحضور الفرنج اضطر رضوان أن يرفع حصاره عنها ، وأقر الفرنج ابن عمر في أملاكه . واتخذه ريموند كونت تولوز فصلا من أنصاره . انظر : ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٤١ . راجع أيضا :
Albert d'Aix, pp. 433 - 449.
وهذا الحدث يدل على أن الأمراء السلاجقة - المنقسمين على أنفسهم - بدأوا يستعينون بالفرنج في منازعاتهم ، كما يدل على أن الفرنج أنفسهم بدأوا يميلون إلى أن يضموا إليهم أتباعا مسلمين ، مما يسهل لهم تحقيق أطماعهم في المنطقة . انظر :
Runciman, op. cit., vol. I, p. 251
(الترجمة العربية)

(١٢) قلعة الروج (القلعة الحمراء) Chastel Rouge قلعة من قلاع الفرنج وكانت تسمى روجيا ، وتقع جنوبي أنطاكية ، وكان أسقف أبامية Apamea من صنعه ريموند كونت تولوز وأنه أختير من إقليم بروفانس . وسمعان Simon هو قسيس إنصر التعريف به على الإشارة المختصرة التي أوردها ريموند اجيل عنه .
- والروج كورة من كور حلب في غربيها منها معرة النعمان . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٨٢٨
(الترجمة العربية)

(١٣) عثرت قصة الشمعة المقدسة في ثنايا معلومات المؤرخ عن العلوم القديمة . كلما استغرقت الشمعة وقتا أطول في الاحتراق ، كلما زادت طهارة من تصنعها ، وعندما تحترق شمعة ريموند بسرعة فهو سيرتكب ذنبا دينيا . انظر :
Patrick F. Moran, Acta Sancti Bernard, Dublin, 1872, pp. 107 - 136
وكان يحتفل بعيد القديس فيدير Fedir في ٦ أكتوبر من كل عام

الفصل العاشر

الاستيلاء على البارة ومعرة النعمان

وبعد ذلك بوقت قصير تقدم ريموند ، يصحبه الحجاج الفقراء وقلة من الفرسان ، داخلين الشام حيث استولى بشجاعة على البارة ، أول مدينة إسلامية في طريقه [١] . وهنا قتل الآلاف ، وأعاد آلاف غيرهم ليباعوا كعبيد في أنطاكية ، وأطلق سراح الجبناء الذين استسلموا قبل سقوط البارة . وبعد ذلك ، وعملا برأي كهنته وأمرائه ، اختار الكونت بطريقة صحيحة تستحق الثناء ، كاهنا ليكون أسقفا ، وبعد اجتماع عام تسلق أحد كهنة الكونت الأسوار ، وأعلن على كل الناس رغبات ريموند . ولما كان الناس يطالبون بالانتخاب . لقد سأل الكاهن الذكور عما إذا كان هناك رجل ديني يمكن أن يتلقى ولاء المؤمنين ، ويساعد الرب وإخوته بالتصدي للوثنيين بقدر ما يستطيع .

ووسط الصمت الذي تلا ذلك ، استدعينا بطرس ، وهو من مواطني ناربون وأوضحنا له على الملأ ، عبء الأسقفية ، حثثناه على تولي المنصب إذا كان عازما على الاحتفاظ بالبارة حتى إلى أن يموت . وعندما وعد بقيامه بذلك ، وافق عليه الناس بالإجماع . وشكروا الرب كثيرا لأنهم كانوا يريدون أسقفا رومانيا في الكنيسة الشرقية [٢] . وأعطى ريموند لبطرس الناربوني نصف البارة والمناطق المحيطة بها .

واقترب أول أيام شهر نوفمبر ، وهو الوقت المحدد لتجمع الصليبيين من جديد لمواصلة زحفهم . وكانت البارة على مسيرة يومين من أنطاكية . ونتيجة لذلك ترك ريموند حيشه في البارة ، ورحل إلى أنطاكية مع بطرس ، أسقفه الجديد . وأسرى كثيرين وغنائم كثيرة . وهنا تجمع كل الأمراء باستثناء بولدوين شقيق جودفري . واتجه بولدوين هذا ، بعد أن انفصل عن الجيش الصليبي الرئيسي ، إلى الفرات قبل الاستيلاء على أنطاكية ، واستولى على مدينة الرها الغنية المشهورة وخاض عدة معارك ناجحة ضد الأتراك .

وقبل أن انتقل إلى أحداث أخرى يجب أن أحكي لكم هذه الحكاية .

فعندما كان جودفري في طريقه إلى أنطاكية مع اثني عشر فارساً قابل مائة وخمسين من الأتراك . فلم يتردد أبداً . وأعد أسلحته ، وحث فرسانه ، وهاجم العدو بشجاعة . ولكن المسلمين الذين رأوا – مجبرين – الاختيار الأصعب للموت على النجاة بالفرار . اختاروا أن يترجل بعض رجالهم حتى يطمئن الأتراك الراكبون إلى أن أصدقاءهم المترجلين لن يتخلوا عنهم ويلوذوا بالفرار . ونتيجة لذلك ، فأثناء القتال الطويل العنيف ، هاجم فرسان جودفري العدو بشجاعة . وكان عددهم مساويا للإثني عشر رسولا . وكانوا شديدي الإيمان بأن الدوق هو كاهن الرب . ووهب الرب الدوق نصراً عظيما جداً . حتى أنه قتل حوالي ثلاثين من المسلمين ، وأسر مثل هذا العدد . وطارد الهاربين . فقتل كثيرين آخرين أو جعلهم يغرقون في المستنقع والنهر القريبين . وعاد جودفري إلى أنطاكية ظافراً في نصر بهيج ، وقد حمل الأسرى من الأعداء رءوس زملائهم القتلى [٣]

بعد ذلك بدأ الأمراء في إجتماع ضمهم في كنيسة بطرس المبارك . يخططون لاستئناف الزحف إلى بيت المقدس . ثم سأل بعض من يحتفظون بقلاع أو أملاك مؤجرة في المناطق المحيطة بأنطاكية : « ماشأن أنطاكية ؟ من سيحرسها ؟ إن ألكسيوس لن يأتي . تذكروا أنه هرب عندما سمع أن كربوغا قد حاصرنا . لأنه لم يكن لديه ثقة في قوته أو في جيشه الكبير . هل ستنتظرون أكثر من ذلك ؟ من المؤكد . أن من أجبر إخوتنا ومن جاءوا لمساعدة الرب على التراجع . لن يأتي لمساعدتنا . ومن ناحية أخرى فإننا إذا تخلينا عن أنطاكية واستردها الأتراك ، فإن النتيجة ستكون أكثر خطورة من الاحتلال الأخير . فلنعطها لبوهيمند وهو رجل حكيم يخشاه المسلمون ، وهو رجل يحبها جيداً .

ولكن الكونت وآخرين اعترضوا على ذلك قائلين : « لقد أقسمنا على صليب الرب ، وإكليل الشوك وآثار كثيرة ، على أننا لن نحتفظ ، دون موافقة الامبراطور ، بأي مدينة أو قلعة في مناطق نفوذه » [٤]

وهكذا انقسم الأمراء بسبب هذه الخلافات وتكلموا بعنف شديد حتى كادوا يستخدمون أسلحتهم . والواقع أن جودفري وروبرت كونت الفلاندر لم يهتما كثيرا بمسألة أنطاكية . وكانا يؤيدان - سراً - تملك بوهيمند لها . ولكنهما خوفا من عار الحنث باليمين ، لم يجرءا على التوصية له بها [٥] . ونتيجة لذلك ، تم تأجيل الرحلة وكل مايتعلق بها من مسائل . وكذلك الاهتمام بالفقراء .

وبدأ الناس بعد أن رأوا هذه الضجة بين الأمراء ، يتحدثون بشكل سري في أول الأمر ثم علنا بعد ذلك : « واضح أن قادتنا لا يرغبون في قيادتنا إلى بيت المقدس إما بسبب الجبن أو بسبب القسم الذي أقسموه لألكسيوس. فلماذا لانختار نحن فارساً شجاعاً يمكن أن نأمن على أنفسنا ونحن في خدمته . وسنصل إن شاء الله إلى القبر المقدس معه كقائد لنا . يا إلهي ! عام مضى في أرض المسلمين ، ولقد مات مائتا ألف جندي ، ألا يكفي هذا ؟ [٦] فلندع أولئك الذين يطمعون في ذهب الإمبراطور ، أو ريع أنطاكية ، يحصلون على مايريدون . أما نحن الذين تركنا أوطاننا من أجل المسيح ، فلنستأنف مسيرتنا معه قائداً لنا . وليمت الطامعون في أنطاكية في بؤس كما مات سكانها حديثا . وإذا استمر النزاع حول أنطاكية فلنهدم أسوارها . فلعلنا سنعود زمن حسن النوايا بين الأمراء . كما كان الحال قبل الاستيلاء على المدينة ، وذلك مع تدميرها . وإلا فإن علينا أن نعود إلى بلادنا قبل أن ينهكنا الجوع والتعب » .

وأثرت هذه الآراء وغيرها في ريموند وبوهيمند . فعملا على تسوية الخلاف . وفي تاريخ محدد صدرت الأوامر إلى الناس بالاستعداد لاستئناف الحملة الصليبية . وبعد اتخاذ كافة التدابير للاستعداد لهذا الزحف ، تقدم كونت سان جيل وكونت الفلاندر مع الناس في المسيرة المحددة إلى داخل الشام ، حيث حاصروا مدينة معرة النعمان الغنية ذات التحصينات والمكتظة بالسكان . وكانت تقع على بعد ثمانية أميال من البارة [٧] . وبسبب خندق عميق جرى معنا وتكبدنا فيه خسائر فادحة ، فقد تجرأ أهل المدينة المتعجرفين على قادتنا وسبوا جيشنا ونثروا صلباننا مثبتة على أسوار المدينة ليثيروا غضبنا . وفي اليوم التالي لوصولنا اشتد

مختبئا من السكان الوطنيين ، حتى أننا داهمنا الأسوار بشكل سافر ركنا - دون شك - سنستولى على معرة النعمان لو كان لدينا أربعة سلالم أخرى . ومع ذلك فقد صعد رجالنا سُلّمينا القصيرين الضيقين ، بخوف . وكان قرار المجلس بناء الآلات وحواجز العيدان ذات الشوك والمتاريس الترابية التي يمكن منها أن تصل إلى السور وتهدمه وتسوّيه بالأرض . وبينما كان هذا يحدث ، أتى بوهيمند وحاصر قطاعا من معرة النعمان . وكما ذكرنا من قبل ، فإن استعدادنا لم يكن كافيا ، إلا أن ظهور الرافد الجديد شجعنا على أن نفكر في شن هجوم جديد عن طريق ردم الخندق المائي المحيط بالسور . ولكن هجومنا الجديد ، الذي كان أكثر تعاسة من الأول ، لم يكن مجديا .

وإنه لما يحزنني أن أذكر أن المجاعة التي تلت ذلك جعلت أكثر من عشرة آلاف رجل يتناثرون كالماشية في الحقول ، ينبشون ويبحثون عن حبوب القمح أو الشعير أو الفول أو أي خضروات [18] . وعلى الرغم من استمرار العمل في آلات الهجوم ، فإن بعض رجالنا بلغ من تأثرهم باليوس المحيط بهم وبجرأة المسلمين ، أن فقدوا الأمل في رحمة الرب وولوا الأدبار .

ولكن الرب حامي عباده ، أشفق الآن على شعبه حينما رآهم في حمأة اليأس والقنوط . وهكذا استخدم الرسولين المباركين بطرس وأندرو ليبلغنا بشيء يسيل تلطيف أمره القاسي . ففي منتصف الليل ، دخلا كنيسة الكونت الخاصة وأيقظا بطرس بارتولوميو ، وهو الرجل الذي كانا قد أظهرا له الحربة . ولكن بطرس بارتولوميو ، الذي تملكته الدهشة ، عندما رأى شخصين نبيلين في ملابس قذرة يقفان بجوار تجويف الشمع الذي يضم البقايا المقدسة ، اعتقد بالطبع أنهما من الصعاليك اللصوص ، كان القديس أندرو يرتدي قباء كهنوتيا قديما ممزقا عند الأكتاف ، فعلى الكتف الأيسر رقعة من القماش بينما كان الكتف الأيمن عاريا وكان يرتدي حذاء رخيصا . وكان بطرس يرتدي قميصا خشنا من الكتان يصل إلى كاحله .

وسألهما بطرس بارتولوميو : « من أنتما ياسيدي وماذا تريدان ؟ » .

وأجاب بطرس المبارك : « إننا مبعوثا الرب . أنا بطرس وهذا أندرو - ولكننا اخترنا هذا الملبس حتى ترى المكاسب العظيمة التي ينالها من يخدم الرب بإخلاص . لقد أتينا في هذه الحالة وعلى هذه الهيئة بالضبط كما ترانا أنت ، إلى الرب . والآن أنظر إلينا » .

وبعد هذه الكلمات أصبح بطرس وأندرو أكثر تألقا وأجمل مما يمكن أن تعبر عنه الكلمات ، وخرّ بطرس بارتولوميو إلى الأرض كما لو كان ميتا ، وقد استبد به الرعب للوميض المفاجيء من الضوء . ومن شدة خوفه تصبّب منه العرق حتى بلل الحصيرة التي وقع عليها . فساعده القديس بطرس على الوقوف وقال له : « لقد وقعت بسهولة » .

ورد بطرس بارتولوميو « نعم يا سيدي » ثم شرح القديس بطرس الأمر : « وهكذا سيقع كل الكفار والمعتدين على أمر الرب ، ولكن الرب سيرفعهم كما رفعتك بعد سقوطك ، إذا ندموا على أعمالهم الشريرة واستغاثوا بالرب أكثر من ذلك ، فطالما عرقك على الحصيرة ، فإن الرب سيرفع ويمحو ذنوب من يستغيثون به » ولكن أخبرني ، كيف يسير الجيش أمره ؟ » .

وأجاب بطرس بارتولوميو : « بالتأكيد لقد أثارت المجاعة قلقهم وهم في تعاسة بالغة » .

وهنا انفجر القديس بطرس قائلا : « إن من تركوا الرب وراء ظهورهم لابد أن يخافوا ، لأنهم نسوا الأخطار التي أنقذهم الرب منها ، ولم يقدموا له الشكر . ولكنك ناديت الرب عندما كنت راكعا ، وعند أنطاكية ، حتى أننا سمعناك في السماء . لقد سمعك الرب ، وقدم لك حربته كدليل انتصار لك ، ومنحك انتصارا رائعا ومجيدا على المحاصرين وعلى كربوغا . لقد آذيت الرب كثيرا . والآن ، أي رب تؤمن به أنت نفسك لكي تأمن على نفسك ؟ هل تستطيع الجبال الشاهقة أو

الغارات المقبلة أن تحميك ؟ إنك لا تستطيع أن تكون في مأمن حتى في أشد المرتفعات منعة ومعك كل ثرواتك . لأن مائة ألف خصم سيهددون كل واحد منكم . تفي صفوفكم القتل والنهب والسرقة فضلاً عن أعمال العمالة . كما أن هناك زنا . ولئن كان ما يسعد الرب أن تتزوجوا . وفيما يختص بالعمالة فإن الرب يأمر بأن تكون كل السلع ، الموجودة في سكن الشخص الظالم المستبد بالفقراء ، ملكية عامة . وإن تؤدوا عشوركم ، فإن الرب على استعداد لأن يعطيكم ما تحتاجون ، لكنه سيعطيكم معرة النعمان بسبب رحمته لا لأعمالكم . تحاصروها في أي وقت تشاءون ، واعلموا ذلك لأنكم بحق ملك ستأخذونها » .

وبعد أن سمع الكونت بهذه الأحداث في الصباح التالي ، استدعى هو وأسقفا أورانج والبارة ، كل الناس إلى الاجتماع وصدق المؤمنون ، فقدموا الأموال الكبيرة في الاستيلاء على المدينة . بسخاء وقدموا الصلوات للرب القدير ، ليحرر شعبه المسكين من أجل إسمه فقط . وعند إكتمال هذه الاستعدادات الروحية ، صنعت السلالم بسرعة ، وأقيم برج خشبي ، ووضعت الحواجز . وعند نهاية اليوم ، بدأ الهجوم ، وأطلق المحاصرون في معرة النعمان الأحجار من المجانيق ، والنبال والنيران ، وخلايا النحل ، والجير ، على رجالنا الذين قوضوا أسوارهم . ولكن أحدا لم يصب تقريبا بفضل قدرة الرب ورحمته . ومن ناحية أخرى فإن الصليبيين هاجموا الأسوار بحرارة . مستخدمين الصخور والسلالم في محور لستمر من طلوع الشمس حتى غروبها . هذا لقد كان قتالاً كبيراً لم يشترك فيه أحد ، ولم يشك أحد في نتيجته النهائية . وأخيرا [illegible] فيها شعبه [illegible] معجزته .

وصنع الرب الخاص أمام المدينة [illegible] معجزة . وكان قليل من [illegible] لصوص حرفيين [illegible] الشعب في الأبراج . إلا أن الليل أنهى القتال [illegible] بعض أبراج المدينة وأجزاء منها في أيدي الصليبيين (٩٨) . وتوقع الفرسان وقفة مقاومة أخيرة في الصباح التالي ، فحرسوا الأسوار الخارجية للقضاء على أي شخص حاول الهرب . ولكن بعض

الصليبيين ، ممن لم يحابوا بحياتهم ، لأن الجوع جعلهم يحتقرون الحياة ، استمروا في مقاتلة أهل المعرة في جنح الظلام . وهكذا حصل الفقراء على نصيب الأسد من الغنيمة والبيوت في معرة النعمان ، ولم يجد الفرسان الذين انتظروا حتى الصباح ليدخلوا ، إلا بقايا لا قيمة لها . في هذه الأثناء كان المسلمون يختبئون في كهوف تحت الأرض ، وبالفعل ولم يظهر منهم أحد في الشوارع . وسرق المسيحيون كل السلع التي كانت فوق الأرض ودفعهم الأمل في الحصول على ثروات المسلمين المخبأة تحت الأرض ، فأطلقوا الدخان على الأعداء لإخراجهم من مخابئهم باستخدام النار والأبخرة الكبريتية . وعندما خيب تهيم الكهوف آمالهم عذبوا المسلمين الذين تصل إليهم أيديهم حتى الموت . ومر بعض رجالنا بتجربة إقتياد المسلمين في الشوارع على أمل معرفة أماكن الغنائم ، فكان أسراهم يقودونهم إلى الآبار ثم فجأة يلقون بأنفسهم في الآبار ليلقوا حتفهم ، مؤثرين الموت على كشف النقاب عن مكان المتاع المملوك لهم أو لغيرهم . وبسبب عنادهم لاقوا حتفهم جميعاً . وألقيت جثثهم في المستنقعات والمناطق الواقعة وراء الأسوار . وهكذا ، لم تقدم معرة النعمان الكثير للنهب (٩٩) .

ورغم أن فرسان بوهيمند كانوا فاتري الهمة في تشديد الحصار ، فقد فازوا بعدد أكبر من الأبراج ، والخيول ، والأسرى . وأدى ذلك إلى شعور بالاشتهاء بين الفرسان والبروفنسال . وأراد الرب في ذلك الوقت أن يرينا حدثاً معجزاً ، وكان قد وقع من قبل . [illegible] أننا شرحنا للناس قبل الاستيلاء على معرة النعمان الأوامر الرسولية بحظر [illegible] ، إلا أن بوهيمند ورجاله سخروا منا . والواقع أن بوهيمند [illegible] البروفنسال كانوا يشكلون نصف أكثر منهم عددا ، وبالطبع ، فإن حادثة [illegible] كانت ساخرة لأن النورمان استولوا على النصيب الأكبر من الغنائم ، وفي النهاية اختلف السادة ، فقد أراد ريموند أن يعطي المدينة لأسقف البارة ، وقام بوهيمند بحجز الأبراج التي استولى عليها وعلق قائلا : « إنني لن أتفق مع ريموند على أي شيء إلا إذا تنازل لي عن أبراج أنطاكية » .

وفي غمار هذا الاضطراب ، راح الفرسان والناس يسألون متى سينتقل

الأمراء بالبدء فى الزحف . لأنه رغم أن الزحف قد بدأ منذ زمن طويل ، فإن كل يوم بدا كما لو كان بداية حملة صليبية جديدة ، لأن الهدف لم يتحقق بعد . وأجاب بوهيمند بأنه لن يذهب قبل عيد الفصح . وقد حل الآن ميلاد سيدنا المسيح . وفقد الكثيرون الأمل ، وتحولوا راجعين بسبب ندرة الخيول وغياب جودفرى وهجرة الكثير من الفرسان إلى بولدوين حاكم الرها

وأخيــرا اجتمع أسقف البارة وبعض النبلاء بالفقراء ، وطلبوا العون من ريموند ، وعندما انتهى الأسقف من حديثه انحنى أمام الكونت التى تلقى الحربة المقدسة وطلبوا منه والدموع تملأ أعينهم أن يجعل نفسه قائداً للجيش ورئيساً عليه ، كما قالوا أنه نظرا لما تسبغه عليه حيازته للحربة المقدسة من مزايا ، ولكونه محل إنعــام الرب ، فإنه لن يخشى الاستمرار فى الرحلة فى أمان مع جمهور الفرنج . وإذا لم يستطع ريموند أن يفعل ذلك فإن عليه أن يسلم الحربة للجماهير . وسيواصل هؤلاء مسيرتهم إلى الأراضى المقدسة تحت قيادة الرب . وساورهم الكونت وهو يخشى ألا يتبعه الأمراء المتغيبون ، الذين كانوا ينظرون إليه بعين الحسد ، إنما هو حدد يوم الرحيل

ولماذا لا تنهى تلك القصة الكئيبة ؟ لقد تغلبت دموع الفقراء ، وحدد ريموند تاريخ الرحيل باليوم الخامس عشر ، بينما أعلن بوهيمند ، الذى أثار ذلك غضبه ، فى كل أرجاء المدينة أن تاريخ الرحيل هو اليوم الخامس أو السادس ، وعاد إلى أنطاكية بعد ذلك مباشرة . والتفت ريموند وأسقف البارة إلى تجهيز حاشية ، وحددا عدد الأشخاص واختاراهم ، وفى الوقت نفسه ، طلب الكونت من جودفرى والمتغيبين عن معرة النعمان ، أن يتجمعوا فى مكان واحد ويقوموا بالاستعداد اللازم لاستئناف الرحلة . واجتمع الأمراء وعقدوا مؤتمراً فى قلعة الروج التى تقع فى منتصف الطريق تقريباً بين أنطاكية ومعرة النعمان ، إلا أن الاجتماع لم يسفر عن شىء ، لأن القادة وكثير ممن حنوا حذوهم قدموا أسبابا لعدم استئناف الرحلة . ونتيجة لذلك عرض ريموند على جودفرى وروبرت النورماندى عشرة آلاف صولدى

لكل واحد ، وستة آلاف لروبرت كونت الفلاندر ، وخمسة آلاف لتانكرد ، ومبالغ مناسبة للآخرين [١٤١] .

فى هذه الأثناء ، وعندما تلقى أنباء بأن ريموند خطط لوضع حامية فى معرة النعمان تضم فرسانا ومشاة من الجيش ، دار الكلام بين الفقراء : « إذن لتهنأ المسألة بصراع فى أنطاكية ، وصراع فى معرة النعمان ! هل سيظهر النزاع بين الأمراء ، وتتعثر جيوش الرب فى كل بقعة يمنحنا الرب إياها ؟ لنضع حداً للصراع هنا ، ومن أجل أن يسود الهدوء بين القادة ، ويهدأ خاطر ريموند الذى يملك أن يخشع ذلك الجيش ، فهيا نقوض أسوارها » .

وهكذا ، أتى الجميع حتى المرضى والضعفاء ، وقد قاموا من فراشهم وساروا متكئين على العصى طوال الطريق حتى الأسوار . وكان الرجل الأضعف النحيل يدحرج إلى الأمام وإلى الخلف ويدفع من الســور أحجاراً فى حجم لا يكاد ثلاثة ثيران أو أربعة يزحزحونها . وطالب أسقف البــارة وأصــدقاء ريموند بالمدينة وهم يحتقرونهم بردعونهم بالامتناع عن مثل هذا التخــريب . ولكن الرجال الذين كانوا يعزلون بعيــدا عن الأســوار ، ويختبئون عند اقتراب الحراس ، كانوا ســرعان مايستأنفون عملهم بمجــرد ابتعاد هؤلاء [١٤٢] . أما المتطوعون والذين كانت تشغلهم أمور أخــرى ، فقد كانوا يعملون ليلاً بحيث لم يكن هناك أى شخص يثنيه الضعف أو المرض عن المســاعدة فى دك الأســـوار .

أصبح نقص الطعام حادا إلى درجة أن المسيحيين كانوا يأكلون ، فى تلذذ ، جثث المسلمين المتعفنة ، التى كانوا قد ألقوا بها فى المستنقعات قبل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع . وأثار هذا المنظر اشمئزاز الكثيرين من الصليبيين والغرباء ، ونتيجة لذلك ، فقد الكثيرون الأمل فى وصول تعزيزات فرنجية ، وتقلوا

عاشين ، كان رد فعل المسلمين والأتراك هو « إن ذلك الجنس العنيد الذي لايعرف الرحمة ولا يحركه الجوع أو السيف أو أي أخطار لمدة عام ، عن أنطاكية ، يتلذذ باللحم البشرى . لذا فإننا نسأل « من يستطيع أن يقاومهم ؟ » ونشر المسلمون قصصاً عن هذه الأعمال وغيرها من الأعمال التي تخلو من الإنسانية ، والتى ارتكبها الصليبيون ، ولكننا لم نكن ندرك أن الرب قد جعل منا سببا من أسباب الهلع [١٣٣].

في ذلك الوقت كان ريموند ، لدى عودته من معرة النعمان ، ساخطا أشد السخط على أتباعه ، إلا أنه اعترف بالجميل للرب ، وأمر بتقويض أسس الأسوار عندما علم أن تهديدات أسقف البارة والقادة الآخرين وفرنجهم لم تثن الرعاع عن عزيمتهم . ولكن نقص الطعام كان يزداد يوما بعد يوم . وأمرنا بإعطاء الصدقات ، والصلاة من أجل الرحلة ، لأن اليوم المحدد كان يقترب في هذه الأثناء تأثر كونت تولوز لغيبة القادة الكبار ، وأثر المجاعة في إضعاف الرجال ، فأمر المسيحيين بأن يبحثوا عن الطعام في أراضي المسلمين ، ووعد بأنه سيكون في الطليعة مع فرسانه . ولكن بعض أتباعه الساخطين اشتكوا قائلين « إذا كان كل ما لدينا أقل من ثلاثمائة فارس وحفنة من المشاة ، فهل نقسم قواتنا فيمضي البعض داخل أراضي المسلمين ، ويبقى البعض الآخر في الماضي معرة النعمان بلا دفاع ؟ وأفاضوا في الحديث عن عدم استقرار ريموند التام .

ومع ذلك فقد سار الكونت في النهاية ، وبالنيابة عن الفقراء إلى أراضي المسلمين ، واستولى على بعض الحصون والأسرى وقام بالكثير من أعمال النهب ، وعند عودته مبتهجاً فائزاً بعد أن قتل الكثيرين من المسلمين ، قتل الكفار ستة أو سبعة من قومنا . ومن الغريب هنا أن تلك الجثث كان بها صليبان على الكتف الأيمن [١٤٤] وشعر الناظرون ومعهم ريموند براحة كبيرة لهذا المنظر ، وقدموا

المعجزات للرب القادر على كل شيء الذي تذكر قدراته ، ولإقناع المشككين الذين جاءوا مع التابع بالقرب من معرة النعمان ، حملوا معهم أحد الجرحى المصابين إصابة قاتلة ، ولكنه كان لايزال يتنفس ، وقد رأينا معجزة في هذا الرجل المسكين ، الذي كان قد مُزِّق ، حتى أن جسمه المطحون لم تكد توجد به بقعة تخفى روحه ، ومع ذلك فقد عاش سبعة أو ثمانية أيام بدون طعام شاهدا طوال ذلك الوقت على أن يسوع الذي سيمضى إلى حكمه بكل تأكيد ، كان هو الرب خالق الصليب الذي كان يحمله على كتفه .

• • • • •

(١) البارة Albara (أو Barah) مدينة تقع إلى الجنوب الشرقي من أنطاكية . وقد كانت حملة الفرنج عليها في ٢٤ سبتمبر ١٠٩٨ م انظر : Hagenmeyer. Chr. 316 – وذكر ياقوت الحموي أن بالبارة حصنا وأنها ذات بساتين . انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٤٦٤ . لذا لم تكن غارة الفرنج عليها أمرا عشوائيا . فهم بدأوا استراتيجيتهم بفتح البلدان التي لا يستغرق فتحها وقتا طويلا . إلى جانب ما ستوفره البارة وبساتينها من مؤن للجيش (الترجمة العربية) .

(٢) بطرس أوف ناربون Peter of Narbonne كان قسيسا في جيش ريموند ، وقد رسمه البطريرك اليوناني لأنطاكية (حنا) . أسقفا للبارة . لكن بطرس كان على عداء مع رجال الدين اليونانيين

– مع أن الفرنج لم يجروا أي تغييرات في هيئة الكنيسة في أنطاكية بينما كانوا في انتظار الكرسي كوسيلة لبرهنة على دعوتهم له بالحضور إلى أنطاكية . فقد بدأوا في تعيين أساقفة لاتين في بلاد الشام . وكان تعيين ريموند لبطرس الناربوني هو أول هذه المناسبات وبعد ريموند حصد المدينة وإقليمها . وكان تعيين بطرس تعيينا غير عادي في ضوء القانون الكنسي . ويبدو أن تعيينه كان لسبب سياسي واجتماعي أكثر منه لسبب كنسي . ففي أواخر القرن الحادي عشر الميلادي والخامس الهجري ، كان حكام غرب أوربا يعتمدون على خدمات رجال الكنيسة لتنفيذ عمل الحكومة العلمانية ومنحوا الأساقفة سلطات علمانية واسعة . ولكن الأساقفة اليونانيين لم يكن في سلطاتهم تحمل مسئوليات علمانية من هذا القبيل ، لأنهم لم يألفوا ذلك من قبل . فلم تكن هناك حاجة بالعالم البيزنطي لأن يقحم رجال الدين في عمل الحكومة . لأن الإمبراطورية البيزنطية كان لديها طبقة من الإداريين العلمانيين لم يكن هناك ما يناظرها في غرب أوربا . لذلك ، فيبدو أن بدأ الصليبيون في فتح أقاليم الشام ، وفي إقامة إدارة مشابهة للإدارة في غرب أوربا ، فقد كانوا مضطرين إلى تعيين بعض الأساقفة اللاتين ليساعدوا في أعمال الحكومة . ومن الواضح أن بطرس الناربوني قد قبل ليدير البارة نيابة عن حكومة تكون أكثر منه لكي يتعامل مع الاحتياجات الروحية لسكانها ،

= لأن العامية التي تركت في المدينة هي فقط التي كانت من السجين اللاتينية . وكان القس سيؤدي المهام الروحية بنجاح . انظر :

Hamilton, The Latin Church, p. 10

(الترجمة العربية)

(٣) يعتمد ريموندا جيل هنا قليلا من الأحداث ليذكر أعمال برطرون . انظر .

Fulcher of Chartres (ed. Hagenmeyer), pp. 200 - 203

وادعاءات بوهيمند التي عبر عنها أتباعه (والتي سيذكرها المؤرخ بعد قليل) تقوم على أن بوهيمند قائد مقتدر وسيحمي أنطاكية . والمناوشات التي قام بها بوهيمند حدثت حوالي نهاية أكتوبر ١٠٩٨ م (Hagenmeyer, Chr. 320) انظر :

William of Tyre, VII, 6

(٤) تبين هذه الفقرة احترام ريموند للقسم الذي أداه في القسطنطينية . وكانت المناقشة في أول نوفمبر ١٠٩٨ م . أما اجتماع الأمراء في كنيسة القديس بطرس فقد تم في ٥ نوفمبر ١٠٩٨ م . انظر Hagenmeyer, Chr. 321 - 323

- حتى رحيل الفرنج من أنطاكية في أواخر نوفمبر ١٠٩٨ م ، كانت كل تصرفات كونت تولوز تدل على حرصه على مصالح بيزنطة وعلى القسم الذي أداه أمام الامبراطور ألكسيس كومنين وعلى عهده له بأن تعود إلى بيزنطة كل أملاكها التي سبق وانتزعها منها السلاجقة ، إلا أن ما قام به بعد ذلك وحتى استيلاء الفرنج على بيت المقدس (يوليو ١٠٩٩ م) كان يدل على أنه بدأ يعمل لمصلحته هو . ويرى المؤرخ اللاتيني ألبرت دكس أن ريموند في نزاعه مع بوهيمند حول ملكية أنطاكية كان يعمها لنفسه . ولم يكن ذلك حرصا على مصالح الامبراطور البيزنطي . ويبدو أن ريموند ، في حقيقة الأمر ، كان ينتظر مكافأته من ألكسيس ، وعندما فشل في الاحتفاظ له بأنطاكية . وعندما خرج من الحملة على فلسطين خالي الوفاض بعد أن فشل في الحصول على عرش بيت المقدس ، وبعد فشل حملة ١١٠١ م التي شارك فيها لصالح بيزنطة أيضا ، وجد أنه لم يجن شيئا من نضاله من أجل بيزنطة ، فراح يعمل مرة أخرى على تأسيس إمارة لنفسه في بلاد الشام . انظر :

Albert d'Aix, p. 434. Cf. also, J. Hugh Hilland Laurita Hill, Raymond IV Count of Toulouse, Passim

= ومن موقف ريموند من أطماع بوهيمند في أنطاكية وعلاقته بألكسيس كومنين . انظر : جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم ، ص ٢٤٤ وما بعدها .

(الترجمة العربية) .

(٥) لعل كل من روبرت كونت الفلاندرز وروبرت النورماندي أنهما لا يرغبان في العداء المكشوف مع ألكسيس

(٦) يقدم لنا ريموندا جيل ، مرة أخرى ، الآراء غير المسلية لصغار رجال الدين والفرنج . انظر :

Walter Porges, The Clergy, the Poor, and the Non - Combatants on the First Crusade, in Speculum, 21, 1946, pp. 11 - 23.

(٧) تقع معرة النعمان إلى الجنوب الشرقي للبارة وأنطاكية . وقد رحل الصليبيون من البارة في ٢٣ نوفمبر ١٠٩٨ م وحاصروا المدينة في ٢٨ نوفمبر . وفي اليوم التالي ساعدهم بوهيمند في محاولة فاشلة لدخول المدينة . انظر :

Hagenmeyer, Chr., 324, 325, 337

(٨) كان وصف ريموندا جيل لعملية جمع بقايا الطعام في الطريق وصفا إنشائيا مثاليا . وعلى أية حال ، فقد حكم باودلك أرب كان ، الذي كان لا يميل إلى البروفنساليين ، قائلا أنهم ، عاشوا على الكلاب ، وقرروا بأكل لحوم النساء » . انظر :

Radulphus Cadomensis, Gesta Tancredi in expeditione Hierosolymitana, RCH - H. Occ. 3, p. 631

(٩) جوفريه لاستور Geoffrey of Lastours هو لورد لاستور بالقرب من نكسون Nexon (على بعد ...) وموطنه الأصلي ليموزين Limousin . انظر :

Notitiae duae Lemovicenses de praedicatione crucis in Aquitania, RHC - H. Occ., 5, p. 351.

وقد سقطت معرة النعمان في أيدي الصليبيين في ١٩ ديسمبر ١٠٩٨ م / ٩ محرم ٤٩٢ هـ .

(١٠) جاءت سيرة ريموندا جيل لرواية ذبح سكان المعرة وصلبها ، ويبدو أنه خال من الاشارات التي ترد في الكتب العربية .

= لقد أبدى سكان معرة النعمان مقاومة وبأساً شديدين أمام الهجوم الصليبي على مدينتهم . إلا أن رواية ريموند داجيل تركزت على ابراز جهد الفرنج في دخول المدينة . وهي عادته في وصف المعارك بين المسلمين والصليبيين ، وإن كان هو يغالي في ذلك عن غيره من مؤرخي الحملة الأولى . وهنا يفتقد القارئ أسلوب مؤرخ لمؤرخين مثل وليم الصوري ، ويشعر بأهمية وقيمة رواياته فلم ير وليم الصوري غضاضة في إبراز بطولات المسلمين وانتصاراتهم على الفرنج في كثير من المعارك . بينما كانت روايات غيره من المؤرخين اللاتين تقتصر على عدة أسطر فقط إذا ما كان النصر في المعركة التي يتحدثون عنها من نصيب المسلمين . وعلى أية حال . فقد عمد ريموند داجيل هنا أيضا إلى إغفال الوعد الذي منحه الفرنج لسكان المعرة بالأمان إذا ما أقلعوا عن المقاومة ، وغدروا بهم ، ولم يفوا بشيء مما قرروه ، ونهبوا ما وجدوه ، وطالبوا الناس بما لا طاقة لهم به . انظر : ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٦ ، ونلمس نفس المقاومة الاسلامية في معرة النعمان من وصف رادولف أوف كان للمعركة . انظر :

Radulph of Caen, p. 679

وقدر ابن الأثير عدد قتلى المسلمين بمائة ألف قتيل ، بينما قدره ابن العديم بعشرين ألف رجل وامرأة وصبي . انظر : ابن الأثير . الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٠٥ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٤٢ . ولم يعلم المؤرخون اللاتين عن عدد ضحايا المسلمين .

(الترجمة العربية) .

(١١) من المحتمل أن تكون المفاوضات الأولية بين بوهيمند وكونت تولوز قد تمت في ٢٩ ديسمبر ١٠٩٨ م ، وكان رحيل ريموند من المعرة في ١٣ يناير ١٠٩٩ م وكان اجتماع الفرنج في قلعة الروج في ٤ يناير ١٠٩٩ . وبعد فشل الاجتماع الذي عقد لتهدئة بوهيمند ، عاد القادة النورمان إلى أنطاكية ، ويعتقد رنسيمان أن عرض كونت تولوز كان مجرد رشوة . ويرى جروسيه أن ريموند طمع في بيت المقدس في ذلك الوقت ، ورغب في نيل المساعدة من زملائه الفرنج . ونعتقد أن العرض قد قبل وأن التباين في المبالغ التي عرضها ريموند على القادة تعبر عن أهلية القادة . ومازال نوعا النقود التي استخدمها كونت تولوز مجهولين . أحدهما الملجوريين Melgorien التي سكت كونتات ميلجويل Melgueil . والثاني هو عملة سان جيل التي أدعى أن الذي أصدرها هو =

= ريموند الخامس . وكان الصولدي النقد الجيد يساوي مائتي ميلجوريين أو حوالي أربعة ماركات (جنيهان من الفضة) . انظر :

Jean Pierre Papon, Histoire générale de Provence, Paris, 1777, 2, pp. 338, 341, 551, 552. Cf. also Mireille Castaing - Sicard, Monnaies féodales et Circulation monetaire en Languedoc (Xe - XIIIe siècles), cahiers de l'association Marc Bloch de Toulouse, etudes d'Histoire méridionale (Toulouse, 1961), 4.

ولمعرفة التواريخ المذكورة . انظر : Hagenmeyer, Chr., 334 - 335, 339.

(١٢) استعمال كلمة ناهضين (من فراشهم) surgentes لوصف قيام المرضى والضعفاء يشير إلى الجمل مثل (٩ : ٦ - ٨) ، ومن المحتمل أن المؤرخ اقتبس هذا الوصف من كتاب خدمة القداس . انظر :

Rituale Ecclesiae Dunelmensis, ed. J. Stevenson, Surtees Society, London, 1839, 10, p. 37., Rabanus Maurus, On Ezechiel, MPL, 110, Col. 572

ومن المعروف أن تدمير معرة النعمان كان في ٥ يناير ١٠٩٩ م ، أو بعد ذلك بقليل - انظر : Hagenmeyer, Chr., 336.

(١٣) لم يكن خبر أكل لحوم البشر خبراً فريداً هنا . وفي أنشودة أنطاكية أحد من يجلس من الفرنج (بعض تافور Tafurs) ليشوي لحم موتى المسلمين . انظر :

L. A. M. Sumberg, The Tafurs and the First Crusade, MS 21, 1959

La Chanson d'Antioche, ed. Paulin Paris, 1842, 2, pp. 5 - 6.

(١٤) تذكر رواية المؤرخ عن جثث المسيحيين المشرقة رغبته لإظهار علامات الصليب . وهناك روايات تحكي عن رجال عليهم علامة الصليب . فهناك رواية في أخرى المكابيين تذكر وجود (هبات الآلهة المزيفة) donariis idolorum التي تدل على أن الجثث كان عليها علامات . انظر :

Maccabees, II, 12 : 38 - 41.

الفصل الحادى عشر

استئناف الزحف وبداية حصار عرقة

تشجع الباشرون عن الطعام بحسن طالعهم وبشارات الصليب الطيبة ، فتركوا خيمتهم عند كفر طاب على مسيرة أربعة فراسخ من معرة النعمان [1] ، وعاد مع ريموند من كان لهم أصدقاء في معرة النعمان . وفي اليوم المحدد ، رحل الكونت ، كهنته وأسقف البارة ، وساروا حفاة الأقدام يطلبون رحمة الرب وحماية القديسين ، بينما راح اللهب الذي أشعله المسيحيون يعلو أنقاض معرة النعمان ، وفي المؤخرة . سار تانكرد مع أربعين فارساً وكثير من المشاة . وعندما سمع حكام المناطق المجاورة أنباء استئناف الحملة الصليبية أرسلوا نبلاء العرب إلى ريموند بالاستعطافات والعروض الكثيرة والوعود بالاستسلام في المستقبل ، بالإضافة إلى السلع التي يمكن ابتياعها أو الحصول عليها مجاناً [2].

واصلنا سيرنا في أمان معتمدين على وعودهم وتسليمهم رهائن لنا كضمان . ولكننا نعتقد أن الأدلاء الذين أرسلهم لنا حاكم شيزر [3] أساءوا إرشادنا في اليوم الأول لأننا كنا في حاجة إلى كل شيء ، باستثناء الماء ، عند موقع المعسكر ، ولكن في اليوم التالي ، قادنا نفس الأدلاء خطأ إلى واد جمعت فيه ماشية الحاكم وكل المناطق المجاورة ، بسبب الخوف الذي أشعرناهم به . كان حاكم شيزر يدرك منذ زمن طويل اعتزامنا الزحف . فأمر المسلمين بالهرب . ومع ذلك ، فلو أنه أمر الإقليم كله بوقف زحفنا ما استطاعوا ذلك ، لأننا أيضا كانت لدينا معلوماتنا . وفي ذلك اليوم قام ريموند أوف إجيل ورفيق له بأسر رسول الملك ومعه رسائل تحث كل المواطنين على الهرب [4]. وعند سماع الملك خبر أسر رسوله قال : « يا رجالي ، بدلا من الهروب بسرعة أمام الفرنجة كما أمرت ، تقدموا إليهم . ولما كان الرب قد اختار هذا الجنس فلن أقف في طريق رغباتهم » . ثم بارك هذا الحاكم الرب الذي يرزق من يخشونه بحاجاتهم .

وكان منظر هذا القطيع الضخم غير المتوقع من الماشية ، ثم الاستيلاء

عليه ، سيما فى أن فرساننا وميسورى الحال من الناس ، ذهبوا إلى شيزر وحمص ، بأموالهم لشراء الخيول العربية متعللين بأنه : « لما كان الرب قد تولى أمر إطعامنا ، فلنتول نحن أمر الفقراء والجيش » . وهكذا حصلنا على نحو ألف من أفضل جياد الحرب[4] » ويوما بعد يوم ، استرد الفقراء صحتهم ، وأصبح الفرسان أكثر قوة ، وبدا أن الجيش يزداد عدداً ، وكلما زحفنا قدما زادت أنعم الرب علينا ورغم توفر المؤن فقد حاول البعض إقناع ريموند بالتوقف عن الزحف قليلا ، للاستيلاء على جبلة Gibellum ، وهى مدينة ساحلية[5] « لا أن تانكرد وبعض الرجال الشجعان الطيبين الآخرين ، حاولوا دون ذلك ... « لقد زار الرب الفقراء وزارنا ، فهل يجب علينا لذلك أن نتحول عن الرحلة ... كلتا الصعوبات السابقة التى صادفتنا فى معركة أنطاكية والبرد والجوع ، وكل ما عانيناه من المرض الاستثنائى ؟ لماذا يكون علينا وحدنا أن نحارب العالم كله ؟ فكروا قليلا فمن بين مائة ألف فارس لم يكد يبقى إلا أقل من ألف ، ومن بين مائتى ألف من الرجالة المسلحين ، لم يبق للقتال إلا أقل من خمسة آلاف . هل سنظل نشكوا حتى تتم تصفيتنا جميعاً ؟ هل سيأتى المسيحيون من الغرب إذا سمعوا عن سقوط أنطاكية وجبلة وغيرهما من المدن الإسلامية الأخرى ؟ لا ولكن لنزحف إلى بيت المقدس المدينة التى نسعى إليها ، ومن المؤكد أن الرب سيسلمها لنا ، وعند ذلك فقط فإن المدن الأخرى التى تقع فى طريقنا مثل جبلة وطرابلس وصور وعكا سيجلو عنها سكانها خوفاً من موجة الصليبيين الجديدة القادمة من العالم المسيحى »[7]

وفى نفس الوقت ، كان الأتراك والعرب الذين كمنوا فى المزخرة ، يختفون الفقراء الضعفاء ويسطون على أمتعتهم وبعد حادثتين من هذا النوع كمن الكونت فى كمين بينما مر الصليبيون ، ومن ناحية أخرى اندفع المسلمون الذين لم ينالوا عقاباً ، والذين كان يحدوهم الأمل فى الغنائم ، من خلف جيشنا كما فعلوا من قبل . لكنهم فى هذه المرة عندما مروا بخيولهم أمام الكمين ، اندفع ريموند وفرسانه مهاجمين إياهم فأوقعوا الخيل فى صفوفهم ، وقتلوهم وعادوا معنا ، إلى مؤخرة الجيش بخيولهم . وبعد هذه التجربة سار ريموند وعدد كبير من الفرسان المسلحين لحراسة المؤخرة ، وهكذا توقف الأعداء عن اصطياد الفقراء[8] . وفضلا عن هذا الاحتياط ، فقد سار فرسان مسلحون آخرون مع كونت نورماندى ، وتانكرد ولستف البارة . فى الطليعة ، بحيث لا يستطيع العدو أن ينالنا من الأمام أو من الخلف .

ومع بالذكر أن أسقف البارة ترك حامية من سبعة فرسان وثلاثين من ... تحت إمرة وليام لين بطرس آوف كرنيلباكرم ، فى البارة . وبناء على نصيحة الكونت ، الذى كان يريد زيادة عدد الفرسان الذين كانوا يزحفون من معرة النعمان إلى بيت المقدس ، انضم إلى الجيش الصليبى . واستطاع وليام ، وهو رجل ... فى وقت قصير . ويعرف من الرب أن يجعل اقتسام الأسلاب ... أشمال ، وبدلاً من ثلاثين من رجال المشاة أصبح لديه سبعون وأيضا سبعة أو أكثر من الفرسان

... على الإجماع على التحول من دمشق والزحف إلى ساحل البحر لأنه ... يمكننا ... مع طرس واتجرد الأخرى إذا احتجنا إليها ساعدتنا من ... وعندما سلكنا هذا الطريق وجدنا أن الوطنيين هجروا مدنهم وحصونهم ومزارعهم تلك المخازن المملوءة . ثم وصلنا إلى واد خصب جداً بعد أن ... حصن ... مزهوين بأعدادهم وقلعة حصينة ... وهكذا ... إشارة إلى أنهم سيتخلون عن ... على العكس من ذلك ، فإنهم اندفعوا من أعلى جبلهم وهاجموا ... المسلحين والرجالة الذين كانوا يبحثون عن الكلأ هنا وهناك وسط ... وقتلوا عدداً منهم ، وحملوا الغنائم إلى قلعتهم . وسار رجالنا الذين ... ذلك إلى سفح الجبل ، التى بنيت عليه القلعة ، ولكن الوطنيين لم ينزلوا ... وبعد انعقاد مجلس حرب ، شكل فرساننا ومشاتنا صفوفاً ، وتسلقوا الجبل من ثلاث جوانب ودحروا المزارعين وكان ثلاثون ألفا من المسلمين يحتلون

القلعة ما أتاح لهم ، بالإضافة إلى الموقع ، الفرصة للهروب إلى الحصن أو أعلى المنحدرات ، لذلك ، أعاقونا لفترة .

ولكن عندما صحنا صيحة الحرب ، ساعدنا ، ساعدنا يارب ! ، مات حوالى مائة من المسلمين الذين دب فى قلوبهم الرعب ، إما حرفهم الشعب ، أو لضغط زملائهم عند أبواب القلعة . وبالطبع ، فقد جرى خارج السور ، حيث كم تحارب ، نهب شديد للماشية والخيول والأغنام[١٢٠] . بينما كان الكونت ريمون يحشدون فى القتال ، جمع الرهبان منا فى الغنائم وبدأ القتراء ، الراجلون الأمر ثم المشاة الفقراء ، وأخيرا الفرسان الفقراء ، يتركون ميدان المعركة ويهرعون إلى خيامهم على بعد نحو عشرة أميال .

وفى الوقت نفسه ، أمر ريمون فرسانه ورجاله بأن يحفظوا مواقعهم ، ولكن المسلمين ، الذين نزلوا من أعلى الجبل ، مع من كانوا فى القمة ، رأوا صفوف الصليبيين وقد بدأت تخلو من المقاتلين ، فبدأوا يخترقون صفوفهم المفككة تعزيزا لمواقعهم . ولم ينتبه ريمون إلى هذه الاستراتيجية ، وفقد الاتصال تقريبا بفرسانه ، على نحو صحراوى شديد الانحدار مشت فيه الخيول فى خابور فردى . وفى مواجهة هذا الخطر ، تظاهر بالتقدم برجاله كما لو كان سيهاجم الهابطين من أعلى الجبل ، وفى اللحظة الفاصلة التى تردد فيها المسلمون ، استدار الصليبيون وحولوا فى المنطقة الآمنة ظاهريا فى الوادى ، وعندما رأت كتيبتا الأعداء ، هذه المجموعة وكانت إحداهما على الجبل ، والأخرى فى القمة وتداعيتا هبطت من الجبل ، ضموا قواتهم واندفعوا مهاجمين رجال الكونت ، وتحت وطأة الهجوم ، وقع بعض الصليبيين من على خيولهم ، بينما اندفع آخرون فسقطوا عبر أماكن منحدرة ، وهكذا أفلتوا من الموت بأعجوبة ، ولكن البعض ماتوا ميتة بطولية .

وبالتأكيد ، فإن ريمون لم يتعرض أبدا لمثل هذا الخطر الذى كاد أن يفقده حياته ، وهكذا فإنه حنق على نفسه ، وعلى قواته إلى درجة أنه عند عودته إلى الجيش اتهم فرسانه فى العلن بالتخلى عن المعركة بدون إذن وتعريض حياته

للخطر ، وهنا أقسم الجميع على استمرار الحصار حتى يحطموا القلعة وكأنها بركة من الرب ، ولكن الرب مرشد المسيحيين وحاميهم من كل الكوارث ، ألقى الرعب فى قلوب المدافعين ، حتى أنهم فى تعجلهم الفرار ، تركوا موتاهم بدون أن يدفنوهم ، وفى الصباح لم يكن فى انتظارنا إلا غنائم الحرب وقلعة يسكنها الأشباح .

وتأثر سفيرا أمير حمص[١٢١] وملك طرابلس ، اللذين كانا فى المعسكر فى ذلك الوقت ، بنظر شجاعتنا وقوتنا ، حتى أنهم توسلا إلى ريمون أن ينصرفوا على وعد بالعودة سريعا . وبعد رحيلهم بفترة قصيرة مع مبعوثينا ، عادوا بهدايا فضة وخيولا كثيرا . وكان ذلك بسبب الخوف الذى سيطر على المنطقة كلها بعد استيلائنا على القلعة التى لم يكن أحد يستطيع اختراقها من قبل ، فضلا عن ذلك ، فإن سكان الإقليم بعثوا برسالة إلى ريموند مع هداياهم والتماسات يطلبون منه أن يرسل راياته وأختامه حتى يضمن سلامتهم وقلاعهم . وأذكر أنه كانت هناك عادة فى جيشنا تقضى باحترام راية أى إفرنجى وعدم الهجوم بعد ذلك ، وهكذا وضع ملك طرابلس رايات الكونت على قلاعه .

ونتيجة لهذا التحول بدا أن شهرة كونت تولوز لم تكن تفوقها شهرة أى قائد قبل ذلك ، وفى رحلة فرساننا إلى طرابلس بصفتهم مبعوثين ، انبهروا من الثراء الملكى والممتلكات الغنية والمدينة المزدحمة بالسكان ، لذلك فإنهم أقنعوا ريموند بأن ملك طرابلس سوف يمنحه خلال أربعة أو خمسة أيام الذهب والفضة بما قدر به له ، إذا حاصر عرقة ، وهى موقع يتمتع بدفاع قوى ولا يمكن أن تتغلب عليه القوة البشرية ، وبناء على رغباتهم ، حاصرنا عرقة فجعلنا ندفع ثمنا باهظا ومتاعب لم يعرفها أحد ، ويحزننى أن أقول أننا تحملنا خسائر فادحة منها الكثير من الفرسان البارزين وقد مات أحد هؤلاء الفرسان هو بونز أوف بالازون بسبب صخرة أطلقت عليه من مقلاع للحجارة ، وكانت توسلاته هى التى جعلتنى أواصل هذا العمل الذى تحدثت عنه ، كتابته لكل مستقيمى العقيدة ، خاصة من يعيشون عبر جبال الألب ، ومن أجلك أنت ، يا أسقف فيفيه المحل .

وسأحرص بوحي الرب الذي هو الصانع الحقيقي لهذه الأحداث . على أن أكمل بقية رواياتي بنفس الحب الذي بدأت به دافعا وواجبا أن يحق كل من سمع هذه الأشياء في حقيقتها وليشتلني الرب بأهوال الجحيم ، ويمحو اسمي من سجل الأحياء ، إذا أضفت - بدافع من التحمس أو الكراهية لأي شخص - أي شيء إلى هذا الكتاب ، غير ماسمعته أو رأيته [١٣٢] . ورغم جهلي بأشياء كثيرة فإنني أعرف أنه من واجبي - منذ تقدمت إلى الكهنوت على صليب الرب - أن أطيع الرب وأحكي الحق ولا ألفق الأكاذيب . وأود أن أستمر بنفس الود وبنفس المحبة في سرد تاريخي كما حث بولس على ذلك عندما قال أن « المحبة لاتسقط أبدا » وليساعدني الرب [١٤٤] .

أثناء الحصار المطول كانت سفننا القادمة من أنطاكية واللاذقية مع السفن اليونانية وسفن البنادقة ترسو وبها حبوب ، ونبيذ ، وشعير ، ولحم خنزير ، وسلع أخرى يمكن تسويقها . ومع ذلك ، فإن البحارة سرعان ما أبحروا عائدين إلى موانىء اللاذقية وطرسوس ، نظراً لأن عرقة كانت تقع على بعد ميل من البحر ولم تجد السفن مكانا ترسو فيه [١٥٠] . وكان المسلمون قد هجروا - قبل حصار عرقة - طرسوس ، وهي مدينة جيدة التحصين بأسوار داخلية وخارجية . كما كان بها قدر كبير من الثروة ، وقد تركوها بسبب الخوف الذي بثه الرب في قلوب المسلمين والعرب في هذه المنطقة . وهو خوف جعلهم يعتقدون أننا كنا نتمتع بقوة كبيرة ونعتزم تدمير بلادهم بلا رحمة .

ومع ذلك فإن الرب ، الذي لم يشأ أن يساعدنا في حصار قمنا به في سبيل مصالح ظالمة وليس في سبيله ، أمطرنا بكل أنواع المصائب . ومن الغريب ، أن المسيحيين الذين كانوا يتشوقون من قبل إلى المعارك ويتحمسون لها ، أصبحوا الآن لايميلون إلى القتال ولا يتحمسون بالحيوية . وصار جنود المسيح الشهيرين الذين حاولوا عمل كل شيء ، إما جرحى أو وجدوا أن لا طائل من وراء جهودهم

وفي حصار عرقة مات أنسلم أوف ريبمونت ميتة مجيدة [١٩١] ، فقد

استيقظ ذات صباح واستدعى الكهنة إليه واعترف بزلاته وآثامه ، وطلب الرحمة من الرب ، وأخبر بأنه على وشك الموت . وبينما وقفوا وقد صدمتهم هذه الأنباء حيث أن أنسلم بدا سليماً معافياً حدث بهم ، لا تندهشوا واستمعوا لي : « ففي الليلة الماضية رأيت اللورد إنجلراند من سان بول ، والذي مات في معرة النعمان ، وسألته وأنا في كامل وعيي : « ماذا يجري هنا ؟ لقد مت والآن ها أنت حي » [١٦٢] .

« ورد لورد إنجلراند : « إن الذين يموتون في خدمة المسيح لا يموتون أبداً » .

تساءلت مرة أخرى عن مصدر بهائه غير العادي ، وأجاب قائلاً : « ليس في هذا مايدهش حيث أنني أعيش في دار جميلة » . وفي الحال أراني بيتاً في السماء جميلاً جداً لم أر مايضارعه . وبينما وقفت مذهولاً بهذا المنظر ، قال لورد إنجلراند : « إن هنالك بيتاً أحسن منه كثيرا يُعدّ لك هنا » . وبعد ذلك صعد .

بعد هذه الحكاية التي انتشرت على نطاق واسع ، تقدم أنسلم في نفس اليوم لقتال بعض المسلمين الذين تسللوا خارجين من قلعتهم ، على أمل أن يسرقوا شيئاً أو يصيبوا شخصاً . وفي الاشتباك الذي جرى ، قاتل أنسلم بشجاعة ، إلا أنه أصيب في رأسه بحجرة من منجانيق ، فترك هذا العالم ليعيش في بيت السماوي الذي أعدّ الرب .

بعد ذلك أتى إلى عرقة مبعوث من عند ملك بابيلون (مصر) مع مبعوثينا الذين أطلق سراحهم والذين كانوا أسرى عنده لمدة عام . كان هذا الملك مازال مترددا بين أختيارنا أو اختيار الأتراك . فعرضنا على مبعوثه هذه الشروط : إذا هو ساعدنا في بيت المقدس أو أعاد إلينا بيت المقدس وما يتبعها ، فإننا سنعيد إليه مدنه السابقة التي كان الأتراك قد انتزعوها منه ، في حالة استيلائنا عليها . وبالاضافة إلى ذلك فإننا كنا سنقسم معه كل المدن التركية الأخرى التي لا تقع في نطاق ممتلكاته ولكن يكون الاستيلاء عليها بمساعدته .

وسرت شائعة بأن الأتراك قد وعدوا ، بأنه إذا تحالف معهم ملك مصر ضدنا فإنهم سيعودون عليا ، قريب محمد [صلى الله عليه وسلم] الذى كان يعيده ، وسيتقبلون عمله ، ويدفعون له جزية ، ويوافقون على تنازلات أخرى غير معروفة لنا .

وعرف ملك مصر ، بسبب رسائل من ألكسيوس تضمنت معلومات عنا وجدناها فى خيامه بعد معركة عسقلان ، أن جيشنا كان صغيراً ، وأن الإمبراطور كان يتآمر لتدميرنا . ولهذا - ولأسباب أخرى - احتجز مبعوثينا لمدة عام فى مصر . أما الآن ، فعندما وصلته تقارير عن دخولنا أراضيه ، وما صحب ذلك من تدمير لقراه ، وحقوله ، وكل شىء آخر ، أبلغنا أنه يمكن لمائتين أو لثلاثمائة منا أن يذهبوا كل مرة وبغير سلاح ، إلى بيت المقدس ، ويعودوا بعد عبادة الرب . وثقة منا فى رحمة الرب رفضنا العرض ، وأبلغناه أنه إذا لم يعد إلينا بيت المقدس بغير تحفظات ، فإننا سنزحف على مصر[..] .

أذكركم أن الأمير الذى كان يحتل بيت المقدس فى ذلك الوقت ، لأنه عندما تلقى أخبار الكارثة التركية فى أنطاكية ، فقد حاصر بيت المقدس وهو يعرف أن الأتراك الذين كثيراً ما كانوا ينهزمون سيعادون لن يحاربوه . وقد تسلم بيت المقدس بعد أن أعطى للمدافعين عنها عطايا عظيمة ، ثم قدم قرابين من الشموع والبخور عند القبر فوق جبل Calvary (الجلجثة أو الجماجم) .

ولكن لنعد إلى حصار عرقة ، فكما قلنا ، فى حصار انشغال جيشنا هناك ، أتت أنباء بأن بابا Pope الأتراك (الخليفة العباسى) وقف فى كثرة كثيرة ، لأنه كان من ذرية محمد (صلى الله عليه وسلم) كانوا فى طريقهم لقتالنا . ووضع الجيش فى حالة تأهب للقتال . وتم إرسال سفارة إلى جودفرى وكونت الفلاندرز فى جبلة ، وهى حصن يطل على البحر ، فى منتصف الطريق بين عرقة وأنطاكية ، وعلى مسيرة يومين تقريباً من كل منهما ، ولكن فى هذه الأثناء علمنا أن الأمر كان مجرد إشاعة زائفة روجها المسلمون ليرعبونا ، فيثيروا راحة من الحصار[99] . وبعد تجمع الجيوش ، وراح بعض حاشية الكونت يتباهون

بخيولهم العربية ورواتبهم [illegible]

واجهوا الموت من أجله . ومع ذلك ، فقد كان هناك البعض عن زعموا أنهم كانوا فى فقر مدقع .

وهكذا فبسبب العدد الكبير من الفقراء والضعفاء ، كان هناك حث للفقراء على تقديم عُشر غنيمة الحرب . وكان التقسيم الذى سُمح به كما يلى : الربع للكهنة الذين يقيمون القداسات ، والربع للأسقف ، والنصف لبطرس الناسك الحارس المرخص له بحماية الفقراء ، ورجال الدين ، وعامة الناس . وأعطى بطرس بدوره من هذا المبلغ لرجال الدين وللعامة . وبالتالى فإن الرب ضاعف من عدد الخيول والجمال ولوازم الجيش الأخرى ، حتى أخذ العجب والدهشة من الصليبيين كل مأخذ . وكان هذا الرخاء المفاجىء سبباً فى النزاع بين القادة وعجرفتهم أيضاً ، إلى درجة أن أشد المسيحيين إخلاصاً للرب ، تطلعوا إلى الفقر وإلى أن يهددنا القتال الرهيب .

وعرض علينا ملك طرابلس خمسة عشر ألف قطعة من الذهب من أموال سنجيل ، فضلاً عن الخيول والبغال والملابس الكثيرة ، بل والمزيد من هذه الهدايا فى السنوات التالية . ولكى تفهم معنى هذا العرض ، فإن قطعة ذهبية واحدة كانت تساوى ما بين ثمانية وتسعة من العرفلدى Solidi . كانت الأموال المتداولة بيننا تشمل البيكتافانى (بواتو) والكارتنسى (شارتر) والمانسى (مانز) والوكنسيس (لوكويس) ، والفالانزى (فالنس) والميلجو وبتنسيس (ملجويل) والبرجيزى (بويه) . والإسمان الأخيران كانا يستخدمان بدلاً من الأسماء الأخرى . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن سيد جبلة خوفاً من حصار آخر ، أرسل إلى قادتنا ضريبة قدرها خمسة آلاف قطعة ذهبية ، وخيولاً ، وبغالاً ، وكمية وافرة من النبيذ[4] .

وأصبحت لدينا مؤن كافية لأن الهدايا كانت ترسل إلينا من القلاع والمدن الأخرى غير جبلة ، وفضلاً عن ذلك ، فإن بعض المسيحيين ، بدافع من الخوف أو

المعصى لطريقتنا في الحياة ، تنصّروا . وبسبب هذا الثراء الجديد ، أرسل كل واحد من أمرائنا الرسل بالرسائل إلى المدن الإسلامية يبلغها أنه هو سيد الصليبيين . هكذا كان سوء سلوك أمرائنا في ذلك الوقت ، وكان تانكرد من أكبر مثيري الفتنة . وتذكرون أن تانكرد كان قد قبل خمسة آلاف صولدي ، وحصانين عربيين من سلالة ممتازة ، من ريموند ، مقابل خدماته أثناء الرحلة إلى بيت المقدس . لكنه الآن كان يريد أن ينضم إلى قوات جودفري . وهكذا دبّ النزاع بينه وبين ريموند ، وأخيراً تخلى تانكرد في خسّة عن الكونت .

• • • • •

هوامش الفصل الحادي عشر

(١) كفر طاب ، بلدة صغيرة من جند حمص قربى حلب ، على الطريق بين معرة النعمان وشيزر ، منها وبين المعرة وشيزر إثنا عشر ميلا . انظر : القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ١٤ جـ – القاهرة ١٩١٣ – ١٩٢٢ ، جـ ٤ ، ص ١٢٥ .

(الترجمة العربية)

(٢) كانت حالة التفكك على الجبهة الإسلامية أقوى من أن يتحرك حكام الشرق الأدنى الإسلامي متحالفين لمواجهة الغزو الصليبي للمنطقة ، أو أن تحركهم المقاومة الباسلة التي أبداها أهل البارة ثم عرقة بعد ذلك ، للتصدي للفرنج . فأسرعت الأسرات العربية المحلية بالشام إلى إظهار الاستعداد لعقد اتفاقات مع الفرنج ، فنجد أمراء حماة وحمص يتخلون عن فكرة مقاومة الصليبيين ، ونجد أمراء شيزر من بني منقذ يمدون الفرنج بالأدلاء يرشدون الطريق إلى الساحل ، ثم أمراء طرابلس من بني عمار ، يمدون الفرنج بالمؤن ، ويعطون لهم تعويضات مالية ، ويطلقون أسرى الفرنج الذين كانوا في حوزتهم . وللمزيد عن رحلة الصليبيين ، التي تعتبر رواية ريموند أجيل منها من أوفى الروايات وأكثرها تفصيلا ، انظر : Gesta Francorum, pp. 73 - 87

وأيضا :

Albert d'Aix, pp. 453 - 463; Raoul of Caen, pp 680 ff. Tudebod, De Hierosolymitano itinere. RHC - H Occ. III. pp. 210 - 212

راجع أيضا ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ١١٥ – ١١٧ ، ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٦ – ١٣٧ .

(الترجمة العربية)

(٣) من المحتمل أن رحيل كونت تولوز إلى كفر طاب كان في ٨ يناير ١٠٩٩م . وتقع قلعة شيزر جنوبي معرة النعمان . وفي ذلك الوقت كان يحكم فيها أسرة بني منقذ وكان أميرها هو عز الدين أبو العساكر سلطان . انظر :

René Grousset, Histoire des Croisades et du royaume franc de Jérusalem, Paris, 1934, I, p. 126. Hagenmeyer, Chr., 338, 341

(٤) ريموند أوف إل Raymond of Isle . لم يكن من السهل التعرف على شخصية هذا الصليبي ، ومن المحتمل أن يكون من إقليم Isle Jourdain . فقد رافق كونت تولوز —

عدد من فرسان هذه المنطقة . ونعرف أن هناك من بعض مرؤوسه وتوابعه Raymond Bertrand من هذا الاقليم مع البروفنساليين . انظر :

Histoire générale de Languedoc, 3, p. 494.

(٥) كاميلا Camela هو الاسم اللاتيني القديم لإميسا Emesa وهي حمص Homs الحالية انظـــــر :

Anonymi Gesta Francorum et aliorum Hierosolimitanorum, ed. H. Hagenmeyer, Heidelberg 1890, p. [illegible], 10, n. 43

(٦) وجبيلوم Gibellum هي جبلة Jabala القديمة . وهي ميناء يقع بالقرب من اللاذقية وأنطرطوس ، وقد علقنا على حدث المؤرخ في كتابنا : Raymond IV, pp. 103-115 ولا نولي روايته الثقة الكاملة .

- وجبلة ، قلعة على الساحل الشامي بينها وبين اللاذقية اثنا عشر ميلا من جهة الجنوب . وبينها وبين أنطاكية ثمانية وأربعون ميلا » . انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٤٨ - ١٤٩

(الترجمة العربية) .

(٧) عكا مدينة ساحلية قديمة (Ptolemais) وصور مدينة ساحلية في بلاد الشام ، تقع جنوبي طرابلس . انظر مايتقدم ، فصل ١٣ ، حاشية رقم (٩) .

(٨) وصف المؤلف لهذا الكمين مطابق تماما لروايته عن الكمين السابق الذى نصبه البعلبكي . انظر ما سبق ص ٩٩

(٩) كان يحكم في دمشق في ذلك الوقت دقاق بن تتش السلجوقي شقيق رضـــوان صاحب حلب . انظـــــر :

Hamid Fink, The role of Damascus in the History of the Crusades. in M.W. [illegible] 3, 1959

وكان وليم أوف كرنيلياكوم Willem of Cornilliacum شخصاً مغموراً غير معروف ويشير HGL 3, p. 523 إلى فارس من كرنيلياك Cornilhac أو كنيلياك Conillac .

(١٠) هذه القلعة هي كرك الفرســــــان Krak des Chevaliers أو حصن الأكراد . ولا تزال هذه القلعة قائمة في سوريا ، وهي إحدى أشهر الآثار الصليبية . انظر :

René Dussaud, Topographie Historique de la Syrie antique et médiévale, Paris, 1927, p. 92; Paul Deschamps, Les Chateaux des croisés en Terre Sainte, Le Crac des Chevaliers, Paris, 1934, pp. 113 - 135.

وكانت الإغارة والاستيلاء على القلعة في ٢٨ - ٢٩ يناير ١٠٩٩ م .

(١١) « ساعدنا يارب » تعبير مقتبس ، انظر : Breviarium, Verona, p. 231.

(١٢) كان أمير حمص في ذلك الوقت هو جناح الدولة خلف بن ملاعب الذى عينه صاحب حلب شرف الدولة مسلم العقيلي واليا على حمص في ١٠٨٢م / ٤٧٤ هـ ، ليكون بمثابة حاجز بينه وبين تاج الدولة تتش السلجوقي ، وبقى ابن ملاعب في حمص حتى اغتاله الباطنية في عام ١١٠٣م / ٤٩٦ هـ . انظر : ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص [illegible] ، ٩٥ ، ٣٢٨ - ٣٢٩ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٧ ، [illegible] ص ١٣٣

(الترجمة العربية) .

(١٣) [illegible] بأن يجرى [illegible] من عمل الأعداء مقتبس من المزامير ومن سفر الخروج [illegible] Psalm. 68 : 28, Exodus, 32 : 32

(١٤) [illegible] تعبير مقتبس من رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس التي وردت في العهد الجديد ، انظر : Corinthians 15 : 9

[illegible] واحكام [illegible] ولجئ لأسلوب رونتاجيل في تشجيع الأعمـــــال .

(١٥) اللاذقية مدينة ســـاحلية Laodicea وانطرطوس Tortosa أيضا مدينة ساحلية في [illegible] Antaradus ، وعرقة Arqa ، [illegible] ، تتحكم في الطرق المؤدية إلى كل من طرابلس وبلاد [illegible] وحمص ، ومن الواضح أن الفرنج لم يطولوا الأهداف العسكرية لهذه [illegible] ، وقد بدأ حصار الفرنج لعرقة في ١٤ فبراير ١٠٩٩ م . انظر :

Hagenmeyer, Chr., 352

- يذكر القلقشندى أن اللاذقية ، أجل مدينة بالســـاحل منعة وعمارة ، ولها ميناء حسن ، وبينها وبين أنطاكية ثمانية وأربعون ميلا » ، بينما يذكر بالمرث العسوى أن أنطرطوس ، مطلة على البحر في شرقي عرقة بينهما ثمانية فراسخ ولها برجان حصينان كالقلعتين » . ويذكر بالمرث أيضا أن عرقة ، بلدة في شرقي طرابلس ، بينهما أربعة

= فراسخ ، وهي آخر أعمال دمشق ، وفي سفح جبل ، بينها وبين البحر نحو ميل وعلى جبلها قلعة . انظر: القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٤٥ . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٦٤٣ .
(الترجمة العربية) .

(١٦) أنسلم أوف ريبمونت Anselm of Ribemont هو راهب ريبمونت ، وهو إقليم يقع في وادي أويز Oise بالقرب من سان كوينتن بفرنسا . وهو صاحب رسالتين شهيرتين تتعلقان بالحملة الصليبية الأولى ، انظر .

Hagenmeyer, Epistulae, pp. 156 ff.

(١٧) لورد إنجلراند Lord Engelrand شخص لم يتم التعرف عليه ويستخدمه المؤرخ ليضفي إلى قصته لمسة واقعية . ويستخدم إقتباسات من القداس ، وعلى سبيل المثال . يسأل أنسلم لورد إنجلراند « ماذا يجري هنا ! لقد مت . والآن ها أنت حيا » ولاشك أن المقتبس هنا التعبير من سفر الرؤيا . انظر

Apocalypsis Beati Joannis Apostoli, I, 18

(١٨) عن البعثة الصليبية إلى القاهرة ، انظر حاشية رقم ٦ من الفصل الخامس . وفي ٢٦ أغسطس ١٠٩٨م قام الأفضل شاهنشاه (الوزير الفاطمي) بالاستيلاء على بيت المقدس من حكامها الأتراك سقمان وإيلغازي بن أرتق بعد الرفض الصليبي السابق لعرض الأفضل بتقسيم الشام وفلسطين بينه وبينهم ، ويكشف المؤرخ هنا عن العداء بين الأتراك والفواطم .

- سبق أن ناقشنا القضية التي تتعلق بموقف الفواطم من الحملة الصليبية الأولى . انظر ما سبق ، الفصل الخامس - حاشية رقم (٦) . أما عن رواية ريموندأجيل هنا ، فليس هناك مايثبت حقيقتها . في الوقت الذي يتوفر لدينا مايدفع إلى عدم الأخذ بها أو الالتفات إليها . فكل مايرويه ريموندأجيل لم يرد عند سواه من مؤرخي الحملة المعاصرين ، وخاصة مؤلف أعمال الفرنجة الذي لازم الحملة حتى بيت المقدس منفصلا عن سيده بوهيمند الذي بقي في أنطاكية . ولو كانت البعثة الفرنجية قد عادت إلى عرقة ، أو كانت السفارة الفاطمية أو مثيلتها التركية المشار إليهما في النص قد وصلتا بعروضهما إلى المعسكر الصليبي عند عرقة لكان مؤلف حتما ذكر ذلك ليؤكد روايته الأولى عن وجود السفارة الفاطمية خارج أنطاكية من قبل . وإذا كان رنسيمان يسرد رواية =

= ريموندأجيل كاملة على أنها حقيقية ، وإذا كان رنسيمان أيضا يحاول تأكيد رواية المؤرخ بتوثيقه إياها بكتاب وليم الصوري إلى جانب كتاب ريموندأجيل ، فمن السهل الرد على ذلك بأن وليم الصوري نقل روايته عن ريموندأجيل . وربما تقوم حقيقة واحدة في أن السفارة الفرنجية ربما تكون قد عادت بطلب الأفضل بعدم تعرض الفرنج لأملاكه في فلسطين وخاصة بيت المقدس ، على أن يتمتع هؤلاء بحق الذهاب إلى المدينة مثل غيرهم من المسيحيين لأداء طقوس عبادتهم تسامحا من السلطات الاسلامية في مصر ، الأمر الذي كان سائدا قبل وصول الفرنج إلى بلاد الشام . أما عن تواطؤ الامبراطور البيزنطي الذي أشيع عثور الفرنج على مراسلاته للفواطم ، فإن المراسلات كانت تصل إلى القاهرة وليس إلى عسقلان . كما أنه من السهل الوقوف على نوايا المؤرخ ومحاولته إدانة الامبراطور البيزنطي بتهمة الخيانة منذ دخول الفرنج أراضي دولته . انظر :

Runciman, op. cit., Vol. I, pp. 272 - 273.

(الترجمة العربية) .

(١٩) يشير ريموندأجيل إلى خليفة بغداد على أنه البابا بالنسبة للأتراك . وكان الخليفة العباسي وقتذاك هو الخليفة المستظهر (١٠٩٤ - ١١١٨ م) . وكانت السلطة الفعلية في أيدي السلطان السلجوقي . ويتهم ألبرت دكس كونت تولوز بأنه تلقى رشوة من حاكم جبلة حتى يغري كلا من كونت الفلاندر وجودفري بعدم التعرض للمدينة . ومن ناحية أخرى . نجد أن [illegible] روابة ريموندأجيل حين ذكروا أن المسلمين أنفسهم [illegible] سببا قويا للشك في رواية المؤلف . وقد غادر جودفري وكونت الفلاندر جبلة في ١٢ مارس ١٠٩٩م . انظر :

Hagenmeyer, Chr., 360.

(٢٠) Charles du Fresne du Cange, Monetx, Glossarium mediae et infimae Latinitatis, Niort, 1883 - 1887, 4, p. 327

الفصل الثاني عشر

رؤى ومحنة الحربة المقدسـة

أعلنتُ الآن رؤى كثيرة أرسلها إلينا الرب ، وسأحكي ، أنا مؤلف هذا الكتاب ، الرؤيا التالية تحت اسم الشخص الذي شهدها .

« في عام ١٠٩٩م ، في الخامس من أبريل وبينما كنت أنا ، بطرس بارثولوميو ، أستريح في معقل الكونت ، أثناء حصار عرقة ، فكرت في الكاهن الذي تجلّى له الرب ، بالصليب في زمن حصار كربوغا ، ولما تساءلت لماذا لم يتجلَّ لي على الصليب ، أنظر إلي : لقد رأيت الرب والرسولين ، بطرس وأندرو ، وشخصاً غريباً ، ضخم الجثة ، قاتم البشرة ، كبير العينين ، أصلع تقريباً ، يدخلون المصلى

ثم سألني الرب : « ماذا تفعل ؟ » فأجبت : « إنني أقف هنا » .

واستأنف الرب كلامه قائلاً : « لقد غلبتك الآلام تقريباً ، كالآخرين ، ولكن متى أنكرتك الآن ؟ » .

فأجبت : « رب ، يا أيها الأب ، لقد كنت أفكر في الكاهن وظهورك على الصليب له » . فقال الرب : « إنني أعلم ذلك » ، واستمر يقول : « آمن بأنني أنا الرب الذي جئت من أجله تحمل الصليب ، وأنني تحملت الآلام على الصليب في بيت المقدس ، من أجل خطاياك ، وإذا آمنت بذلك فسوف ترى » .

« ثم رأيت صليباً مصنوعاً من قطعتين من الخشب الأسود المشعر المصقول ، مركباً بشكل سيء باستثناء الوصلات المسننة التي تدعمه عند المنتصف » .

وأمرني الرب قائلاً : « أنظر على الصليب الذي تبحث عنه ، وهناك على الصليب كان الرب ممتداً ومصلوباً ، تماماً كما هو في الآلام وكان بطرس يسنده عن يمينه وأندرو عن شماله يمسك كتفيه والغريب من خلفه يسنده بيديه (١)

• واستمر الرب فى إعطاء تعليماته : « أبلغ شعبى بهذه الرؤيا . هل ترى جراحى الخمسة ؟ كهذه الجراح يقف الصليبيون فى خمسة صفوف [1] . ولا يخشى الذين فى الصف الأول الرماح ولا السيوف ، ولا أى نوع من العذاب ، ويشبهنى الذين ذهبوا إلى بيت المقدس دون أن يخشوا السيوف والجراح والهراوات والعصى ، وحتى الصليب . إنهم يموتون من أجلى كما مت من أجلهم ، وربما تسكن روحنا الواحد منا الآخر . وعند موتهم سيجلسون إلى يمين الرب ، فى المكان الذى جلست فيه بعد قيامى وصعودى [2] . أما الذين فى الصف الثانى ، لأنهم مساعدون للذين فى الصف الأول ، وهم حرس مؤخرة ووقاية فى حالة الفرار ، وهذا الصف - يمكن أن أقول يشبه الرسل الذين تبعونى وتركونى وحدى . أما الذين فى الصف الثالث ، يعملون فى الإمداد ، ... الأحجار والرماح وهم يذكروننى بأولئك الذين راحوا يضربون صدورهم ويصرخون فى مواجهة الظلم ، وأنا معلق على الصليب أعانى من الآلام [3] . أما الذين فى الصف الرابع ، أغلقوا على أنفسهم بيوتهم واهتموا بشئونهم الخاصة ... الحرب ، لأنهم يعتقدون أن النصر لا يمكن فى قوتى أنا بل فى الحكمة البشرية أنهم يشبهون من صلبونى قائلين « إنه يستحق الموت ، خذوه إلى الصليب لأنه يزعم أنه ملك ، وأنه ابن الله » [4] . أما الذين فى الصف الخامس ... سمعوا جلبة المعركة نظروا إليها عن بعد ، وبحثوا عن سببها ، وأظهروا جبناً بدلاً من الشجاعة ، ولم يدخلوا فى أى مجازفة من أجلى ، أو من أجل إخوتهم . والواقع ، أنهم تحت قناع الحلم يسخرون من يرغبون فى خوض القتال أو على الأقل فى تقديم السلاح بأن يحشروا على جباه ... بالحوت يهوذا والقاضى بونطيوس بيلاطس » .

• كان الرب معلقاً على الصليب عارياً إلا من خرقة على وسطه تحت قلنسوة وأصر تحته شرائط بيضاء وحمراء وخضراء ، ... تمتد من خاصرته إلى كتفه [5] . وبعد ذلك اختفى الصليب ، وبقى الرب فى ملابسه السابقة . فقلت له : « سيدى الرب ، إذا أحد ... لن يصدقونى » .

« ورد الرب قائلاً : « هل تريد أن تعرف المشككين ؟ » فأجبت قائلاً : « إننى أريد ذلك فعلاً » .

وهنا أمرنى المسيح قائلاً : « اطلب من الكونت أن يستدعى القادة والعامة معاً ، ويجعلهم يصطفون كما لو كانوا فى قتال أو حصار ، وفى الوقت المناسب اطلب من أحسن المنادين أن يطلق صيحة القتال « ساعدنا يارب » ثلاث مرات ، واطلب منهم أن يحاولوا استكمال النظام العسكرى ، وعندئذ ، كما قلت لك ، ستبرز الصفوف وستعرف على المؤمنين وغير المؤمنين » .

ثم سألت « ماذا ستفعل بالمشككين ؟ » فأجاب الرب : « لا تظهر لهم أى رحمة . اقتلوهم إنهم من خانونى ، إخوة يهوذا الاسخريوطى ، واعطوا ممتلكاتهم الدنيوية لأول صف وفقاً لاحتياجاتهم ، وبهذا العمل ستجدون الطريق الصحيح الذى كنتم حتى الآن تتحيرون حوله ، وكما تحققت التجليات الأخرى كما تنبأت بها ستتحقق هذه ، وبهذه المناسبة هل تعرف الجنس الذى أحمل له تقديراً خاصاً ؟ » .

وأجبت قائلاً : « الجنس اليهودى » .

فقال الرب : « إننى أحمل الكراهية لهم بصفتهم كفاراً ، وأضعهم مع أحط الأجناس [6] لذلك تأكدوا من أنكم لستم كفاراً ، وإلا ستكونوا مع اليهود وسوف آخذ شعباً آخر وأحقق لهم وعودى التى وعدتكم بها » .

ثم أمرنى الرب بأن أحكى ما يلى للصليبيين « لماذا تخافون إقرار العدالة ؟ مترفى أسألكم ما الذى يفوق العدالة ؟ إننى أريدهم أن يفعلوا ما يلى : يعيشوا لعدة بالأسر والأقارب ، وإذا ارتكب شخص جرماً فى حق آخر فليسأل القاضى : أيها الأخ هل تحب أن تعامل هذه المعاملة ؟ وإذا استمر المعتدى فليحكم عليه وفقاً لحقه القانونى . وبناء على ذلك فليشعر القاضى بحريته فى أن يستولى على كل ممتلكات المذنب عليه ، فيعطى نصفها للمدعى ، ونصفها للسلطات . وإذا قال القاضى كلاماً يحتمل معنيين ، لأى سبب من الأسباب ، فاذهب إليه وأخبره أنه

إذا لم يُصلح ذلك الأمر ، فلن يتحمل منه حتى إلى نهاية العالم ، إلا إذا حللته أنت . هل تعرف كم يكون الحرمان عبئاً ثقيلاً ؛ لقد أمرت آدم ألا يلمس شجرة المعرفة أي الخير والشر [٤٨] ، وخالف أمري ، وهكذا ظل هو وذريته في قيود نفسه ، حتى أتيت في شكل إنسان فانحلت قيودهم بحلّي . وسأقول أن البعض ينبغي أن يأخذ من العشور لأنهم أعطوا كما أمروا ، وسأكافئهم وأحملهم من المتفرقين » .

وبعد كلام الرب طلبت منه أن يحسد إليّ يعطف من قلبه معرفة الخدمات (الصلوات) التي أخذت مني حديثاً في أنطاكية . وهنا سألني الرب « ألا تكفي معرفتك لكي تحكي ماتعرف ؟ ومع ذلك فإنك تريد أن تعرف المزيد » . « وفجأة أصبحت أثق في حكمتي ولم أطلب شيئاً آخر ؟ » وأجبت : « إنها كافية » . ثم استأنف الرب كلامه قائلاً . « ماذا أخبرتك ؟ أجب » . ووجدتني الآن لا أعرف شيئاً . وعندما ألحّ عليّ لأكرر كلمات اعترفت : « يارب أنا لا أعرف شيئاً » ورد الرب : « اذهب وأحك ماتعرفه وسيكون هذا كافياً » .

وعندما حكينا هذه الأشياء للإخوة ، قال البعض أنهم لن يصدقوا أبداً أن الرب قد أجرى حواراً مع رجل كهذا ، متغاضياً عن الأمراء والأساقفة ، ومُظهراً نفسه للفلاح جلف أميّ . بل إنهم تمادوا حتى راحوا ينقون بالشكوك حول الحربة المقدسة ، بالتالي جمعنا أولئك الذين كُشِفَتْ الحربة أمامهم من قبل ، ثم استدعينا أرنولف القسيس الخاص بكونت نورماندي ، وزعيم المشككين في الرؤيا ، رغم أنه كان يتمتع باحترام كبير بسبب علمه [٤٩] . ثم سألناه عن شكوكه .

وأجاب بأنه كان يشكّك ، لأن الأسقف أدهيمار كان قد تشكّك في حقيقة الحربة . وهنا أجاب كاهن هو بطرس ديسيديروس : « بعد موت أدهيمار رأيته هو والمبارك نيقولاس ، وقال لي أخيراً : إنني أقيم في الضيافة السماوية للقديس نيقولاس ولكن لأنني ترددت في الإيمان بحربة الرب ، بينما ، كان ينبغي أن أقبلها أنا بالذات من دون الناس ، فقد أُخذت إلى الجحيم [٥٠] ، وأُحرِقَ الشعر

الذي كان على الجانب الأيمن من رأسي ونصف لحيتي . ورغم أنني لا أعاقب الآن ، فإنني لا أستطيع أن أرى الرب بوضوح حتى النمو الكامل لشعري ولحيتي من جديد » [٥١] .

وروى لنا بطرس ديسيديروس هذه الرؤيا ، ورؤى أخرى كثيرة تختلف فيما بعد ولكننا سنحكيها في وقتها .

وتقدم إيبرار وهو كاهن ، وقال « لقد ذهبت إلى طرابلس قبل الاستيلاء على أنطاكية بوقت قصير ، وكنت هناك حيا أرزق عندما سمعت بحصار كربوغا للصليبيين [٥٢] . وعند تلقي هذه الأخبار ، عرفت أن دخول أنطاكية والخروج منها أمرا مستحيلا ، كما سمعت عن الكثير من المصائب الحقيقية والوهمية أيضاً التي نشرتها أكاذيب المسلمين . وهكذا التجأت ، خوفاً من الموت ، إلى كنيسة ، ووقفت أمام تمثال مريم العذراء ، ولعدة أيام طلبت بالدموع والصلوات متوسلاً شفاعتها ، رحمة الرب ، وأنا صائم بصفة دائمة وأتوسل إليها قائلاً : « أيتها السيدة الطيبة ، إن هؤلاء حجاج تركوا أطفالهم ، وزوجاتهم ، وممتلكاتهم الدنيوية ، باسم المسيح ، ومن أجلك ، والآن ها هم قد ارتحلوا إلى هنا من أماكن بعيدة ، ويحاربون من أجل إبنك ، فاشفقي عليهم ، يا سيدتي وفكري في رأى ابنك وربك وفي أراضيهم إذا أسلمتهم إلى الأتراك » .

« وبعد أن أقسم وأتأوه بهذه الكلمات المرة بعد المرة ، عندما جاء مسيحي سوري وقال لي : « اطمئن وتوقف عن البكاء » واستأنف كلامه قائلاً : « منذ فترة وجيزة وقفت أمام أبواب كنيسة مريم المباركة ، أم المسيح ، وإذا بكاهن في ملابس بيضاء يظهر [٥٣] ، وعندما سألته عن اسمه ووطنه أجاب : « إنني مرقس ، المبشر الإنجيلي ، جئت من الإسكندرية حديثاً ، وقد عرّجت على هنا بسبب كنيسة مريم المباركة »

« ثم سألته عن وجهته وأجاب مرقس : « إن المسيح يقيم الآن في

الشهادة : « لقد كنت هناك في كنيسة القديس بطرس عندما أخرجت الحربة من تحت الأرض ، وهناك شهود كثيرون آخرون على ذلك في الجيش » . واستطردت قائلاً : « وهناك كاهن هو برتراند أوف لي بويه ، وهو عضو في أسرة أدهيمار أثناء حياته ، وقد أصيب بمرض مميت في أنطاكية . وفي ذلك الوقت ظهر لبرتراند أدهيمار ، وحامل رايته هرقل ، الذي أصيب في وجهه بسهم وقتل ، بعد أن هاجم الأتراك بشجاعة في أشرس معركة دارت في أنطاكية .

وهنا سأل أدهيمار : « ماذا تفعل يابرتراند » وأجاب هرقل : « ياسيدي إنه مريض » . وأجاب الأسقف : « إنه مريض لأنه متشكك » . وهنا همس برتراند : « ياسيدي إنني لا أومن بحربة الرب كما أومن بآلام الرب » ؟ » . تحدث أدهيمار : « إن هذا لايكفي . فينبغي أن تؤمن بأكثر من ذلك » .

ورغم أن ما تلا ذلك يخرج عن موضوعنا . فإنني سأسجله لأهميته لتلع من يستحقون . وعندما اضطر برتراند المريض المترنح إلى الجلوس أمام أدهيمار وسيده هرقل ، رأى عندما جثى هناك جرح السهم المحزن الذي أنهى حياة هرقل الدنيوية . وهنا سأل برتراند : « ياسيدي لقد ظننا أن جرحك التأم . ولكن ما هذا ! » .

وأجاب هرقل : « هذا سؤال جيد . عندما جئت إلى الرب ، يسوع المسيح . توسلت إليه أن يترك جرحي مفتوحاً لأنه أنهى حياتي . وهكذا فإنه يجب أن يبقى بمشيئة الرب دون التئام » . ولم يبلغ أدهيمار وهرقل برتراند بذلك فحسب ، بل أخبراه أشياء أخرى لا تتعلق بهذه الرواية » [٩٣] .

وآمن أرنولف بالحربة واعترف بعد أن سمع تلك الرؤيا وغيرها . بل إنه وعد أسقف البارة بأن يكفر تكفيراً علنياً بسبب تشككه ، ولكنه عندما جاء في أحد الأيام إلى اجتماع ، أعلن أنه يؤمن كل الإيمان بالحربة . إلا أنه قال كلاماً فيه تورية ، عندما قال أنه سيكفر فقط بعد التشاور مع سيده .

أنطاكية . ويأمر تلاميذه أن ينضموا إليه ويساعدوا في المعركة التي يجب أن يخوضها الفرنجة مع الأتراك » وبعد ذلك انصرف » .

« وعندما بقيت على شكي وحزني ودموعي طمأنني نفس السوري قائلاً : « يجب أن تفهم أنه سجل في الجبل بطرس المبارك ، أن الشعب المسيحي المقدر له أن يستولي على بيت المقدس ، سيحاصر أولاً في أنطاكية ، ولن يخرجوا من الحصار إلا بعد أن يجدوا الحربة المقدسة » [٩٤] .

ثم دلل إيبرا على كلامه قائلاً : « إذا كان أحد يتشكك في ذلك فليشعلوا ناراً للاختبار ، وسوف أعبرها باسم الله دليلاً على ذلك » .

واقترب كاهن آخر هو ستيفن من فالنس وهو شخص محترم وطيب ، وأضاف إلى هذه الشهادة قائلاً : « لقد تحدث إليّ المسيح في محنة من أشد المحن وفي حضور أمه المباركة ، مريم العذراء ، وعد بأنه في اليوم الخامس بعد هذا الحديث ، سيكون رحيماً وينهي آلام المسيحيين ، إذا عادوا إليه بكل قلوبهم واعتقد أن الرب كان صادقاً في كلمته ، لأن الحربة المقدسة اكتشفت في اليوم الخامس والآن إذا كنتم لا تصدقونني فإنني أقول أنني حين هذه الرؤيا مباشرة ، عرضت على أدهيمار كبرهان على ذلك . أن أخوض إختبار النار أمام الجمهور أو أقفز إن شاء من فوق أعلى برج ، وأنا الآن أعرض عليكم نفس الشيء » .

وزاد أسقف أبت من قائمة شهودنا المتحابية . فتقدم وشهد بأن « الرب فقط يعرف ما إذا كنت قد رأيت ذلك في المنام أم لا ، لأني لا أعرف بكل تأكيد [٩٥] . ومهما يكن فقد وقف أمامي رجل في ثياب بيضاء ، وقد أمسك في يده حربة الرب ، هذه الحربة ، أقول ، وسألني : « هل تعتقد أن هذه حربة الرب ؟ » . وأجبت : « بالتأكيد ياسيدي » . « ولكن لما بدا علي عدم الاقتناع طلب مني بخشونة إجابتين أخريين وكررت ، « إنني اعتقد أن هذه هي حربة الرب ، يسوع المسيح ، واختفى في الحال » .

وكانت أنباء موقف أرتولف سببا في أن يسخط بطرس بارتولوميو ، وهو على حق ، كرجل صريح لكنه صادق . واندفع قائلا : « إنني لا أتمنى فقط بل أتوسل إليك أن تشعل نارا ، وسأخوض اختبار النار وفي يدي الحربة المقدسة ، وإذا كانت هي حربة الرب حقاً فإنني سأخرج منها دون أن أكوى بالنار [17] ولكن إذا كانت حربة زائفة فستهلكني النار . وأنا أعرض أن أفعل ذلك . لأنى أرى أنه لا أحد يصدق الرؤى أو الشهود » .

وأرضى ذلك الجمهور ، وحددنا موعد اختبار النار فى يوم آلام الرب على الصليب من أجل خلاصنا ، وأمرنا بطرس بارتولوميو بالصوم . وبعد أربعة أيام ومع بزوغ فجر الجمعة الحزينة (8 أبريل 1099 م) . بدأ إعداد كومة الأخشاب ، واكتملت بعد منتصف النهار ، واحتشد نحو ستين ألفا من النبلاء والشعب مع رجال الكنيسة الحفاة الأقدام ، الذين يرتدون الثياب الكهنوتية ، ورصت فروع الزيتون الجافة في كومتين ارتفاعهما أربعة أقدام ، يفصل بينهما نحو قدم واحد ، ويبلغ طولهما ثلاثة عشر قدما .

وبعد إشعال النار وانطلاق لهيبها في الهواء أعلنت أنا ، ريموند جيل ، في حضور الجمهور : « إذا كان الرب القادر على كل شيء قد تحدث إلى هذا الرجل شخصيا ، وإذا كان القديس أندرو ، قد كشف له الحربة المقدسة في صلاة الليل ، فليمش في النار دون أن يمسه أذى ، ولكن إذا كانت هذه أكذوبة فلتلتهم النار بطرس بارتولوميو والحربة » . وركعت الجماهير قائلة : « آمين » . وارتفعت حرارة اللافحة ثلاثين ذراعاً في الهواء ، ولم يستطع أحد أن يقترب منها .

ثم ركع بطرس بارتولوميو على ركبتيه وهو يرتدى ثوبا كهنوتيا بسيطا بلا أكمام ، أمام أسقف البارة ، وأشهد الرب على أنه قد رأى المسيح شخصياً على الصليب وتلقى منه التعليمات المذكورة من قبل ، وأيضا تعليمات من القديس بطرس ، والقديس أندرو ، وأن التبليغات التي أبلغها باسم القديس بطرس أو القديس أندرو أو المسيح لم تكن من تأليفه . وأضاف أيضا أنه إذا كان قد كذب ، فإنه لن يخرج حيا من الكومة المشتعلة . ودعا أن يغفر الرب له على تطاوله على الرب وعلى جيرانه ، وأيضا على الأسقف والكهنة والمشاهدين لهذا الإختبار . وبعد ذلك سلمه الأسقف الحربة . وركع بطرس ورسم إشارة الصليب ، ومشى داخلا الكومة المشتعلة بشجاعة ودون أن يخيفه شيء ، ومشى يتمهل في وسطها وأخيرا ببركة الرب خرج من اللهيب .

وحتى يومنا هذا يزعم بعض المراقبين أنهم رأوا هذه العلامة : وهي أن طائرا طار فوق رأس بطرس قبل أن يخرج من قبر النيران ، ودار ونزل في النيران وشهد بذلك كل من إبرارد ، الذي ذكرناه سابقاً ، والذي أقام فيما بعد في بيت المقدس من أجل الرب ، ووليم بونوفيليوس ، وهو فارس محترم ممتاز من أرلس Arles . وذكر وليم مالوس بوير ، وهو فارس محترم من بيزيه ، أن رجلا يرتدى الملابس الكهنوتية ، وبدلة القداس فوق رأسه ، دخل اللهب قبل أن يدخل بطرس [18] . وذكر وليام أنه بدأ يصرخ عندما لم يستطع أن يرى الرجل يخرج من النار لأنه أخطأ ، وظنه بطرس بارتولوميو ، واعتقد أن بطرس قد إلتهمته النيران .

وفى الزحام الشديد لم نشاهد أشياء كثيرة ، ولكن هناك تجليات وأحداثاً كثيرة نعرفها بكل تأكيد ، ولكننا لن نحكيها خوفاً من إصابة القارىء بالسأم ، فضلا عن ذلك فإن ثلاثة شهود قادرين يعتبرون كافين لكافة الأحكام ، إلا أننا لن نستبعد هذا ، بعد أن عبر بطرس النار ، راح الجمهور الذى أصيب بالخوف يخطفون العصي المشتعلة والفحم المتوهج ، بحيث أنه لم يبق بعد وقت قصير إلا الأرض التي إسودت من النيران ، وفيما بعد ومن خلال هذه الآثار ، التي آمن بها الناس ، صنع الرب الكثير من الأعمال الجليلة .

سار بطرس خلال النار ولم يحترق ثوبه الكهنوتي ، والحربة المقدسة ، التي كانت ملفوفة فى أعلى أنواع القماش . وعندما خرج ، لوح للجماهير ورفع الحربة وهتف قائلا : « يارب ساعدنا » . وهنا أمسكت به الجماهير ، أمسكت به

الجماهير أثول وجلبته إلى الأرض . وأخذ كل فرد تقريبا من الرعاع يدفع ويدافع معتقداً أن بطرس كان قريباً ويأمل أن يلمسه أو يخطف قطعة من ثيابه . وجرحه الرعاع ثلاثة جراح أو أربعة في ساقيه في أثناء التزاحم . كما كسروا عموده الفقرى . ونعتقد أن بطرس كان سيموت هناك . لولا أن رعوند بيليه . وهو فارس مشهور وشجاع . قام بمساعدة زملاء كثيرين بمهاجمة الرعاع المتزاحمين . وجازف بحياته لينتزعه منهم . لكن لا يمكننا كتابة المزيد بسبب قلقنا وحزننا [19] .

وبعد إلتئام جراح بطرس بقى حيث حمله رعوند بيليه Pilet . وسألنا عن الشيء الذى جعله يقف فى النار . وأجاب : « لقد قابلنى الرب فى اللهب . وأمسك بيدى وقال لى : « بسبب شكوكك حول اكتشاف الحربة المقدسة فى زمن تجليات القديس أندرو . فإنك لن تعبر دون جروح لكنك لن ترى الجحيم . وبعد هذه الكلمات اختفى الرب » . واستأنف بطرس كلامه قائلاً : « هل ترغبون فى رؤية حروقى ! » كانت جراحه قاسية . أما الحروق التي كانت على ساقيه فكانت تافهة

ثم جمعنا المشككين لينحصروا وجهه ورأسه وشعره وأجزاء أخرى من جسده . حتى يتأكدوا من صدق رؤيا بطرس التى تحمل من أجلها امتحان النار ومجّد الكثيرون . عند رؤية وجهه وجسده . بهذه الكلمات . ان الله الذى خلص هذا الرجل . من هذه النيران اللافحة . النيران التى بلغ من حرارتها أننا اعتقدنا أن سهماً لايمكنه أن يمر منها دون أن يحترق تماماً . يمكن بكل تأكيد أن يكون حامياً لنا وسط سيوف المسلمين » .

وبعد ذلك دعا بطرس رعوندا جيل . كاهن الكونت وسأله : « لماذا أردت أن أخوض امتحان النار لأثبت رؤاى للحربة المقدسة وأوامر الرب ! بالتأكيد إننى أعرف أفكارك المتميعة » وكشف عن ظنون رعوند .

وعندما أنكر رعوند هذه الظنون أفحمه بطرس قائلاً : « إنك لاتستطيع إنكار هذا الدليل الدامغ لأنى عرفت الحقيقة ذات ليلة من مريم العذراء وأندريار . لقد اندهشت جداً عندما علمت أنه رغم أنك لم يكن لديك أى شك فى كلمات الرب ورسله . فإنك قد تحملت ملاكى رأسنا أتهم الدليل على هذه الرؤى ذاتهـا » .

وعندما كشف بطرس أكاذيب رعوند وذنبه أمام الرب . بكى رعوندا جيل فى ألم . وواساه قائلاً « إننى لا أريد لك أن تحتبس . لأن مريم العذراء المباركة وأندرو المبارك . سيحصلان لك على العفو أمام الرب إذا أنت صليت لهما بحرارة » [20] .

. . . . .

هوامش الفصل الثاني عشر

(١) من المحتمل أن وصف ريرتاجيل لنزول المسيح من الصليب مقتبس من أدب علم الفسرة .

(٢) تعبير خمسة صنوف كان تعبيرا شائعا في القصص للسحر . ومن المحتمل أن يكون لشيشرون الذي يذكر ستة صنوف في خطبته ضد الكاتلاين تأثير كبير على الكُتّاب اللاتين . انظر :

Cicero, Second Oration Against Catiline, VIII - X

(٣) « المسيح يجلس إلى يمين الرب » تعبير اقتبسه المؤرخ من انجيل متى (ابن الانسان جالسا عن يمين القوة) . انظر :

Matthew, 26 : 64; Breviarium, Ordinarium Divini Officii, p. 2

- مرة أخرى يلجأ ريرتاجيل إلى الاقتباس من الانجيل والتوراة ومن الأدب الروماني ومن كتب الكنيسة حتى يعطي لرواياته قوة التأثير على المستمعين له من الفرنج (الترجمة العربية)

(٤) « الحراس يقرعون صدورهم » تعبير مشابه لما جاء في انجيل لوقا . انظر :

Luke, 23, 48

(٥) يدعي أعداء المسيح ، إنه يستحق الموت ، انظر :

Mark, 14 : 64 Luke 23 21 23

(٦) يرجع وصف المسيح وهو معلق على الصليب استخدام ريرتاجيل للأفكار السائدة عن مظهره . فالخرقة التي تتدلى من خاصرتيه إلى ركبتيه كانت النمط السائد في تلك الفترة ، وكانت أطول بكثير من مئزر العورة المختصر الذي ظهر في فن عصر النهضة .

انظـــــر :

Alfred Maury, Croyances et légendes du moyen-âge, Paris, 1896, pp. 401-403; Bernard Teyssèdre, Le Sacramentaire de Gellone, Toulouse, 1959: Planches, hors-texte Fig. 143 v.

والمرجع الأخير به المنظر الأوضح للمسيح .

اختفى النبي . الزاجر الخارق للطبيعة وسط اللهب . الطائر المحلق . وخروج البطل . كل هذه التفاصيل وأكثر منها لها مثيلاتها في عصور أخرى . انظر :

H.C. Lea, Superstition and Force, Philadelphia, 1892, pp. 305 - 306.

H.C. Howorth, Saint Gregory the Great, London, 1912, pp. 237-238.

ويشير هوارث إلى أنه عندما حكى عن الشخص المذكور كحقيقة فإن هذا لايكون إلا كتابة أدبية أكثر منها نتاجا لعقل واع . ونحن لانستطيع فكرة أنه كان مدعي إختبار النار . ولكننا مقتنعون بأن وصفه كان تلفيقا قام به المؤرخ . ويضع هاجنمير إختبار النار في ٨ أبريل ١٠٩٩م . انظر . Hagenmeyer, Chr. 364

- حتى إن اعتمدنا في نقدنا لرواية ريمونداجيل عن عربة المغارة الغرقية من مصر إلى المعسكر الصليبي بالقرب من عرقة . ووصول سفارات أخرى اسلامية إلى الفرنج . ومن عروض قدمها المسلمون للفرنج على لسان ريمونداجيل - دون بقية مؤرخي الحملة الأولى وخاصة مؤلف الجستا الذي رافق الجيش الصليبي إلى بيت المقدس بعد أن انفصل عن حملة بوهيمند الذي بقي في أنطاكية . وحده يسرد هذه الرواية مما يشككنا في صحتها . وما يذهب إليه نرى هنا يؤيد ما ذهبنا إليه من قبل . انظر ماسبق ، الفصل الحادي عشر ، حاشية (٩٨) .

الترجمة العربية) .

(١٩٨) وليم بونوفيليوس Guillelmus Bonofilius ، فارس من آرل Arles ووليم بالوس معه Guillelmus Peet ، فارس من بيزييه Beziers ولقد استخدمهما المؤرخ كشهود طبعا ليدعم روايته

(١٩٩) ريموند أوف بيليه Raymond of Pilet عرفه بيريه كفارس من ليموزين وانضم إلى القوات البروفنسالية . وعرفه نيرينه كحاكم ألبة Alais . انظر . (RHC L. 3-43)

(٢٠٠) مرة أخرى يخصص ريمونداجيل جزءا كبيرا من تاريخه ليسرد رؤيا بارثلميو . وفي حصار عرقة . يبدو أن رؤيا واحدة لم تكن تكفي . فيعد ريمونداجيل رؤى أخرى عن بطرس . وربما لمزيد من حماس الفرنج في محاولاتهم للإستيلاء على تلك القرية الإسلامية الصغيرة ، التي كلفت ، المقاومة التي أبداها أهلها ، الصليبيين الكثير من الأرواح والعتاد ، إلى جانب ترنت وأجهد عون طائل . ومرة أخرى نجد ريمونداجيل وحده - من بين مؤرخي الحملة الأولى - يسرد هذه الرواية وليهاب كشاف وحب لها . ومرة

= أخرى لانجد لهذه الأحداث أي أثر في كتاب مؤلف الجستا الذي كان ضمن صفوف الفرنج عند عرقة . الأمر الذي يشككنا في صحة الرواية التي أوردها ريمونداجيل . وإذا كان حالنا من ذكر هذه الأحداث من مؤرخي هذه الحملة مثل فوشيه أوف شارتر أو رادولف أوف كان ، فكلاهما لم يكن شاهد عيان لهذه الأحداث وكان فوشيه بصحبة بولدوين في الرها وكان رادولف لايزال في غرب أوربا . وأظهر فوشيه ارتيابه في أمر الحربة . أما رادولف فلم يتحرج عن إظهار تشككه في بطرس بارثلميو واتهامه بالكذب وباختلاق رؤيات لم يحدث منها شيء . ويظهر ذلك جليا من حديث رادولف عن اختبار النار الذي مر به بطرس حيث يقول « وادعى بطرس عبادته . ولم يرده لهيبها . ومشى وسط النيران ، وسقط مشتعلا . ولقد أخذت محترقا بكليته . وعندما رأى الناس ماحدث أمامهم . حدث غمغمات وهمهمات وأقروا بأنهم كانوا مخدوعين ... بعد أن نال بطرس مختلق الأكاذيب العقاب الذي يستحقه ساد الاتفاق ... » انظر .

Fulcher of Chartres, pp. 49 - 100. Radulf of Caen, pp. 682 - 683.

وبالرغم من غرابة الرواية التي سردها ريمونداجيل عن الرؤى المختلفة ، فإنه لايشغلنا عن ملاحظة المقاومة الشديدة والشجاعة التي أبداها أهل عرقة في التصدي للهجمة الصليبية على مدينتهم ، التي صمدت دون مساعدة من سائر القرى الاسلامية ، بل أرغمت حتى أجبرت قرى إسلامية أخرى في بلاد الشام على الإتفاق مع الصليبيين والتحالف . لهاجمهم . والحصار الفرنجي لعرقة كلف الفرنج الكثير ، وحمل اليأس يدب في قلوب الكثيرين منهم . ويكفي أن يصور كونت سان جيل أراس برفع الحصار عن عرقة وهو مسرع في البكاء على محكمه وقراته من حاشر في الحصار الذي وصفه مؤرخه بـ حصار كريه ومقوت . فقد استمر حصار الفرنج لعرقة لمدة و أربعة أشهر ولكنها معروفة منذ تقوي فلم يقدروا عليها » . انظر . ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٩٥ . راجع أيضا ماتقدم من الفصل ٩٣ ، ص ٢٢٦ .

(الترجمة العربية) .

الفصل الثالث عشر

التخلي عن حصار عرقة واستئناف الرحلة إلى بيت المقدس

في هذه الأثناء تفشت النزاعات الجيش، ولكن الرب، مرشدنا، وربنا أصلح هذه النزاعات حتى لا تضيع أنعمه. وعندما علم حاكم طرابلس، وهي مدينة قريبة من معسكرنا، بالنزاعات، سخر من طلب الجزية التي حملها مبعوثونا، وقال: «من هم الفرنجة؟ وما شأن فرسانهم؟ وما مدى قوتهم؟ فكروا في الأمر. لقد حاصر جيش الفرنجة عرقة ثلاثة أشهر [1]، ورغم أنني لا أبعد عنهم إلا أربعة فراسخ. فلم يقع منهم هجوم واحد علي، ولم أر رجلا واحدا منهم. أيها الفرنجة تعالوا إلى طرابلس ودعونا نراكم ونختبر فرسانكم. لماذا ينبغي أن أدفع جزية لوجوه لم أرها، ولقوة لم أعرفها؟» [2].

وأثار هذا التقرير التساؤل العام، أنظروا ماذا جنينا من النزاعات والمشاحنات! لقد احتجب الرب عنا من جديد، وأصبحنا موضع احتقار».

ووحدت هذه المشاعر الأمراء الذين أمروا أسقف البارة وجزءا من الجيش أن يحرسوا المعسكر بينما يقوم هو مع المشاة والفرسان في التشكيل المعتاد بمهاجمة تحصينات طرابلس. وفي التاريخ المحدد عندما سار جيشنا بهذا النظام، خرج إلينا أهل طرابلس وهم واثقون في حشودهم الصاخبة في تشكيل قتالي. كان هناك سور صلب ومرتفع جدا لمجرى مائي يؤدي إلى طرابلس، يشكل طريقا ضيقا بين المدينة والبحر الذي يحيط بطرابلس من ثلاث جهات.

وهكذا حصن المسلمون هذا السور المذكور للمجرى المائي، بحيث يمكنهم في حالة الفشل أن يرتدوا إلى الخلف وإلى الأمام كما لو كانوا يتنقلون من حصن إلى حصن. وعندما رأى الصليبيون منظر أهالي طرابلس وهم واثقون في موقعهم القتالي وأسلحتهم، صرخوا، مثنى وفرادى، إلى الرب ولوحوا برماحهم واحتشدوا معاً. كان تقدمهم إلى صفوف العدو أشبه بموكب، بحيث أنك لو رأيت

الزحف ، حيث أنهم يتقدمون كأصدقاء لا كأعداء . وشل الرب حركة قوات طرابلس بالخوف . ولم يكد واحد يهرب من أول مدخل مسلح وامتلأت الأرض بدم المسلمين وسدّت جثثهم المجرى المائي . وكان من المناظر المبهجة منظر المياه المتدفقة في المجرى المائي وهي تحمل أجساد النبلاء والدهماء إلى طرابلس ولقد فقدت رؤوسها . وفقدنا رجلا أو اثنين بينما يقال أن سبعمائة من الأعداء قد قتلوا .

وبعد الانتصار ، عاد قادتنا إلى عرقة بالغنائم ، وأعلنوا : « لقد رأينا ملك طرابلس اليوم كما رأينا نحن كذلك الطرق إلى طرابلس ، ودرسنا وسائل الهجوم وأنا وأنتم الآن سنجعل ملك طرابلس يختبر معدن فرساننا غداً » . وهكذا لم يجرؤ شخص واحد على الخروج من طرابلس عند عودتنا إليها في اليوم التالي . وبعد ذلك عرض ملك طرابلس على قادتنا أن يعطيهم خمسة عشر ألف قطعة ذهبية ، وخيولا ، وبغالا ، وملابس ، وحنطة ، وسوقا عامة مفتوحة ، كما أنه سيعيد إلينا جميع الأسرى المسيحيين إذا تخلينا عن حصار عرقة (٤٠) .

ووصل رسل من إمبراطور ألكسيوس إلى المعسكر في ذلك الوقت ، يحملون احتجاجا على تمسك بوهيمند لأنطاكية ، خلافاً للعهود التي قطعت لتاتيكيوس . وسأقطع حديثي لأذكر أن بوهيمند كان يحتل أنطاكية في ذلك الوقت ، لأنه طرد رجال ريموند ... من الأبراج التي كانوا يحرسونها ، عندما سمع أن الكونت قد انطلق من معرة النعمان إلى داخل سوريا . كما ذكر المبعوث البيزنطي أن ألكسيوس سيقدم مبالغ كبيرة من الذهب والفضة ، وأن على الصليبيين أن ينتظروا حتى عيد القديس يوحنا (أواخر يونية) حتى يستطيع أن يسير معهم إلى بيت المقدس . وجدير بالذكر أن عيد الفصح كان يقترب في ذلك الوقت (٤١) .

وجادل كثيرون ، منهم كونت سانجيل ، قائلين : « لنؤجل زحفنا حتى وصول

ألكسيوس ، فسوف نأخذ هداياه ، وسيؤمّن وجوده التجارة براً وبحراً ، وستتوحد تحت قيادته . وستلقى كل المدن أسلحتها ويمتلكها ألكسيوس أو يدمرها كما يشاء . وهناك احتمال أيضا بأن الصليبيين ، الذين أجهدتهم الخصومات الطويلة المتكررة سيؤثرون ، إذا وصلوا بيت المقدس ، أن يعودوا إلى ديارهم بمجرد أن يروا أسوارها . فتفكروا بعناية في شدة الأخطار الكامنة في مواجهة أولئك الذين يتوقون إلى الوفاء بنذرهم . ولنقعد من حصار عرقة حتى تستسلم حاميتها في خلال شهر ، أو يتم الاستيلاء عليها بالقوة . ومن ناحية أخرى فإذا نحن قررنا ألا نجني من الحصار ، وانتشرت أخبار تخلينا عنه بعيدا ، أصبحنا ، ونحن جيش عرف بتنفيذ مشروعاته بنجاح ، موضع سخرية واستهزاء » .

ورد آخرون بعكس ذلك : « لقد أضرنا الإمبراطور دائما وخدعنا وتآمر ضدنا . ولما أدرك أنه ضعيف ، وأننا أقوياء بفضل الرب ، سعى إلى إبعادنا عن القبر المقدس ، خوفا من أن يؤدي الحديث عن نجاحنا إلى أن يحذو آخرون حذونا . فليحذر أولئك الذين أساء إليهم بالكلام أو بالأفعال من أن يثقوا فيه ثقة لا طائل وراءها . ولنستأنف رحلتنا إلى بيت المقدس ، ولنضع ثقتنا في المسيح قائدنا الذي خلصنا من الخطر الذي أشعرنا باليأس ، وحمانا من أعمال ألكسيوس وخداعه . وعندما يعلم بأننا سنحقق آمالنا بسهولة بوعد الرب ، وعند سماعه لأخبار استيلائنا على بيت المقدس ، والتجارة المفتوحة ، فإنه سيرد على ذلك بأعمال وهدايا بدلا من المكائد الخادعة » .

ووافقت أغلبية الناس على هذا الرأي الأخير ، ولكن رغباتهم ومجلس الأمراء لاقت صعوبات . وقد ثارت هذه الصعوبات بسبب الحاشية ... لكونت ريموند ، ولأنه وجه الكونت شجاعة ، دون أن يكون معه القادة الآخرون ، وحقق الكثير من المكاسب الخاصة الكبيرة .

في هذه المحنة أعلنا الصوم والصلوات والصدقات للناس ، على أمل أن

يتلطف الرب القادر على كل شيء ، والذي أخذ بيدنا عبر بلاد كثيرة ، ويبلغنا مشيئته . وهكذا أقنعت صلوات المؤمنين الرب .

وظهر الأسقف أدهيمار لستيفن أوف فالنس ، الذي كنا قد تحدثنا عنه من قبل بخصوص رؤياه للرب على الصليب . وضربه بغضب بينما كان يمشي عائداً إلى بيته ذات ليلة وناداه « يا ستيفن » .

ورد ستيفن : « سيدي » وعندما استدار تعرّف على أدهيمار .

فسأل أدهيمار : « لماذا تجاهلت لعدة مرات أوامري الخاصة بصليب الرب ، وأوامر أمنا مريم العذراء ؟ إنني أتحدث عن الصليب الذي كان في صفوفي الأمامية ، ليُحمل في الجيش . قل لي أي أمر دينى أفضل من الصليب ، ألم يرعكم هذا الصليب بما يكفيكم ؟ ألم يرشدكم إلى الحربة المقدسة ؟ إن سيدتنا مريم العذراء المباركة تقول الآن أنه بدون هذا الصليب لن تكون لديكم حكمة » .

وهنا صاح ستيفن : « أه يا أعز سيد ، أين مريم المباركة ؟ » .

وفي الحال كشف أدهيمار عن مريم رائعة الشكل والملبس ، وهي تقف على بعد تسعة أو عشرة أذرع مع أمانا المباركة وعذراء ممسكة شمعتين [29] . وهنا تكلم ستيفن مع أدهيمار ، الذي كان يقف بجوار مريم : « ياسيدي كثيرة هي الإشاعات في الجيش ، ومن بينها أن شعرك ولحيتك قد إحترقا في الجحيم . وغير ذلك من القصص التي لايمكن تصديقها ، كما ليتني أستطيع إقناعك أن تعطيني واحدة من الشموع لأحملها إلى الكونت دليلاً على أوامره » .

فرد أدهيمار قائلا : « أنظر إلى وجهي ، ألا تراه محترقاً ؟ » ثم سار الأسقف إلى مريم العذراء وعرف مشيئتها وعاد إلى ستيفن وقال له : « لايمكن تحقيق ذلك ، ولكن الخاتم الذي في إصبعك لا شك أنه منه ، ولاينبغي أن تلمسه . لذلك فاذهب إلى ريموند ، وقدمه إليه وأخبره أن « العذراء المقدسة

جداً ، ترسل هذا الخاتم إليه . وفي كل فشل استحضر إلى ذهنك السيدة مانحة هذا الخاتم ، وتوسل إليها وسيساعدك الرب » .

ومرة أخرى استفسر ستيفن عن الأوامر الخاصة بأخيه ، وأجاب أدهيمار : « إجعله يقنع الأسقف المنتخب بإقامة ثلاثة قداسات للرب لأرواح أقاربنا . وأمنا مريم تأمر بألا تظهر الحربة المقدسة بعد ذلك إلا ويحملها كاهن يرتدي الملابس المقدسة . وأن يسبقها الصليب على هذا النحو وأمسك أدهيمار الصليب معلقاً من رمح ويتبعه رجل يرتدي الملابس الكهنوتية ، والحربة المقدسة في يده ، بينما الأسقف يردد :

" Gaude Maria Virgo Cunctas hereses sola interemisti "

واشتركت مئات الآلاف من الأصوات التي لاحصر لها في جوقة المرتلين السماوية واختفت جماعة القديسين [30] .

وفي الصباح التالي ، كان أول ما سأل عنه ستيفن هو ما إذا كانت لديها خرية ، وعندما رآها الفجر باكياً . وبدأ يحكي الرؤيا السابقة وما سمعه ورآه ، وتأثر الكونت بذلك ، فأرسل وليام عبر أوف مونتيل ، شقيق أسقف لي بوي ، إلى اللاذقية حيث ترك صليب أدهيمار وأحضروه .

في هذه الأثناء استدعى بطرس بارثولوميو ، الذي كان قد أقعده المرض الناتج عن الضربات والجروح التي نزلت به ، الكونت والقادة الآخرين إليه وأخبرهم « لقد دنا أجلي ، وأنا على وعي تام بأنني في حضرة الرب سوف أحاسب على كل أعمالي ، أو كلماتي ، أو أفكاري الشريرة . وأمام الرب ، وفي حضوركم ، أشهد بأنني لم أخترع أي شيء بخصوص كل الأشياء التي أبلغتكم بها عنه من الرب والرسل . ولاشك أنكم سوف ترون تحقيق كلماتي إذا خدمتم الرب بحق » . وبعد ذلك مات بطرس في الساعة التي حددها الله في سلام ودفن في البقعة التي عبر فيها النار ومعه الحربة المقدسة » [31] .

في ذلك الوقت سأل ريموند والزعماء الصليبيون الآخرون أهالي المنطقة ، عن

أفضل الطرق إلى بيت المقدس ، وأقلها وعورة . وهكذا ، أتى إلينا بعض السوريين رسل المستقل مجيئهم لاستطرة قليلا . لقد كان هناك نحو ستين ألفاً من المسيحيين يملكون جبال لبنان والمناطق المحيطة لسنوات طويلة . ويخاطب مؤلاء المسيحيون باسم الصوريون حيث أنهم قريبون من Tyre التي تسمى الآن عادة صور Sur . وعندما زادت قوة المسلمين والأتراك بمشيئة الرب ، أجبر الكثير من الصوريين الواقعين تحت حكمهم لأربعمائة سنة أو يزيد على التخلي عن ملابسهم وشريعتهم المسيحية

ولكن إذا كان البعض قد تحدى المسلمين بفضل من الرب ، فقد أجبروا على تسليم أطفالهم لكي يتم ختانهم ، وتعليمهم القرآن . أكثر من ذلك ، فإن الآباء كانوا يُقتلون بينما كانت الأمهات تلقين معاملة سيئة وينتزع أطفالهن من بين أحضانهن . لقد دفعت المشاعر الشريرة المقيتة هذا الجنس من البشر ، إلى هدم كنائس الرب والقديسين . وتحطيم الصور ، وفقأ عيون الصور التي لا يمكن تحطيمها ، واستخدام التماثيل هدفاً لسهامهم . ونهبوا الهياكل ، وحولوا الكنائس المكبرة إلى مساجد . ولكن إذا رغب مسيحي واحد في صورة للرب أو لقديس في بيته . فقد كان عليه أن يدفع ثمنا لذلك شهرا بعد شهر وعاما بعد عام وإلا فإنه سوف يرى هذه الصورة وقد ألقيت في الوحل وحطمت . والشيء الذي سأرويه الآن غير سار بالمرة ، فقد وضعوا شبابهم في المواخير وتبادلوا شقيقاتهم بالخبز من أجل المزيد من الفسق [8] .

وكانت الأمهات يخشين أن يبكين على ذلك ، وعلى غيره من الآلام هنا . ولكن لماذا أضيع كل هذا الوقت من الصوريين ؟ من المؤكد أن هذا الجنس قد تآمر على قدس الأقداس وتراثه ، ولولا أن الرب قد حصن بأمره ومبادرته الحيوانات المتوحشة ضد شرور قاتلة ، كما فعل مرة في وجودنا . فإن الفرنجة كانوا سيلاقون مصائب الصوريين إلا أن هذا يغطي الموضوع بشكل كاف [9] .

ومثل الصوريين الذين تحدثت عنهم فيما سبق ، في اجتماع مع ريموند أرف صاد جيل ، عن الطريق وأجابوا : « إن طريق دمشق ممهد ، ومزود بالطعام الكافي ، لكن لا ماء به لمدة يومين . والطريق من خلال جبال لبنان ، مأمون ويتوفر بها الضروريات ، لكنه وعر جداً بالنسبة لجمال ودواب الحمل . وهناك طريق آخر مع ذلك محاذ للبحر ، إلا أن به بعض الممرات الضيقة جدا ، حتى أن خمسين أو مائة من المسلمين يمكن أن يصدوا عندها الجنس البشري كله . ومع ذلك فإنه مسجل في إنجيلنا لطرس المبارك ، أنه إذا كنتم أنتم الذين قدر لهم أن يستولوا على بيت المقدس ، فإنكم ستمرون بمحاذاة ساحل البحر ، رغم أن مخاطره تجعله يبدو مستحيلاً علينا . وهذا الإنجيل الذي كتب بيننا لا يتضمن فقط اختياركم للطريق ، بل الكثير من أعمالكم السابقة ومسار الأحداث القادمة » [98] .

وأثناء تداول الآراء ، جاء وليام هيو أرف مونتيل ، بالصليب المذكور آنفاً . وأثارت رؤية الصليب مشاعر حاشية الكونت بخصوص الرحلة حتى أنهم خلافاً لنصيحة ريموند وأمراء آخرين ، أحرقوا ملاجئهم وكانوا أول من غادر عرقة .

إنفجر ريموند باكياً ، وبدأ يحتقر نفسه والآخرين ، ولكن الرب تجاهل مشاعره مراعاة لإرادة جمهور الصليبيين ، ومن ناحية أخرى ، فإن جودفري الذي كان تواقاً إلى استئناف الزحف راح يحرض الجماهير . وهكذا بعد أن تركنا هذا الحصار الكريه والمقيت لعرقة ، وصلنا إلى طرابلس حيث حاول ريموند - على مواجهة المعارضة الإجماعية للقادة - أن يغريهم بالتوسلات والمكافآت أن يحاصروا طرابلس [99] .

وهنا ظهر القسيس أنتوني ليطرس دزيدريوس ، وهو شخص أشرنا إليه من قبل وأمره : « إذهب وأبلغ الكونت : « توقف عن إزعاج نفسك وإزعاج الآخرين ، لأنك لا تستطيع أن تتوقع أي مساعدة من الرب ، حتى يتم الإستيلاء على بيت المقدس أولاً . لا تنزعج لعدم اكتمال حصار عرقة . ولا تحمل هماً إذا لم تسقط هي ومدن أخرى في الطريق . وفعلاً ، فإن هناك معركة وشيكة سيتم فيها فتح هذه

المدن هي ومدن أخرى أيضاً . لهذا توقف عن إطلاق نفسك وأتباعك . وباسم الرب إعط بسخاء من عطاياه لك ، وكن أيضاً رفيقاً وصديقاً مخلصاً لرجالك . وسيعطيك الرب بيت المقدس والاسكندرية والقاهرة إذا فعلت ذلك . ولكن إذا لم تفعل فإنك لن تحصل على المكافآت التي وعد الرب بها ، ولن يكون لك ميراثا حتى تكون في عوز لا مفر منه .

وخضع الكونت لهذه الكلمات التي قالها الكاهن خضوعاً بالشأن فقط . فقد تجاهلها بأعماله وأنكرها بتكثيره في الكنوز العظيمة التي نالها من ملك طرابلس . أكثر من ذلك . فقد أثار غيظ أتباعه بالسب والتعنيف . وقد حكى بطرس ديزيديريوس ذلك ، ومسائل أخرى كثيرة . ننقل بعضها في هذا الكتاب

لقد جاءني بطرس ديزيديريوس أنا ، ريموندأجيل ، قبل ذلك بوقت طويل . عندما كنا نفكر في مغادرة أنطاكية ، وأخبرني أنه رأى رؤيا أتى فيها إليه شخص وأمره . « إذهب إلى كنيسة ليونتيوس المبارك ، حيث ستجد بقايا أربعة قديسين . فخذها واحملها إلى بيت المقدس » . وعلى الشخص يرى بطرس الآثار ومكانها وأخبره بأسماء القديسين . ومع ذلك . فإن بطرس تشكك في الرؤيا بعد أن استيقظ وصلى وتوسل إلى الرب أن يؤكد له مرة ثانية أن ذلك كان وحياً منه . وهكذا . ظهر نفس القديس مرة أخرى ، وهدده لإهماله أوامر الرب . وقال أنه إذا لم يتم نقل البقايا قبل اليوم الخامس من الأسبوع ، فسيحل به ضرر كبير هو وسيده إيزوارد كونت أوف داي ، وهو رجل مخلص للرب شهدت بركته التي نفعتنا [١٢٢] .

وقد كررت هذه القصة على مسامع أسقف أورانج ، وريموند سان جيل وآخرين بعد أن رواها لي بطرس . بعد ذلك مباشرة جئنا إلى كنيسة القديس ليونتيوس ونحن نحمل الشموع - التي قدمناها مع النذر للرب والقديسين في نفس الكنيسة . وسألنا الرب الذي جعل هذه الآثار مقدسة ، أن يعينها لتكون رفاقاً لنا وعوناً ، وسيكون هؤلاء القديسون مرتبطين بنا بدلاً من احتقار زمالة

المجلج ، ومن لقاهم الرب ، وسيكون ارتباطهم هنا بدافع من الحب للمسيح . وهكذا بيرشنا بالرب . في الصباح التالي ، وفي صحبة بطرس ديزيديريوس أتينا إلى مكان آثار القديسين ، وكما حكى تماماً ، وجدنا بقايا القديس كيبريان ، والقديس أومينيوس ، والقديس ليونتيوس ، والقديس حنا ذهبي الفم [١٢٣] . كما وجدنا هنا أيضاً خزانة بها آثار لم يتعرف عليها الكاهن ، وعندما سأل الوطنيين حائراً في تعريفها ، فقال البعض أنها للقديس مركيوس ، وبينما ذكر آخرون أسماء قديسين مختلفين ، وبغض النظر عن غموض أمرها ، فقد أراد ديزيديريوس أن يجمعها ويضعها مع الأخرى [١٢٤] .

فقلت أنا - ريموندأجيل - في حضور كل الجماعة وبقوة أنه : « إذا كان هذا القديس يرغب في الرحيل معنا إلى بيت المقدس ، فليعلن إسمه ورغبته وإلا فليترك في هذا التابوت . هل تزيد من أعبائنا بحمل هذه العظام المجهولة ! » ونتيجة لكلامي تركنا العظام التي لم يتعرف عليها أحد في ذلك الوقت .

وفي الليلة التالية جمع الكاهن للبقايا الأخرى ولفها في الأقمشة ووضع غطاء . وقف شاب وسيم في حوالي الخامسة عشرة أمام هذا الكاهن في صلاة الليل وسأل : « لماذا لم تحمل رفاتي اليوم مع الآخرين ؟ » .

وهنا سأله الكاهن ، ومن أنت ؟ » واستمر الشاب يسأل : « ألا تعرف اسم حامل راية هذا الجيش ؟ » واعترف بطرس : « لا ياسيدي » . وعندما كرر بطرس نفس الإجابة رد الشاب بعنف : « أخبرني بالحقيقة » .

وهنا رد بطرس : « ياسيدي ، يقال أن القديس جورج هو حامل راية هذا الجيش » . وهنا قال الشاب : « صحيح ماتقوله . إنني أنا القديس جورج وأنا آمرك أن تجمع رفاتي وتضعها مع الآخرين » [١٢٥] .

ومع ذلك فبمرور الأيام دون أن ينفذ الكاهن الأمر عاد القديس جورج وطلب منه بضغطة : « لاتدع الصباح يمر دون أن تجمع رفاتي . وخذ أيضاً قنينة من دم

مريم العذراء والشهيدة تكلا Thecla ، وستجدها قريبة ، ونزل القناص » .

وفي هذه المرة وجد بطرس ديزيديريوس كل هذه الأشياء ونفذ أوامر القديس جورج [٩٦] . وقبل أن نواصل قصتنا يجب أن نذكر أولئك الرجال الذين تجرأوا وأبحروا على سطح البحر المتوسط الرهيب الشاسع ، والمحيط ، حباً في القيام بالحملة الصليبية . فعندما سمع هؤلاء الإنجليز أخبار الحملات الصليبية التي تشن باسم انتقام الرب من أولئك الذين دنسوا الأرض التي ولد فيها المسيح ودمله أبحروا في البحر الإنجليزي وداروا حول ساحل إسبانيا ، عابرين عبر المحيط وماخرين عباب الأمواج في البحر الأبيض المتوسط . وبعد جهد جهيد وصلوا أنطاكية واللاذقية قبل جيشنا . وقد ضمن لنا الإنجليز ، والبحرية ، التجارة من قبرص والجزر الأخرى ، فأنشؤوا بذلك نفعهم ومعاونتهم . كانت هذه السفن تبحر يومياً لتروح وتغدو في البحر . فتبث الرعب في قلوب المسلمين وتجعل إبحار السفن اليونانية أمراً مأموناً . ومع ذلك فعندما رأينا الإنجليز تنطلق إلى بيت المقدس ، ورأوا خشب الصور المصنوعة منه سفنهم يتآكل ويتعفن لطول عهده حتى لم يبق من الثلاثين سفينة إلا تسع سفن أو عشر . هجر البعض السفن ونزلوا إلى الشاطئ ، بينما أحرق آخرون قواربهم وأسرعوا ينضمون إلى الزحف على بيت المقدس [٩٧] .

وتباطأ أمراؤنا أمام طرابلس حتى نزع الرب فيهم الرغبة في مواصلة الرحلة بحيث زالت كل معارضة ، وهكذا نعمل خلاف عادتنا ، وأوامر الأمراء ، وصلنا ليلاً ، وسرنا طوال الليل ، ووصلنا بيروت في اليوم التالي . وبعد أن شولت طليعتنا فجأة على ممر (مرتقى صور) Bocca Tona ، وصلنا عكا دون أن يمنعنا شيء . وفي خلال أيام قليلة [٩٨] ، وخاف ملك عكا من الحصار ، وتطلع بقلق إلى رحيلنا . فأقسم لريمون على ما يلي : « أنه سوف يسلم نفسه وعكا للصليبيين ، إذا استولينا على بيت المقدس ، أو بقينا في فلسطين لمدة عشرين يوماً دون أن نضطر إلى الاشتباك مع ملك مصر ، أو إذا هزمنا هذا الملك . وفي هذه الأثناء ، فإن ملك عكا وعد بتقديم صداقته [٩٩] . وبعد ذلك رحلنا من عكا في مساء أحد الأيام وعسكرنا بالقرب من المستنقعات القريبة .

عن الحمامة التي حملت رسائل القتل الصليبيين

كما جرت العادة في ذلك الوقت ، فبينما راح البعض يجري هنا وهناك ، بحثاً عن الضروريات ، والبعض يبحث عن موقع خيام أصدقائه ، ألقى صقر حام فوق المعسكر ، بحمامة مصابة بجرح قاتل في المعسكر الذي كان في لغط وضوضاء . وعندما التقط أسقف أبت الحمامة ، وجد رسالة كانت تحملها .

كانت الرسالة تقول : « التحيات من ملك عكا إلى دوق قيسارية . لقد اجتاح بلادي جيل من الكلاب ، من عنصر أحمق عنيد غير منظم . إذا كنت حريصاً على حياتك فيمكنك أنت والمسلمين الآخرين أن تلحقوا بهم الأذى طالما يمكنك أن تفعل ذلك بسهولة . انقل هذه الرسالة إلى المدن والحصون الأخرى » .

وفي الصباح ، عندما انتظم الجيش في ارتحاله ، أعلنت محتويات الرسالة . وهكذا تجلى لنا عطف الرب . وهو عطف منع الطيور الطائرة من أن تلحق بنا الضرر ، وكشف أسرار أعدائنا [١٠٠?] .

فمجّدنا الرب القادر على كل شيء ، وشكرناه ، ثم رحلنا بلا خوف ، وبخفة ونشاط ، ونحن نسير إلى الأمام وإلى الخلف في صفوف . وعندما سمع سكان الرملة المسلمون أننا عبرنا نهر قريب ، تركوا قلاعهم وأسلحتهم . ورأينا الكثير من الحبوب في الحقل ، ومحصولات محصودة . وهكذا ، فعندما وصلنا في اليوم التالي كنا على يقين من أن الرب يحارب من أجلنا . وهنا ، نذرنا النذور للقديس جورج ، قائدنا المعترف به . وقرر زعماؤنا والجمهور اختيار أسقف لأننا وجدنا هنا أول كنيسة لإسرائيل . كما شعرنا أن القديس جورج سيكون شفيعنا عند الرب ، وسيكون قائدنا للخلاص من خلال مقر إقامته .

ولما كانت الرملة تبعد خمسة عشر ميلاً عن بيت المقدس ، فقد عقدنا مجلساً هناك ، وقال البعض : « أجلوا الزحف الآن ، وتحولوا إلى مصر ، وإذا استطعنا بفضل الرب أن نفتح مملكة مصر ، فإننا لن نكسب بيت المقدس

فقط بل أيضا الاسكندرية والقاهرة . وغالك كثيرة . ومن ناحية أخرى ، فإذا نحن زحفنا على بيت المقدس وتخلينا عن الحصار لنقص المياه ، فإننا لن ننجح أبداً » .

بينما قالت المجموعة الأخرى : « على الرغم من أن قوتنا لا تكاد تبلغ ألفاً وخمسمائة من الفرسان ، وعدداً صغيراً من المشاة المسلحين ، فإن البحر كان يحجز القيام بحملة إلى أرض غريبة . وبعيدة تعزلنا عن معاونة بني جلدتنا ، وعليه فإن الفرص قليلة في الاحتفاظ بمدينة يتم الاستيلاء عليها ، أو التماس طريق للهروب عند الحاجة . وليس في هذا أي نفع ، فلنتمسك بطريقتنا ولنترك للرب أمر الحصار والعطش والجوع والأشياء الأخرى »(٢٦) .

• • • • •

هوامش الفصل الثالث عشر

(١) بدأ حصار الفرنج لعرقة في ١٤ فبراير ١٠٩٩م وانتهى في ١٣ مايو ١٠٩٩م ، وهكذا استمر الفرنج في حصار عرقة نحو ثلاثة أشهر كما حدد مؤلف الجستا . بينما حدد ابن الأثير فترة الحصار بأربعة أشهر . ومن المرجح أن رواية مؤلف الجستا هي الأقرب إلى الصحة . انظر : ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٥ .

راجع أيضا :

Gesta, pp. 83, 85.

ومن الملاحظ أن مؤلف الجستا المجهول كان حريصا دائما على أن يحدد الأيام التي تقع فيها أحداث تاريخه إلى جانب التواريخ التي تقع فيها هذه الأحداث . بينما يكتفي ريموندأجيل - في كثير من الأحيان - بذكر الحدث دون تحديد تاريخ له .

(الترجمة العربية)

(٢) كان أمير طرابلس في ذلك الوقت هو جلال الملك أبو الحسن بن عمار . ولاتزال طرابلس موجودة حتى الآن . وهي مدينة جميلة بالقرب من بيروت . وقد أسس كونت تولوز - فيما بعد - كونتية له هناك . ولا تزال قلعته موجودة حتى الآن . ولقد أبدى أمير طرابلس - في بداية الأمر - رغبته في التفاوض مع الفرنج ، إلا أنه لم يلبث أن طلب المعونة من بغداد .

(٣) لم يكن العرض الذي قدمه ابن عمار للفرنج نظير التخلي عن حصار عرقة ، ولكن لعدم التعرض لطرابلس نفسها . كما يزيد مؤلف الجستا على ما ذكره ريموندأجيل أن ابن عمار قدم للفرنج خمسة عشر حصانا أصيلا ، كما عرض عليهم أن يرتد هو إلى المسيحية . إذا ما انتصر الفرنج على الجيش الفاطمي ، وأن يحكم في بلاده تحت حكم الفرنج . وهذا ما عرضه ستيفن رنسيمان على أنه حقيقة تاريخية . إلا أن كل ما قدمه ابن عمار للفرنجة لم يتعد في حقيقته المهادنة حتى يتخلص من شرورهم وهو يرى الجبهة الإسلامية متفككة ، وكان من الصعب عليه نيل المساعدة من الفواطم أو من السلاجقة ، والدليل على ذلك أنه حين وجد في عام ١١٠٢م أن ريموند كونت تولوز مصر على الاستيلاء على طرابلس هنا يستعد للتصدي له ، ولم يعد يحرص على استقلاله بين القوى المتنازعة من فواطم مصر وسلاجقة في حلب ودمشق ، وبدأ يلقي بنفسه - كرها - بين أحضان القوى الإسلامية القريبة لمواجهة خطر كونت تولوز . أما مسألة الارتداد عن الإسلام ، التي ترد في كثير من المصادر اللاتينية فهذه قضية لا أساس لها من

الصحة ، ومشاورتها كما ذكرنا من قبل في بحث مستقل إن شاء الله . انظر :

Geon, p. 23.

راجع أيضا : سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

(٤) وصل مبعوثو الامبراطور إلى اللاذقية في ١٠ أبريل حسب رواية ريموندأجيل . انظر :

Grousset, op. cit., p. 137.

وقد ناقش رنسيمان هذه القضية (Runciman, op. cit., p. 275) كما ناقشها أيضا كري ، انظر :

A.C. Krey, ‹A Neglected Passage in the Gesta›, A Crusade - Success or Failure, in AHR, 43, 1948, p. 243.

والمذكرات التي قدمها ريموندأجيل مكررة ، ففريق كان يرغب في الإسراع إلى بيت المقدس ، ولعل الكونت تولوز ، الذي فقد شعبيته بسبب سياسته البيزنطية ، انتظار وصول ألكسيس . وكاد بوهيموند قد كشف بالفعل عن نواياه بنقضه لقسمه أمام الامبراطور حين استولى لنفسه على أنطاكية . والمؤرخ هنا يحاول لاستئناف الرحلة إلى بيت المقدس ، ويعطي صورة مطابقة لكونت تولوز . ويستعمل المؤرخ النزاع بين قادة الفرنج ليجعل من تهم التراخي والتكبر والغيرة كوسائل ينقل بها إلينا علوم الكنيسة التي يعرفها ، وتشير الدلائل على أن الخلاف بين قادة الفرنج لم يكن شديدا كما صوره ريموندأجيل

(٥) حدثت القصــــة أيضا مع Saint Agatha في عهد الامبراطور Decius وقد لاحظ والي صقلية حسنها وأمر بحرقها حية ، ووقعت هزة أرضية أرعبت الجمهور الذي احتشد لمشاهدتها تحترق في الوقت الذي بدأت تحترق به كومة الخشب من تحتها ، فتأجل إحراقها ، وماتت في سجنها في ٥ فبراير ٢٥١ م . [illegible]

[illegible] وأدوات التعذيب .

* حدث في عهد الامبراطور دكيوس (٢٤٩ - ٢٥١ م) أنه [illegible] المسيحية ، وكان ذلك راجعا إلى الظروف السياسية والعسكرية والاقتصادية التي كانت تمر بها الامبراطورية إبان ما عرف بأزمة القرن الثالث ، [illegible] عن نظرية الأباطرة الرومان ولوثنيين من أن اضطهاد المسيحية ضرورة لأمن الامبراطورية . انظر : رأفت عبد الحميد ، الدولة والكنيسة ، ص ١٤ .

(الترجمة العربية) .

(٦) « إلزمي بامريم العذراء » تستخدم هذا التعبير كرد أثناء الصلوات ، وأحيانا كان يستخدم كترتيل .

- ورد هذا التعبير باللاتينية في الترجمة الانجليزية ، ومعناه بالعربية :

« إلزمي بامريم العذراء ، فإن أتباعك وحدهم قد ظهروا على جميع الطوائف » .

(الترجمة العربية) .

(٧) يتعجب فولشر أوف شارتر ، الذي أورد رواية موجزة لاختبار النار ، إلى أن بطرس بارثلميو كان محتالا ، وأن الذين آمنوا برواية الحربة المقدسة أصبحوا متشككين فيها الآن . انظر :

Fulcher (Hagenmeyer edition) Book 1, chap. 18, p. 241

وكان رادولف أوف كان أكثر المؤرخين إنتقادا لقصة الحربة المقدسة واستخدامها في مجموعة عند البروفنساليين ، وقد مات بطرس بارثلميو في ٢٠ أبريل ١٠٩٩ م .

انظـــر :

Hagenmeyer, Chr. 367.

(٨) مرة أخرى يستمتع المؤرخ بالفزع الذي سببه الشرور التركية ، ولكن بأسلوب تعرضه من المشتبه وجاء الخرافات القديمة اللاحقين ، ويقرر المؤرخ أن مسه غير سارا بالمرة ، وعبارته عن وضع الشباب في المواخير ، من المحتمل أنها مقتبسة من العهد القديم ، انظر :

Joel : 3 : 3; Breviarum Ausonnalis.

وكان سفر جوئيل يقرأ في الأسبوع الرابع من شهر نوفمبر . وتمثل هؤلاء المسيحيين مع المسيحيين المارونيين الآن .

(٩) تشير رواية ريموندأجيل عن تحصين الخيرات المزعومة إلى معركة عسقلان التي حدثت فيما بعد عندما سار لتمنع من اللاتينة ملازما الجيش الصليبي .

(١٠) عن المناقشة الخاصة بأجل بطرس الحارثه . انظر :

Clemens Klein, Raimund von Aguilers, Berlin, 1892, pp. 72 - 75

(١١) وليـــد هو أرفع مرتبة William Hugh of Monteil شقيق أدهيمار . وقد استخدم الصليب كعوض عن قيمة الحربة المقدسة . بالإضافة إلى ذلك ، فإن مؤلف الحسنا لم يناقش إحجام كونت تولوز عن الرحيل إلى بيت المقدس . ومن ناحية أخرى فمن الواضح أن المؤرخ كان حانقا على الكونت ويستخدم سلسلة من الرؤى لتحقيره . كما يعد المؤرخ =

= يجعل الكونت - في روايته - يبذل كل جهد لمنع استئناف السير إلى بيت المقدس ، إلا أن المؤرخ يوضح أن الكونت كان يضع الخطط مع القادة الآخرين لاستئناف الرحلة . ومن المحتمل أن كونت سان جيل كان مقتنعا وهو يوزع الغنائم التي أخذها الفرنج من طرابلس ، وأن كتب الخاص (المؤرخ) استخدم معلومات الكنيسة ليجعل منه دراسات أخلاقية . عن منهج المؤرخ . انظر :

John and Laurita Hill, Raymond IV, pp. 123 - 126.

(١٢) القديس ليونتيوس Saint Leontius من طرابلس . وهناك أيضا معلم آخر من القرن السادس يحمل اسم ليونتيوس . أما إنوليد Isnard . كونت داي Die . فهو من مدينة داي التي تقع إلى الجنوب الشرقي من فالنس Valence .

(١٣) القديس كيبريان Saint Cyprian (٢٠٠ - ٢٥٨ م) هو أسقف قرطاجة Carthage الذي تورط في اضطهادات الإمبراطور فاليريان . وقطعت رأسه في ١٤ سبتمبر ٢٥٨ م . وهناك أيضا القديس كيبريان الذي عاش زمن الإمبراطور دقلديانوس ، في آسيا الصغرى ، ومن المحتمل أن المؤرخ يشير إلى معتقداته بالرغم من وجود بعض الشك في ذلك .

والقديس حنا ذهبي الفم Saint John Chrysostom (٣٤٤ - ٤٠٧ م) أمضى في مطلع حياته ناسكا ليتخلى عن شكل الشهادة هذا ويعود إلى التبشير . وعين في عام ٣٩٨ م أسقفا للقسطنطينية . وفي مركزه هذا أظهر عداوة شديدة جعلت الإمبراطور ثيودوسيوس يأمر بنفيه . ومات في عام ٤٠٧ م وهو في طريقه إلى منفاه في صحراء بثيوس Pithyus .

والقديس أومنيخوس Saint Omnechius من المحتمل أنه لهجة محلية لاسم القديس إبيماخوس Saint Epimachus .

- في الحقيقة لم يكن الإمبراطور الصغير ثيودوسيوس (٣٩٥ - ٤٢٣ م) هو الذي نفى حنا ذهبي الفم ، بل نفي الرجل بناء على أوامر الإمبراطورة إيودوكيا Eudoxia زوجة أركاديوس إمبراطور الشرق (٣٩٥ - ٤٠٨ م) . وقد عاصر حنا حكم قسطنطين الأول ، ثم حكم ثيودوسيوس الأول (٣٧٩ - ٣٩٥ م) ثم عهد ولديه وكان حنا قسيسا من مواطني أنطاكية في شمال الشام . وتتلمذ على الفيلسوف الوثني ليبانيوس Libanius . ثم درس علوم الكنيسة ، حتى أصبح قسيسا ، ثم اعتزل لمدة ست سنوات عاش فيها حياة النسك والرهبنة . وحين منحت أنطاكية للقراب تبجحه =

= التي ورثها ثيودوسيوس ، وضع حنا كتابه (عن الشاكيل) وبه أحدى وعشرين عظة . وبعد ذلك تم توجه حنا إلى القسطنطينية في عهد أركاديوس ، وألقى عظاته في كنيسة آيا صوفيا ، وتعرض فيها لفساد حياة النساء وبعض رجال الدين وأخلاقهم ، ولانحلال المسيحيين . وفي النهاية دبر ثيوفيلوس أسقف الإسكندرية مؤامرة ضد حنا انتهت بنفيه إلى مدينة كوكوسوس الواقعة بين جبال طوروس في قيليقية . وعاش حنا مواصلا إلقاء عظاته ، واتصل بأبعد ولايات الإمبراطورية ، وبالبابا الروماني والإمبراطور الغربي هونوريوس . واستغل المعارضون لأرثه اسم أركاديوس ، وتم إبعاد حنا إلى منفاه الجديد عبر شواطئ البحر الأسود ، إلا أنه مات في الطريق عند كوماتا وهو في الستين من عمره . وللمزيد عن حياة يوحنا ذهبي الفم ، انظر : إدوارد جيبون : اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، ٣ جـ ، نقله إلى العربية لويس اسكندر ، القاهرة ، ١٩٦٩ م ، جـ ٢ ، ٢٣١ - ٢٤١ . رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة ، جـ ٤ ، القاهرة ١٩٨٣م ، ص ٣ ١ - ١٠٥ .

(المترجمة العربية)

(١٤) القديس ميركوريوس Saint Mercurius كان جنديا أرمينيا قطعت رأسه حوالي عام ٢٥٠ ، وهناك من يسمي بالقديس ميركوريوس والمعروف في الشرق والغرب بأنه قاتل جوليان .

(١٥) رد القديس جورج وصحيح بالقراءة ، مقتبس من العهد القديم . انظر : Psalm. 84 (...) من نسخة السادس من التبجيل . والقديس جورج شخصية خيالية من الأسطورة ، قتل في نيقوميديا حوالي عام ٣٠٠ م ، وتلك عظامه إلى الله . ... الأسطورة الشعبية بين القديس جورج ونجد تنين . ويبدو أنه كان بدلا من بيرسيوس Perseus الذي قتل الوحش البحري .

(١٦) القديسة تكلا Thecla قديسة مشهورة ، أطلق عليها لقب « الشهيدة الأولى » . وقد تعلمت المسيحية على يدي بولس ، وكانت لها شعبيتها في العصر الوسيط بسبب ... عن المصير الشنيع والشهادات الأخرى .

(١٧) لا يذكر المؤرخ اسمه ، عادة الأساطيل يستعمل عبارات مبهمة ، ويدفعنا هذا إلى الاعتقاد بأن الإشارة إلى Embriaco هو قائد السفن الجنوية . انظر : =

الفصل الرابع عشر

حصار مدينة بيت المقدس والاستيلاء عليها

وحمّلنا جمالنا ، وثيراننا ، ودواب الحمل الأخرى ، وانطلقنا إلى بيت المقدس بعد أن استأذنا الأسقف وحاميته . وفي اندفاعنا الجنوني بسبب الطمع في الاستيلاء على القلاع والمنازل ذات الحدائق ، لم نتذكر أو نسينا بأمر بارثولوميو ١٠ بألا نقترب من بيت المقدس ، إذا كانت تبعد عنا فرسخين إلا ونحن حفاة الأقدام . وكان من العادات المتبعة ألا يستولي أحد على قلعة أو مدينة ترفع أحد أعلامنا ، ويكون أول من وضع يده عليها أحد رجالنا . وهكذا دفع الطمع الكثيرين إلى أن يخرجوا من فراشهم في منتصف الليل دون أن يصحبهم رفاقهم ، ويستولوا على كل القلاع الجبلية والمنازل التي تحيطها الحدائق في سهول الأردن ، ولكن قلة حافظت على أمر الرب ، وساروا حفاة الأقدام ، وهم يصعدون التنهدات العميقة إلى الرب ، وبسبب التهجم على إرادته ، ولكنهم لم يتذكروا سيدنا ولا رفيقاً واحداً ممن ساروا في طريق الباطل . وعندما اقتربنا من بيت المقدس في هذه المسيرة المتعجرفة (المتكبرة) ، ضرب أهل المدينة طليعتنا ، وأصابوا بعض خيولنا بجراح خطيرة ، كما أصابوا كثيراً من رجالنا وقتلوا ثلاثة أو أربعة من صفوفنا .

وإذا انتقلنا إلى الحصار ، فإننا نلاحظ أن جودفري وكونت الفلاندر ، وكونت نورماندي ، عسكروا إلى الشمال ، وضربوا الحصار حول بيت المقدس من كنيسة القديس ستيفن التي تقع في الوسط ، إلى البرج الذي يقع في الزاوية مجاوراً لبرج داود [١١] . واستقر ريموند مع جيشه في الغرب ، وحاصر المدينة من خط الدوق إلى سفح جبل صهيون . ومع ذلك ، فقد كان هناك واد عميق بين معسكره والأسوار ، يحول دون الاقتراب بيسر من المدينة ، وكان سبباً في أن يرغب في تغيير معسكره وموقعه . وفي أحد الأيام ، وبينما كان ريموند يحاصر بيت المقدس ، توقف وزار كنيسة جبل صهيون ، حيث سمع عن معجزات الرب هناك ، وتأثر جداً ، حتى أنه خاطب الأمراء والحاضرين قائلاً : « ماذا سيحدث

لنا لو أننا تخلينا عن هذه الهبات المقدسة ، واستولى عليها المسلمون ، وربما دنسوها وحطموها لكراهيتهم للصليبيين ؟ [4] . ومن يدري أليس من الممكن أن تكون هذه الهبات من الرب اختباراً لمدى حبنا له ؟ إنني أعرف أن الفشل في حراسة كنيسة جبل صهيون بحماس سيجعل الرب يمنع عنا مثل هذه البقاع في بيت المقدس ».

وبناء على ذلك ، وخلافا لرغبات الأمراء ، أمر كونت تولوز بنقل معسكره إلى جبل صهيون . وكانت هذه الحركة سببا في استياء رجاله ، الذين لم يكونوا يرغبون في تغيير المعسكر ، والاستمرار في المراقبة ليلاً ، وهكذا فباستثناء قلة ذهبت إلى جبل صهيون ، بقي الآخرون كلهم في المعسكر الأصلي ، ولكن الكونت ظل يحمي موقعه يوميا بدفع مبالغ ضخمة من المال لفرسانه ومشاته .

سأضطر الآن لأذكر بعض الأشياء المقدسة هناك . قبر داود وقبر سليمان وقبر الشهيد الأكبر القديس ستيفن . وهناك ماتت مريم المباركة ، وهناك أكل المسيح وظهر بعد قيامته لحوارييه ولتوماس ، وفي هذا المكان ذاته أوثق الرسل بمجيء الروح القدس .

وفي أحد الأيام ، بعد حصار بيت المقدس ، أخبر ناسك على جبل الزيتون بعض الأمراء هناك أن : « الرب سيعطيكم بيت المقدس ، إذا حاصرتموها لغاية حتى الساعة التاسعة » .

ورد المسيحيون : « ليس لدينا أي آلة من آلات الحصار »

فقال الناسك « إن الرب قادر على كل شيء ، حتى أنه إذا أراد ، فإنكم تستطيعون تسلق السور بسلم واحد . إنه مع أولئك الذين يعملون من أجل الحق » . وهكذا هاجموا بيت المقدس في الصباح التالي حتى الساعة الثالثة بأسلحة الحصار التي استطاعوا تدبيرها أثناء الليل . فحطموا السور الخارجي ، وأجبروا المسلمين على التراجع إلى السور الداخلي . وتسلق عدد صغير من الصليبيين

التحصينات الداخلية . وفي اللحظة التي صار سقوط المدينة وشيكاً ، توقف الهجوم بسبب التخاذل والخوف [3] .

وبعد هذا التخاذل ، راح المسيحيون يبحثون عن الطعام في المناطق المجاورة ، وتجاهلوا الإعداد لهجوم جديد ، وانشغل كل واحد منهم أن يشبع فمه وبطنه . والأخطر من ذلك أنهم لم يصلوا للرب ليخلصهم من الشرور الكثيرة الكثيرة التي كانت تهدد حياتهم ذاتها . فقد جاءت تهديدات جديدة من المسلمين الذين سدوا أفواه الآبار ، ودمروا صهاريج المياه ، ومنعوا تدفق العيون ، وكل ذلك يذكرنا بالرب الذي « يحول الأنهار إلى برية ، وعيون الماء إلى أرض جافة لمن يعيشون فيها » ، وهكذا أصبح الماء شحيحاً جدا لهذا السبب .

وتتدفق بركة السلوان وهي نبع كبير عند سفح جبل صهيون مرة كل ثلاثة أيام ، ولكنها ، كما يقول الوطنيون ، كانت تتدفق يوم السبت فقط وتصبح مستنقعا بقية الأيام ، وبالتأكيد فليس لدينا تفسير لهذه الظاهرة إلا أنها إرادة الرب ، وتقول الروايات أنه عندما كانت تتدفق في اليوم الثالث ، فإن التدافع الجنوني العنيف لشرب الماء ، كان يجعل الكثيرين يلقون بأنفسهم في البركة ، ويتسبب في هلاك كثير من دواب الحمل والماشية ، وذلك في غمار التزاحم . فكان الأقوياء يتدافعون في استماتة ويخوضون في البركة الغاصة بالحيوانات الميتة ، والبشر المتصارعين حتى المصب الصخري الذي يتدفق فيه الماء ، بينما يضطر الضعفاء إلى الاكتفاء بالماء القذر .

كان الضعفاء يزحفون على الأرض بجوار النبع بأفواه فاغرة ، وقد أخرسهم جفاف ألسنتهم وامتدت أيديهم التماساً للماء من الذين هم أكثر حظاً . وفي الحقول ، كانت تقف الخيول والبغال والمواشي والأغنام وحيوانات أخرى كثيرة لم تعد تقوى على أن تخطو خطوة واحدة ، وهكذا كانت هذه الحيوانات تذوى وتموت عطشاً ، وتتعفن في مراتعها وتملأ الجو برائحة الموت العفنة [4] . فاضطر المسيحيون ، والحال هكذا ، إلى حمل الماء في جهد ومشقة من عين تبعد فرسخين .

أو ثلاثة ، وليشربوا ماشيتهم هناك ولكن المسلمين علموا أن رجالنا يوجدون جثث وضحايا في طرق وعرة ، وهم غير مسلحين ، فكمنوا لكثيرين منهم ، وقتلوا الكثيرين وأسروا الكثيرين ، واستولوا على ماشيتهم وقطعانهم . وكان ثمن الماء المطلوب للبيع في أوعية مرتفعاً إلى أقصى حد ، وكان مبلغ خمسة أو ستة نوميسما Nummi [٥] لا يكفي لكمية مياه نقية تكفي يوماً واحداً لشخص واحـــــد .

أما الخمر ، فلم يذكر بالمرة إلا فيما ندر ، ومما زاد من شدة العطش ، الحر اللاذع ، والتراب الخانق والرياح الشديدة . ولكن لماذا أضيع الوقت في تلك الأمور التافهة ! لم يكن هناك إلا قلة يفكرون في الرب أو في ضروريات الحصار ولم يصل الصليبيون طلبا لرحمة الرب . وهكذا كنا نتجاهل الرب في شدائدنا ونحوه ثم بهشم بالجاحدين .

في ذلك الوقت ، جاءت ، الأنباء ، وترددت من سفننا في يافا ، وجاءت معها أيضا مطالبة البحارة لنا بأن نرسل حامية لحماية أبراج يافا وسفنهم في الميناء . كانت يافا تبعد مسيرة يوم ، وهي أقرب ميناء إلى بيت المقدس ، ولكن لم يبق من الموقع المحطم إلا القليل باستثناء برج واحد سليم في القلعة دمرت تدميرا شديداً [٦] . وفرح الصليبيون وأرسلوا الكونت جيلديار كاربنتيل مع عشرين فارساً وحوالى خمسين من المشاة ، ثم أرسلوا بعده ريموند بيليه ، مع خمسين من الفرسان ، وأخيراً وليام سابران ورجاله . وعندما وصل جيلديار إلى سهل بالقرب من الرملة ، كان هناك أربعمائة من قوات العرب الأقوياء ، ومائتان من الأتراك يســدون الطريق [٧] .

وسحب جيلديار فرسانه ورماته ، الذين كانوا في الصفوف الأمامية ، بسبب قلة عدد رجاله ، وزحف فورا على الأعداء وهو واثق في عون الرب له ، واندفع الخصوم إلى الأمام وهم على يقين من أنهم يستطيعون إبادة المسيحيين ، وأطلقوا السهام ، وأحاطوا بهم ، وقتلوا أربعة فرسان ، فضلا عن أشارد أوف مرتشيبل ،

وهو شاب نبيل وفارس مشهور [٨] ، كما قضوا تماما على كل رماتنا وجرحوا آخرين من قوات جيلديار ، لكن الأمر لم يخل من تكبدهم خسائر فادحة ،

وعلى الرغم من هذه الخسائر ، فما ضعف الهجوم الإسلامي ، وما دب الوهن إلى قوة فرساننا ، الذين كانوا فعلا « جند المسيح » "Militia Christi" بل إن الجراح ، والموت نفسه ، ، قد حملتهم على شن الهجوم بقوة أكبر كلما ازداد الضغط عليهم ، وأخيراً ، وبعد أن أرهقهم التعب ، وليس الخوف ، لاحظ قادة الفرقة الصغيرة سحابة من غبار في الأفق عندما كانت الفرقة على وشك الإجهاد . وكان سبب هذا الغبار هو ريموند بيليه ورجاله الذين حثوا جيادهم ، وفي هجومهم الجنوني أثاروا كثيرا من الغبار حتى أن الأعداء ظنوا أن هناك قوة كبيرة تقترب .

وهكذا وبفضل الرب ، أبيد الأعداء ، وأجبروا على الفرار ، وقتل نحو مائتين منهم ، وتم الاستيلاء على غنائم كثيرة ، ويمكن إرجاع كثرة الغنائم إلى عادة متبعة بين المسلمين وهى أنهم إذا لاذوا بالفرار وطاردهم العدو مطاردة شديدة فإنهم يطرحون بأسلحتهم ثم بملابسهم وأخيراً كلاً بخرجه . وهكذا قتل هذا العدد الصغير من فرساننا الأعداء حتى نال منهم التعب ، وأخذوا غنائم من لاذوا بالفرار .

وبعد القتال وجمع الغنائم وتقسيمها ، توجه فرساننا إلى يافا حيث استقبلهم البحارة بفرح بالخبز والنبيذ والسمك . ولم يكترثوا بالخطر ، فأصلوا سفنهم ولم يعينوا مراقبين للحراسة باتجاه البحر في منصة المراقبة بكل سطحية . وسرعان ما وجد البحارة السعداء غير المكترثين أنفسهم محاطين من ناحية البحر بالأعداء ، وكان السبب الرئيسي في ذلك يرجع إلى إهمالهم في تعيين حرس المراقبة . وعند الفجر ، رأوا أنه لم تكن أمامهم فرصة لقتال القوة المتفوقة عليهم ، فتركوا سفنهم ولم يأخذوا إلا الغنائم وهكذا فبشكل ما عادت قواتنا إلى بيت المقدس منتصرة ومهزومة في آن واحد ، ونجت إحدى السفن ، التي كانت تقوم بأعمال النهب ، من الأسر ، فعندما عادت من يافا محملة بالغنائم رأت الأسطول

وأخيراً أبلغنا الرب الرحيم الطيب ، حتى نحترمه وحتى يمنع المسلمين من السخرية بقرابينه إذا سألوا : « أين هو إلههم ؟ » [٩٢] . وأبلغنا عن طريق رسالة من أدهيمار . أسقف لي بويه ، كيف نسأله ونكسب رحمته . لكننا نشرنا أوامر الرب علناً ودون أن نربط بينها وبين إسمه خوفاً من أن يعصيها الناس ، فيكون عقابهم أشد بسبب ذنبهم . وأرسل الرب الكريم رسلاً عديدين إلينا ولكن لكونهم اخوتنا ، فإن براهينهم بقيت بلا قيمة [٩٣] .

في ذلك الوقت أعطى أدهيمار تعليماته لبطرس ديزيديريوس : « مر الأمراء والجمهور والصليبيين القادمين من بلاد بعيدة ، والذين هم هنا الآن ، ليعمقوا الرب رب كل الجيوش ، أن حرروا أنفسكم من العالم الدنس ، وليحط كل منكم طهره للخطيئة ، ثم اخلعوا أحذيتكم ، وسيروا حفاة بأقدام عارية حول بيت المقدس . ولا تنسوا أن تصوموا . فإذا اتبعتم هذه الأوامر ، ستسقط المدينة في نهاية الأيام التسعة بعد هجوم عنيف . ولكن إذا لم يفعلوا ذلك ، فإن الرب سيزيد من كل مصائب الماضي » .

وبعد أن أبلغ بطرس ديزيديريوس سيده الكونت ايزوارد وشقيق أدهيمار وليم هيو ، وبعض الكهنة بذلك ، دعا أولئك النفر إلى اجتماع عام وتكلموا بما يلي

« أيها الرجال ، أيها الزملاء . تعرفون أسباب الرحلة وتعبنا الشديد ، وتعرفون أيضاً اننا تباطأنا كثيراً بلا مبالاة في اقامة المعدات لحصار بيت المقدس ، وأكثر من ذلك فإننا لم نكتف بعدم مبالاتنا بأن يكون الرب ودوداً معنا ، بل لقد أثرنا غضبه بكل شكل يمكن أن يتخيله الانسان في كل الأمور . كما أننا نطرده ونبعده فنجعله غريباً بسبب أعمالنا الدنسة . والآن ، إذا كنتم توافقون ، فلنترك الماضي ولتنتشر بين الأخوة المسيحيين روح المغفرة . وبعد ذلك فلنتقدم كبرياءنا في رؤية الرب ، ولنسير حول المدينة المقدسة حفاة الاقدام ، ونبتهل لتحل بنا رحمة الرب عن طريق شفاعة القديسين .

المسيحي وقد أحاطت به قوة أكبر منه . فغيرت إتجاهها وعادت بالمجانيق والدروع إلى اللاذقية ونقلت إلى زملائنا وأصدقائنا الحالة الحقيقية للأوضاع في بيت المقدس .

ونحن نعرف أنه قد أصابنا مانستحق ، لأننا لم نؤمن برسائل الرب . وهكذا ، فقد الصليبيون الأمل في رحمة الرب ، وساروا إلى سهل الأردن . وهناك جمعوا السعف وتعمدوا في نهر الأردن ، ولما كانوا قد شاهدوا بيت المقدس ، فقد خططوا للتخلي عن الحصار والتوجه إلى يافا . والعودة بأي شكل ممكن إلى بلادهم . ولكن الرب اهتم بأمر سفن من لم يؤمنوا به .

ودعونا إلى إجتماع بسبب الخلافات العامة بين القادة وخاصة لأن تانكرد قد استولى على بيت لحم ، وهناك رفع رايته على كنيسة بيت لحم ، كما لو كان يرفعها على ممتلكات علمانية . كما طرح الإجتماع أيضاً مسألة انتخاب واحد من الأمراء وحارساً على بيت المقدس في حالة إذا ما منحها الرب لنا . وقيل أن الفوز بها سيكون مجهوداً مشتركاً ولكن إذا ضاعت فان ذلك سيكون إهمالاً مشتركاً إذا لم يتول أحد حمايتها [٩٩] .

ولكن الأساقفة ورجال الدين اعترضوا قائلين « من الخطأ انتخاب ملك في المكان الذي تألم فيه الرب وتوج بتاج الشوك ، افترضوا أن الشخص المنتخب قال في قلبه : « إنني أجلس على عرش داود ، وأمتلك ممتلكاته ، وافترضوا أنه أصبح داوداً ، وهو منحط العقيدة والأخلاق . فلا شك أن الرب سيطيح به ، ويغضب على المكان والناس . فضلاً عن ذلك . فإن النبي يعتقد ، عندما يكون نبي الأقدس قد أتى سيتوقف المسيح ، لأنه قد اتضح لكل الناس أنه قد أتى [١٠٠] . ولكن لنختر وكيلاً ليحرس بيت المقدس ويقسم الجزية والريع بين حماة المدينة » . ولهذا السبب ولأسباب أخرى ، لم يتم الانتخاب إلا بعد ثمانية أيام من سقوط بيت المقدس . ولم يأت هذا النزاع بخير ، ولم يتضاعف إلا جهد وأحزان الناس يوماً بعد يوم [١٠١] .

فنتصل قائلين أن الرب القدير الذي تنازل عن عرش سيادته السماوية ، واصبح بشراً من أجلنا ، ومتنا تحت خصه ، والذي دخل بيت المقدس في تواضع راكباً جحشاً في موكب محوطه الحشود التي تلوح وتقدم له آيات التكريم ، لكي يعاني بعد ذلك من الآلام على الصليب ، تضحية من أجلنا ، ولنصلّ لعله يفتح لنا أبواب بيت المقدس ، ويسلمها لنا تمجيداً وتكريماً لإسمه بينما يصدر حكمه على أعدائه الذين استولوا عليها بغير حق ، ودنسوا مكان آلامه ودفنه ، والذين يسعون الآن بجد ليبعدونا عن المكاسب العظيمة الموجودة في حرم تنازله الإلهي وخلاصنا » .

لقيت هذه الأوامر قبولاً عاماً ، وصدر أمر بأن يقوم رجال الدين في اليوم السادس من الأسبوع وهم يحملون الصلبان وآثار القديسين موكباً يتبعه الفرسان والرجال الأقوياء ، وهم ينفخون الأبواق ، ويلوحون بالأسلحة ، ويسيرون حفاة الأقدام ، ونفذنا أوامر الرب والأمراء بكل سعادة ، وعندما سرنا إلى جبل الزيتون ، وعظنا الناس في موقع صعود المسيح بعد القيامة ، وفي هذه المرة حرضناهم قائلين « لقد تبعنا الرب إلى مكان الصعود ، وحيث أننا لا نستطيع أن نفعل أكثر من ذلك ، فلنعف عن أولئك الذين أساءوا إلينا حتى يكون الرب القدير رحيماً بنا » .

ولا حاجة بي إلى أن أقول أكثر من ذلك في هذا الموضوع ، فقد غمرت الجيش روح من التسامح ، وتضرعنا ، ونحن نقدم التبرعات السخية ، إلى الرب سائلين إياه الرحمة وألححنا في السؤال بألا يتخلى عن شعبه في اللحظة الأخيرة بعد أن أتى بهم بهذه الطريقة المجيدة والعجيبة من كل هذه المسافة إلى مصاعم من أجل القبر المقدس . وكان الرب في هذه المرة في جانبنا لأن سوء حظنا انقلب حظاً طيباً وصار كل شيء على مايرام .

ورغم أنني استبعدت احداثاً كثيرة ، فإنني لا استطيع أن اغفل عن هذه الحادثة : فأثناء الزحف الصاخب حول بيت المقدس راح المسلمون والأتراك يسيرون على طول أسوارهم من أعلى وهم يسخرون منا ويقذفوننا بالضربات والأعمال البذيئة صليباً وضعت على أذرعه من خشب بطول الأسوار ، فاندفعنا بدورنا إلى الأمام قدماً ، واثقين من قرب رحمة الرب بسبب هذه الإساءات ، تقدمنا ليلاً ونهاراً في العمل للإعداد للهجوم النهائي [164] .

عين جودفري وكونت نورماندي وكونت فلاندرز جاستون بيارن للإشراف على العمال الذين كانوا يصنعون الأبراج والمتاريس ومعدات الحصار ، وكان تعيين هذا النبيل راجعاً إلى قدرته وأمانته . وثبت أن ذلك كان اختياراً حكيماً ، لأن جاستون وضع نظاماً لتقسيم العمل ، وعجل بتنفيذ المهمة ، بينما اهتم الأمراء بجلب المواد الخشبية [165] كما كلف الكونت ريموند وليم ريكو بعمليات مماثلة في جبل صهيون ، وكلف أسقف البارة بوظيفة الإشراف على المسلمين وغيرهم من العمال الذين كانوا يجلبون الأخشاب ، فقد أجبر رجال ريموند مسلمي القلاع التي تم الاستيلاء عليها على العمل كالعبيد [166] . فكنت ترى خمسين أو ستين رجلاً منهم يحملون على أكتافهم دعامة بناء لايقوى على جرها أربعة أزواج من الثيران ، ولكني لن أرهقكم بمزيد من التفاصيل .

فعملنا جميعاً بجد واجتهدنا بتفانينا وتعاوننا ، ولم يعطل عملنا التراخي أو عدم الرغبة ، وكان الصناع فقط - الذين كانت تجمع لهم الأموال ورجال ريموند ، الذين كانوا يحصلون على أجورهم من خزانته - هم الذين يحصلون نظير المال . وبالتأكيد فقد كانت يد الرب معنا ، وسرعان ما اكتملت الاستعدادات ، وبعد عقد إجتماع قرر القادة « سيكون اليوم الخامس هو ساعة الصفر [167] . وفي هذه الأثناء ، كرسوا أنفسكم للدعاء والصلاة الليلية والصدقات ، وأعطوا دواب العمل التي معكم والخدم الذين يعملون عندكم للصناع والنجارين الذين يعملون في جر الأخشاب والأعمدة ، والقوائم والفروع الضرورية لإقامة ستائر الحصار [168] . أيها الفرسان سيكون نصيب كل اثنين منكم من أعمال البناء إقامة ساتر مقوس واحد أو سلم واحد . إعملوا بجد في سبيل الرب ، لأن مهمتنا قاربت على الإنتهاء » .

وبدأ الجميع في العمل بسعادة ، وصدرت الأوامر بمواقع الهجوم الخاصة بالأمراء، ومواضع آلات الحصار .

ولاحظ المسلمون المحاصرون أسلحة الحصار الكثيفة ، فدمّروا النقاط الضعيفة ، بحيث بدا من المستحيل شن هجوم ناجح . ولاحظ جودفري ، وكونت الفلاندر وكونت نورماندي ، عمليات التشييد التي يقوم بها المسلمون ، وبالتالي فإنهم راحوا طوال الليلة السابقة لليوم المحدد للهجوم ينقلون مواقع أسلحة الحصار ، من أسيجة وأبراج ، إلى موقع بين كنيسة ستيفن المبارك ووادي جوزفات . صدقوني إن نقل هذه الآلات لمسافة تزيد على الميل ، وإقامتها من جديد لم يكن بالأمر الهين . ودهش المسلمون في الصباح التالي عندما رأوا تغير مواقع آلاتنا وخيامنا ، وأبادو فأتول . أنا أيضا دهشنا ، نحن المؤمنين الذين رأوا يد الرب في ذلك .

ولكي أطلعكم على حقيقة التحرك إلى الشمال يجب أن أقول أن عاملين كانا وراء تغيير مواقع الحصار . فاستواء سطح الأرض هنا أتاح اقتراب أفضل لمعدات الحرب من الأسوار . كما أن بعد وضعف هذا المكان الشمالي جعل المسلمين يتركونه بدون تحصين . ولم يكن مجهود كونت تولوز أقل من ذلك عند جبل صهيون جنوبا ، وتلقى مساعدة من وليام إمبرياكو وبحارته الجنوية الذين فقدوا سفنهم في يافا . كما ذكرت من قبل فكنهم أنقذوا الحبال والمطارق والمسامير والفئوس والمعاول والبلط ، وهي كلها أدوات لا غنى عنها [١٩٩] . وسأترك التفاصيل الآن وأواصل قصة الهجوم على بيت المقدس .

بزغ فجر يوم القتال وبدأ الهجوم . ولكننا نود عند هذه النقطة أن نضيف الإحصائيات التالية طبقاً لأحسن تقديراتنا وتقديرات الآخرين كان هناك نحو ستين ألف مقاتل في بيت المقدس ، ونساء وأطفال لا حصر لهم . ولم يكن لدينا في جانبنا أكثر من إثني عشر ألف رجلاً من الأقوياء، مع كثير من المقعدين والفقراء ، وما لا يزيد - في اعتقادي - عن ألف ومائتين أو ألف وثلاثمائة

فارسا . ونحن نورد هذه الأرقام والمقارنات لنبين لكم أن كل الأمور عظيمة كانت أم صغيرة ، إذا ما أطلقناها على عاتقنا باسم الرب سوف تنجح ، كما ستثبت الصفحات التالية من كتابي .

فبدأنا أولا بدفع أبراجنا بإتجاه أسوارهم ، ثم انفتحت كل أبواب جحيم المعركة . فانهمرت الأحجار من القاذفات tormenti وطارت الصخور Petrariae في الهواء، وتساقطت الأسهم كالبَرَد [١٢٠] . ولكن خدم الرب العازمين على التمسك بإيمانهم ، مهما كانت نتيجة الموت أو الإنتقام الفوري من المسلمين ، تحملوا هنا الهجوم بصبر . ولم يحسم القتال عند تلك النقطة . وعندما اقتربت الآلات من الأسوار ، أمطر المدافعون المسيحيين بالأحجار والسهام والخشب والقش المشتعلين والمطارق المغطاة بالقار المشتعل ، والشمع والكبريت ، والكتان ، والخرق ، على الآلات . ويجب أن أوضح أن المطارق كانت مثبتة فيها المسامير بحيث تلتصق بأي جزء تصيبه ثم تشتعل . واشعلت هذه القذائف ، المصنوعة من الخشب والقش ، والتي ألقاها المدافعون ، النيران التي حالت دون تقدم من لم تربكهم السيوف ولا الأسوار العالية ولا الخنادق العميقة .

وكانت الأعمال التي قمنا بها طوال ذلك اليوم رائعة وعجيبة إلى حد أننا نشك في أن يكون التاريخ قد سجل مآثر أعظم منها . ومن جديد ، دعونا ونحن واثقون من رحمة الرب . وعزّزنا قائدنا ومرشدنا القادر على كل شيء . ومع حلول الليل استولى الخوف على المعسكرين ، مع تحطيم السور الخارجي ، وردم الخندق . أصبح الوصول سريعة إلى السور الداخلي أمراً سهلاً . وأصبح المسلمون يخشون سقوط بيت المقدس في تلك الليلة ، أو في اليوم التالي . كما كان الصليبيون بدورهم خائفين من أن يدعم المسلمون موقفهم ، بإيجاد طريقة لحرق الآلات القريبة . فسيطر على المعسكرين التيقظ والتعب والأرق ، وفي معسكرنا ، الأمل الرائق ، وفي معسكرهم ، الفزع المؤلم . كان المسيحيون يحاصرون المدينة ، طوعاً واختياراً من أجل الرب ، وكان المسلمون يقاومون على مضض من أجل شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) .

وانتشر النشاط غير العادي في المعسكرين أثناء الليل . وعند بزوغ الفجر ، أسرع رجالنا يدحرجون آلات الحصار إلى مواقعها ، فتبادلا بالمسلمين الذين حاصرونا بآلاتهم ، التي كانت تفوق آلاتنا بنسبة تسعة أو عشرة إلى واحد . ولن أطيل في هذا التفصيل الصغير ، لأننا كنا في اليوم التاسع ، وهو اليوم الذي تنبأ الكاهن بأنه سيحدد سقوط بيت المقدس . وعلى الرغم من تفكك آلات حصارنا بفعل الأحجار المتساقطة كالمطر والروح المعنوية المتخاذلة لقوتنا (٤١) التي أخذ منها التعب كل مأخذ ، فإن رحمة الرب المسيطرة والتي لا تقهر كانت حاضرة دائماً في عملنا . ومع ذلك ، فإنه لايمكنني أن أمر بهذه الحادثة الطريفة مروراً عابراً . عندما حاولت امرأتان وضع رَصَد على واحدة من الصخور ، إنطلق أحد الأحجار من نفس الآلة مصفراً في الهواء وقضى على حياة الساحرتين ، وأيضاً على حياة ثلاث فتيات بالقرب منهما وهكذا حُطم الرصد (٤٢) .

وعندما انتصف النهار كنا في حالة ارتباك ، وإرهاق ويأس ، بسبب المقاومة العنيدة لكثير ممن تبقى من المدافعين ، والأسوار العالية التي لايكاد يمكن اختراقها ، والمهارة الدفاعية الهائلة للمسلمين . وبينما بدأنا نتزنح وبدأ المسلمون يتشجعون ، جاءت إلينا رحمة الرب الحاضرة دائماً ، شفاء لنا ، وبعثت تعاستنا فرحاً (٤٣) ، ففي اللحظة التي كان مجلس قادتنا يناقش فيها حكمة سحب آلاتنا حيث احترق الكثير منها وحطم البعض بشكل سيء ، أشار فارس لا أعرف إسمه بدرعه من جبل الزيتون للكونت والآخرين بأن يتقدموا ، وكان لهذا تأثير سحري على قواتنا المرهقة ، واستأنف بعض الصليبيين الذين دبت فيهم الحماسة من جديد ، هجومهم على الأسوار ، بينما بدأ آخرون يتسلقون السلالم والحبال . وفي نفس الوقت أطلق شاب سهماً مشتعلة بمادة قطنية على تحصينات المسلمين التي كانت تتولى الدفاع في مواجهة برج جودفري والكونتين . وسرعان من أبعدت النيران المدافعين عن التحصينات ، وسرعان ما أنزل جودفري الكوبري الذي كان يدافع عن البرج ، وبينما كان الكوبري يتأرجح من منتصف البرج سد الهوة بين البرج وبين السور ، وتدفق الصليبيون دون خوف ، بجرأة وشجاعة ، إلى داخل المدينة المحروسة .

وسلك تانكرد وجودفري في المقدمة كمية لا تصدق من الدماء ، وأنزل زملاؤهما الذين كانوا في أعقابهم آلاماً شديدة بالمسلمين ، يجب الآن أن أخبركم بحادث مدهش . فقد توقفت المقاومة في أحد مناطق المدينة عملياً ، ولكن المسلمين في المنطقة القريبة من جبل صهيون قاتلوا قوات ريموند بشراسة ، كما لو كانوا لم يتهزموا . وبسقوط بيت المقدس وأبراجها كان المرء يستطيع أن يرى أعمالاً مدهشة (٤٤) . فقد قطعت رؤوس بعض المسلمين برحمة ، بينما اخترقت الآخرين الأسهم الموجهة من الأبراج ، بينما عُذّب آخرون لوقت طويل ، وأحرقوا حتى الموت في اللهب المتأجج وتكدست في الطرقات والبيوت الرؤوس ، والأيدي ، والأقدام ، وفعلاً ، فقد كان الفرسان والرجال يجرون جيئة وذهاباً فوق الجثث .

دعوني أخبركم أن هذه الأشياء حتى الآن هي تفاصيل قليلة تافهة ، ولكننا نجد قصة أخرى عندما نأتي إلى معبد سليمان ، المكان المعتاد للترنم بالطقوس والصلوات . هل نحكي ما جرى هناك ؟ لو أننا أخبرناكم لما صدقتمونا . ولذن فيكفي ان أحكي أنه في معبد سليمان وفي الرواق خاض الصليبيون بخيولهم في الدم الذي وصل إلى ركبهم وسروج خيولهم (٤٥) وفي رأيي أن في هذا عدالة إلهية تتمثل في أن يتلقى معبد سليمان دم المسلمين الذين سبّوا الرب هناك لسنوات كثيرة ، وامتلأت بيت المقدس الآن بالجثث ، وتلطخت بالدماء ، وهربت القلة الناجية إلى برج داود وسلموه لريموند مقابل عهد بالأمان . ومع سقوط المدينة كان لنا عوضاً أن نرى عبادة الحجاج عند القبر المقدس ، وتصفيق الأيدي والابتهاج والتغني ترنيمة جديدة للرب ، فقدمت أرواحهم للرب المنتصر الظافر صلوات المديح التي لم يستطيعوا شرحها بالكلمات .

وكان يوماً جديداً وسعادة جديدة وفرحاً دائماً وتحقيقاً لكدنا وعملنا ، جلب كلمات وتراتيب جديدة للجميع . ان هذا اليوم ، الذي أؤكد أنه سيخلد على مدى القرون ، قد بدل أحزاننا وصراعاتنا إلى سعادة وابتهاج . كما أذكر أيضاً أن هذا اليوم أنهى كل أشكال الوثنية ، وأكد المسيحية وأعاد إلينا إيماننا . « هذا هو اليوم الذي صنعه الرب ، سنبتهج ونسعد فيه » . وهذا صحيح لأن الرب أشرق علينا في ذلك اليوم وباركنا (٤٦) .

ورأى الكثيرون اللورد أدهيمار ، أسقف لى بوي ، في بيت المقدس في هذا اليوم . كما أكد الكثيرون أنه في ذلك اليوم ، كان يهد الطريق فوق الأسوار ، يحث الفرسان والناس على إتباعه . وجدير بالذكر أيضا ، أنه في هذا اليوم أخرج الرسل من بيت المقدس وتشتتوا في كل أنحاء العالم . وفي هذا اليوم خلّص أبناء الرسل المدينة من أجل الرب والآباء . وهذا اليوم ، الخامس عشر من يوليو ، سيخلد لذكرى مدح وتمجيد اسم الرب ، الذي استجاب لصلوات كنيسته وأعاد بيت المقدس بالإيمان والبركات إلى أطفاله ، وأيضا أراضيها التي وعد بها الآباء . وفي ذلك الوقت رتلنا أيضا صلاة القيامة ، حيث أنه في ذلك اليوم قام هو ، الذي بقدرته ، من الأموات ، وشملنا برحمته (٤٨)

• • • • •

(١) بوابة القديس ستيفن Saint Stephen ، التي حملت اسم أول شهداء المسيحية (أنظر أعمال الرسل ٦ ، ٧) كانت تقع إلى الشمال . ويقع برج داود إلى الغرب ليحمي بوابة يافا . ويقع جبل صهيون في الركن الجنوبي الغربي . وتحمي الأسوار الشرقية والجنوبية والغربية هنا أودية سحيقة ، وكان يتولى أمور بيت المقدس النائب الفاطمي افتخار الدولة ، الذي قام بتسميم الآبار ، وجمع ميرة الريف وطرد كل المسيحيين .

- استغل الأفضل فترة تعثر الحملة الصليبية أمام أنطاكية ، وبادر بالاستيلاء على مدينة بيت المقدس من سقمان وإيلغازي إبني أرتق نواب تتش في المدينة ، وذلك في أغسطس ١٠٩٨م / شعبان ٤٨٩ هـ ، وأحسن الأفضل العطاء إلى ولدي أرتق اللذين اتجها إلى دمشق ومنها إلى إقليم الجزيرة ليؤسسا لنفسيهما إمارة هناك . واستناب الأفضل في بيت المقدس إفتخار الدولة . انظر ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١١٧ . ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧ .

(المترجمة العربية) .

(٢) يشبه إجتماع رجال كونت تولوز بجبل صهيون نفس إجتماع يهوذا مكابيوس Judas Maccabaeus بنفس المكان . انظر ، Liberi Machabaeorum, 4 : 36 [illegible]

- ولقد بدأ حصار الفرنج لبيت المقدس في يوم الإثنين ٦ يونية ١٠٩٩م ، ولقد جعله مؤلف الجستا اليوم السادس من يونية إلا أنه جعله يوم الثلاثاء ، الذي يوافق اليوم السابع من الشهر في هذه السنة (١٠٩٩م) انظر ، Gesta, p. 87, n. 1.

(المترجمة العربية) .

(٣) كان حديث الناسك إلى أمراء الفرنج في يوم الأحد ١٢ يونية ١٠٩٩م . وكان هجوم الصليبيين على بيت المقدس في اليوم التالي (١٣ يونية ١٠٩٩م) . انظر ؛

Hagenmeyer, Chr., 384, 319.

- مرة أخرى يبرهن ريموند داجيل كعادته بذكر رؤيا أحد الصليبيين ، ولم يذكرها مؤلف الجستا ، بينما تتفق الروايتان بخصوص تحديد تاريخ الهجوم الصليبي على مدينة بيت المقدس . انظر ؛

Gesta, p. 88.

(المترجمة العربية)

(٤) كانت بركة السلوان Pool of Siloam تقع في الركن الجنوبي الشرقي لبيت المقدس ، ولم يتاوم المؤرخ رغبته في الاقتباس من العهد القديم Psalm. 33 - 34 ليذكرنا بالرب الذي «يحول الأنهار إلى برية » . وهذا وصف المؤرخ للتصارع من أجل مياه بركة السلوان وصفا رائعاً . وفي تقويم أحد القديسين ترجد قصة التدفق غير المتواصل للسلوان وحياة أشعيا Isaiah . انظر :

Patrologia Orientalis, 21, pp. 674 - 675

(٥) النوميسما Nomisma أو صولدي Solidus وهو الدينار البيزنطي من العملة المعيارية للدولة البيزنطية . وكان الدينار البيزنطي منذ عهد قسطنطين الأول $1/72$ من رطل الذهب . وكان ينقسم إلى ١٢ ميلياريسا ، وكل ميليارسيا تنقسم بدورها إلى اثنى عشر فلسا photles وبدأت قيمة العملة تنخفض أيام نقفور فوقاس . وحاول الكسيوس كومنين أن يسترد للعملة البيزنطية قيمتها . إلا أن عملته كانت تساوي $1/3$ النوميسما الذهبية بعد أن غلب على عملته النحاس الأحمر . وأخذت قيمة النوميسما في الهبوط في عهد آل كومنين . أما الدينار البيزنطي فكان يساوي في وزنه الدينار الإسلامي (٤٫٢٥ جرام ذهبا = ٦٦ حبة) الذي ضربه لأول مرة عبد الملك بن مروان في عام ٧٤ - ٧٥ هـ . وفي زمن الحروب الصليبية كانت العملات البيزنطية والفاطمية تستعمل بكثرة التجار الإيطاليين ، أكثر من الدينارات الأوربية التي لم تكن متوفرة حتى سابقتها . إلا أن الدينارات الأوربية كانت مقبولة لدى الأوربيين أكثر من الدينارات الذهبية التي ضربها الصليبيون في بلاد الشام كعملة رسمية لإماراتهم بدلاً من العملات الذهبية التي سادت أوربا زمن الحروب الصليبية . واختار الصليبيون في ضرب ديناراتهم أن يقلدوا الدينار الفاطمي لثقة التجار به أكثر من الدينار العباسي . إلا أن الدينار الصليبي لم يرق إلى مستوى العملات الإسلامية أو البيزنطية . انظر : ناصر النقشبندي : الدينار الإسلامي ، مجلة سومر ، بغداد ١٩٥٥م ، هـ ٢ ، ص ١١٨ - ١١٩ ، ستيفن رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، القاهرة ١٩٦١م ، ص ٢١٠ - ٢١١ ، حسين عطية ، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ، ص ٢٦٨ ، حاشية رقم (٧٢) . وراجع أيضا .

A.S. Ehrenkreutz, Arabic Dinars struck by the Crusaders, in JESHO, 1964, pp. 169 ff. R.S. Lopez, Back to Gold, in EHR, 9, 1957, pp. 219-221.

(الترجمة العربية) .

(٦) يافا Jaffa (Joppe) ، مدينة ساحلية بالقرب من بيت المقدس . وقد وجد الصليبيون ميناء يافا وقد هجره المسلمون .

(٧) كان جيلدمر كاربنيل Geldemar Carpinel أحد المقربين من جودفري . وقبل موت جودفري بفترة قصيرة ، منح حيفا لجيلدمر ولكن تنكريد منعه من أخذها . انظر :

E.G. Rey, Les Familles d'Outre - mer de Ducange, Paris 1869, p. 266.

Albert d'Aix, op. cit. p. 521.

وكان يشاء جيلدمر Wiliam of Sabran هو جد سابران وقد اصطحب الجيش البروفنسالي . ويظهر اسمه في وثائق فرنسا . انظر :

HOL. 1, pp. 490 - 491, 3 : pp. 467 - 708, 731

وكان عند اعتقاد خاطئ بأنه أسقف البارة . أما تتابع الأحداث غير معروف . فقد رحل عن وصول الملك إلى الفرنج في ١٧ يونية . وفي اليوم التالي رحل كل من جيلدمر ووليام سابران . وفي مساء يوم ١٨ أو ١٩ يونية بدأ القتال . انظر :

Hagenmeyer, Chr. 392 - 394.

وثمة بعض التحفظات حول هذه التواريخ .

« لم يذكر جون ولوريتا فيل تحفظاتهما على هذه التواريخ أو غيرها بمناقشتها . وهذه التواريخ يأخذ بها غالبية المؤرخين المحدثين طبقا لما ورد في الحاشية .

(الترجمة العربية) .

(٨) لشارد ... مرتسبرل (مقاطعة من تريفر Trevoux) . قام برهن ميراثه لكلوني حتى يحصل منه لاشتراكه في الحملة الصليبية . وسار مع هيو العظيم . انظر :

Gesta, ed. Bréhier, p. 14

(٩) عقدت جلسات سانتا لتشيلاه تنكريد على بيت لحم حوالي نهاية يونية وبداية يوليو ١٠٩٩ م . انظر :

Hagenmeyer, Chr., 396.

ورغم زيارة ... - وهو شاهد العيان الوحيد الذي يورد هذا الخبر - رأي رجال الكنيسة .

(١٠) « عندما يكون لعمي الأحصاص لد أتى » عبارة مقتبسة من العهد القديم . انظر :

Daniel. Dr. 24 - 27.

(١١) يؤكد ألبرت دكس في روايته عن هذا الاجتماع أن كونت تولوز وتنكريد قد تشاجرا في ذلك الوقت . انظر :
Albert d'Aix, pp. 462 - 463.

(١٢) « الرب الرحيم الطيب » تعبير اقتبسه المؤرخ من العهد القديم . انظر :
Psalm. 37 : 34

(١٣) « الرب الكريم » . تعبير اقتبسه المؤرخ أيضا من العهد القديم . انظر :
Psalm. 68 : 17

(١٤) يضع هاجنمير هذه المسيرات في ٨ يوليو ١٠٩٩م انظر :
Hagenmeyer, Chr., 391, 398

ولنا بعض التحفظ على رواية ريموند اجيل ، فالتعليمات التي صدرت ، لاشك ، كانت قصة خيالية روحانية كتبها ريموند اجيل . ونعرف أن هناك عدة أعمال تاريخية كانت تتلى على الناس جهرة ، وأي داعية شعبي كان بإمكانه أن يؤلف هذه الرواية ليضفي السرور البالغ على جمهوره . انظر :
Matthew, 21 : 1 - 16.

ولقد اقتبس القصاص الحديثون بكيفية باطلة صورة المسيحيين حفاة الأقدام وهم يطوفون حول مدينة بيت المقدس بينما يضحك المسلمون بمشاهدتهم . ولا نستطيع القول بأن مسيرة الفرنج حول المدينة لم تحدث ، ولكننا نعتقد أن الصليبيين لم يكونوا من الحمق حتى يتركوا الكثير من قواتهم معرضا لهجوم ناجح .

- كعادته دأب ريموند اجيل على ذكر أحداث تخيلها هو دون أن تقع ، ولسبب زيادة قوة التأثير على القارئ المسيحي ، فقد حشد بين أسطرها الكثير من العبارات التي اقتبسها من التوراة والإنجيل . إلا أن المتخصص يستطيع أن يتدرك ضعف الرؤية التي يسردها المؤرخ الصليبي ، حين يتأكد من أن ريموند اجيل نفسه هنا أيضا يذكر هذا الحدث دون أن يحرزها عنه مؤلف الجستا ، الذي حرص على تدوين كل مشاهداته بدقة شيئاً . وإذا كان على الفرنج الطواف بمظلاتهم المقدسة حول أسوار بيت المقدس فلم يكن مؤلف الجستا ليتغاضى عن القيام بذلك أو بالأحرى عن ذكر ما قد حدث
(الترجمة الحرفية) .

(١٥) جاستون أوف بيارن Gaston of Béarn هو فيكونت بيارن أوف أولورون Oloron ومونتانر Montaner ، وبعد خدمة ملحوظة في الحملة الصليبية الأولى ، عاد جاستون إلى أوربا واشترك في قتال مسلمي أسبانيا . انظر : =

= Jean de Jaurgain, La Vasconie, étude historique et Critique sur les Origines du royaume de Navarre, Pau, 1902, 2, pp. 546 - 549.

وقد انعقد قرار بناء أبراج الحصار في ١٥ يونية ١٠٩٩ م . انظر :
Hagenmeyer, Chr., 391.

(١٦) كان وليم ريكو William Ricau يعرف بوليم إمبرياكو Embriaco وكان يشركه هو وأخوه هيو Hugh سفينتين جنويتين .
- سقطت جبيل في أيدي الفرنج في عام ١١٠٩م ، وأخذها برتراند دي تولوز Bertrand de Toulouse بمساعدة الجنوية وتنازل كونت طرابلس عن إقطاع جبيل لمدينة جنوا التي تنازلت عنه بدورها لأحد مواطنيها وهو وليم إمبرياكو ، الذي شارك في الحملة الصليبية الأولى ، والمشار إليه هنا . وخلف وليم ولده هيو الأول (١١١٧ - ١١٣٥م) ثم من بعده هيو الثاني (١١٣٥ - ١١٥٧م) في إقامة إقطاع قوي في جبيل لا يخضع إلا لسادة طرابلس . وكان لسادة جبيل من أسرة إمبرياكو دور في الحرب الأهلية التي نشبت بين الجنوية والبنادقة في عكا في أواسط القرن ١٣م / ٧ هـ وانقسمت فيها القوى الصليبية في بلاد الشام كلها ، وكان من الطبيعي أن يأخذ حكام جبيل - وفاء لأصلهم - صف الجنوية في هذه الحرب . انظر :
E. Rey, Les, Seigneurs de Gibelet, ROL, 3, 1904, pp. [illegible]
وعن دور آل إمبرياكو في الحرب الأهلية انظر : حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمين . ص ١٠٤ وما بعدها
(الترجمة حرفية)

(١٧) استخدم ريموند اجيل تعبير « خمسة أيام » قبل الهجوم النهائي ويجعل تاريخ هذا الهجوم هو ٩ يوليو ١٠٩٩م ، انظر :
Hagenmeyer, Chr., 394
- كان الهجوم النهائي على بيت المقدس في ليلة يوم الخميس ١٤ يوليو ١٠٩٩م . انظر :
Gesta, p. 90.

(١٨) أطلق المسلمون على الستائر التي يحتمي بها المقاتلون اسم الطارقيات والمنجنيات . وهي أنواع من ستائر أو المتاريس والحواجز التي تصنع كستارة للرجال الذين يحتشدون بها في جو الجيش أو ما شاكله من أن يرموا بحجارة منجنيق آخر يقابله ، فيحصل =

= عنهم حضرتها ويكفيهم ـــ إصابتها . وقد جاء وصف هذه الستائر في مخطوط « تبصرة ألباب الألباب » . انظر :

Claud Cahen, un Traité d'Armurerie. pp. 155 - 156.

(الترجمة العربية) .

(١٩) ألقت السفن الجنوية في يافا في ١٨ - ١٩ يونية . انظر .

Hagenmeyer, Chr., 394

(٢٠) بدأ الهجوم في يوم ١٤ يوليو . أنظر: Hagenmeyer, op. cit., 401
ويقرر هاجنمير أن الأبراج قد نقلت في ١٢ يوليو . وتحديده لهذا التاريخ يجعل رواية ريموندأجيل تبدو زائفة لأنه يذكر أن تحرك الأبراج كان في نفس يوم الهجوم . ويقرر رنسيمان أن الأبراج قد وضعت قبالة أسوار بيت المقدس في يوم ١٤ يوليو ، وهنا يجعل رواية ريموندأجيل صادقة . انظر Runciman, op. cit., I, 218

(٢١) يناقض ريموندأجيل نفسه في هذا الموضع . فأين عزة الفرنج وتخاذل المسلمين وتكالبهم على مضحك في سبيل « شريعة محمد » (صلى الله عليه وسلم) ، وهو ماذكره في الفقرة السابقة !!
(الترجمة العربية) .

(٢٢) تكشف مقدمة ريموندأجيل عن رصد الإمرأتين عن إيمانه بالسحر . وكان يوم دخول الفرنج لبيت المقدس هو ١٥ يوليو ١٠٩٩م . انظر :

Hagenmeyer, op. cit., 405

(٢٣) التحول من « التعاسة إلى الفرح » تعبير مقتبس من العهد القديم . انظر .

Psalm, 29 : 12

(٢٤) وصل ريموندأجيل في وصفه للمشهد المعسكري إلى قمة التعبير ، وقد اقتبس تعبير « الأعمال المدهشة » من العهد القديم ، انظر : Psalm, 25 : 7; 33 : 6

(٢٥) يستعمل ريموندأجيل هنا سفر الرؤيا (1 S. Joannis Apostoli xiv : 20) كي يصف ذبح المسلمين حول معبد سليمان (جامع عمر بن الخطاب) . ويكرر المؤرخون المسيحيون هذه الإشارة من العهد الجديد دون إسناد تراجم بعينها .

(٢٦) اقتبس المؤرخ تعبير « يوم جديد » من العهد القديم . انظر ، Isaiah, 65 : 17.
كما اقتبس تعبير « هذا هو اليوم الذي صنعه الرب » من مزامير العهد القديم ، انظر ، Psalm, 117 : 24.

(٢٧) يستعمل المؤرخ هنا مصطلحاته وأحاسيسه بصلاة البعث .
- من السهل أن نلمس الفارق الكبير بين دخول الفرنج بيت المقدس وبين دخول صلاح الدين للمدينة المقدسة حين استردها من الصليبيين في عام ١١٨٧م / ٥٨٣ هـ . ويوضح وصف ريموندأجيل للفظائع التي ارتكبها الفرنج حين دخلوا المدينة المقدسة ، وذبحهم للسكان . الذين قدر المؤرخون المعاصرون عددهم بحوالي سبعين ألفا من المسلمين - حتى أن المؤرخ نفسه يحسبون [illegible] تنظيف ساحة المسجد الأقصى « أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه » . كل ذلك يوضح الفرق بين الروح الصليبية وبين روح الجهاد الإسلامي في نفس الوقت الواحد . فقد حرص صلاح الدين وهو يهاجم الفرنج في بيت المقدس على أرواح الفرنج كما حرص على ألا ينال الضرر المدينة المقدسة نفسها . وبينما كان ريموندأجيل ينشر حلفائه يخوضون في دماء ضحاياهم ، كان رجال صلاح الدين بعد ثمانية وثمانين عاما ، يطوفون شوارع بيت المقدس - بناء على أوامره - يتحرون كل اعتداء يقع على المسيحيين . واليوم الذي يحاول ريموندأجيل (الجمعة ١٥ يوليو ١٠٩٩م/٢٣ شعبان ٤٩٢ هـ) جاهدا أن يجعله يوما تمجيديا ، يختلف تماما عن اليوم الذي سعد الله بالفعل (الجمعة ٢ أكتوبر ١١٨٧م / ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ - ليلة الاسراء والمعراج - في أحداثه وفي نتائجها أيضا .
(الترجمة العربية) .

الفصل الخامس عشر

الأحداث التي تلت سقوط بيت المقدس ومعركة عسقلان

سأنتقل إلى أمور أخرى حيث أن في الوصف السابق الكفاية. فبعد مرور ستة أو سبعة أيام إلتقت الأمراء، طبقاً لعادتهم، إلى انتخاب ملك يدير المملكة، ويجمع ضرائب الإقليم، ويحمي الريف من المزيد من التدمير ويعمل كمستشار للناس. وأثناء هذه المناقشة، تجمع بعض رجال الدين وعبّروا للأمراء عن آرائهم: «إننا نشيد بتحرككم، ولكن لما كانت المسائل الروحية تسبق المسائل الدنيوية، فإن السلوك المستقيم الصحيح، يتطلب أن تنتخبوا أولاً نائباً روحياً، ثم بعد ذلك، تنتخبون حاكماً علمانياً. وإذا لم تفعلوا ذلك، فلن نعترف باختياركم». ولم ينتج عن هذا إلا إغضاب الأمراء والإسراع بالانتخاب (١).

يجب أن أضيف أن رجال الدين قد ضعفوا في ذلك الوقت، أولاً بموت اللورد أدهمار أسقف لي بوي الذي كان يكبح جماح الجيش ويحثه بأعمال تثير الإعجاب وعظات كما فعل موسى. ثم مات بعد ذلك مباشرة وليام أوف أورانج، وهو رجل محترم وأسقف كرّس نفسه لخدمتنا، ومات في معرة النعمان. وهكذا بموت هذين الرجلين الطيبين، لم يقف في وجه الأمراء إلا أسقف البارة، وعدد صغير معه. أما أسقف مارتورانا الذي كان يسلك سلوكاً منحرفاً عندما فاز بطريق الغش والخداع بكنيسة بيت لحم. فقد وقع في أسر المسلمين بعد ثلاثة أو أربعة أيام ولم يظهر بيننا بعد ذلك أبداً (٢).

احتقر الأمراء نصيحتنا واحتجاجنا وشجعوا ريموند سان جيل على قبول المملكة. لكنه اعترف بأنه يرتجف لمجرد سماعه اسم ملك في بيت المقدس، ومع ذلك فقد قال أنه لن يقف في طريق أي شخص آخر يقبلها. وهكذا انتخبوا جودفري وأعطوه القبر المقدس (٣). ثم طلب جودفري برج داود من ريموند، واعترض الكونت بقوله أنه كان يخطط للبقاء في المنطقة حتى عيد الفصح، وطلب أن

يعامل هو ورجاله حتى ذلك الحين المعاملة اللائقة . وورد النبوق بأنه سيكون أخر من سيتخلى عن البرج . وهكذا تطور بينهما الخلاف . كان كونت الفلاندر ، وكونت نورماندي ، يؤيدان جودفري فضلاً عن كل رجال ريموند . واعتقد رجال ريموند أن الكونت سيعود إلى لانجيدوك بمجرد أن يفقد برج داود . ولم تكن هذه هي المعارضة الوحيدة التي صادفها ريموند من قبل أتباعه البروفنساليين ، لأنهم كانوا - في وقت مبكر - قد نشروا أكاذيب ليحولوا دون انتخابه ملكاً [٤]

وعندما تخلى الزملاء والأصدقاء عن ريموند ، فقد سلم البرج لأسقف البارة حتى يتم الفصل في هذه القضية . لكن الأسقف قد سلمه لجودفري دون أن ينتظر قراراً . وعندما اتهم الأسقف بأنه لم يكن أميناً ، رد الأسقف بأنه فعل ذلك تحت إكراه . وأنه عومل معاملة خشنة . وعلمت أن أسلحة كثيرة قد حملت إلى منطقة الأسقف . أي بيت البطريرك الذي كان يقع بالقرب من كنيسة القبر المقدس . وتحدث الأسقف عن استخدام القوة الخسيسة ضده ولاء رجال ريموند سراً

بعد ضياع البرج استشاط الكونت غضباً وأشاع من أتباعه قائلاً . أنه قد أعتدى على كرامته ، وأنه سيغادر البلاد [٥] وهكذا سافرنا من بيت المقدس إلى أريحا Jericho وجمعنا السعف وأتينا إلى نهر الأردن . وصلاً بصحبة بارثولوميو ، صنعنا طوفاً من الفروع الصغيرة ، ووضعنا ريموند عليه . وعدنا عبر النهر ثم أمرنا الحشد المتجمع أن يصلي من أجل حياة الكونت والأمراء الآخرين . واغتسلنا في النهر المقدس . والكونت ريموند لا يرتدي إلا قميصاً وسروالاً خفيفاً ولكن لماذا أصبح رجل الرب ، بطرس بارثولوميو أمراً كهنا ؟ لم يكن لدينا أي فكرة حتى الوقت الحاضر [٦]

وعند عودتنا إلى بيت المقدس بعد هذه المهمة ، انتخب البعض أرنولف ، كاهن كونت نورماندي بطريركاً ، خلافاً لرغبة رجال الدين الطيبين ، الذين اعترضوا لأنه لم يكن مساعد شماس ، وكان من أصل كهنوتي [٧] . والأهم من ذلك كله أن اتهم بأنه كان يداعب النساء أثناء الرحلة ، حتى أنه كان موضوعاً

للقصص الفاحشة . ولا حاجة إلى القول بأن أرنولف الطموح تجاهل القرارات الكنسية ، وقد حط موقفه المشين وانعدام ضميره من شأن رجال الدين الطيبين ، ورفع نفسه إلى الكرسي البطريركي بمصاحبة التراتيم والأناشيد والتصفيق الكبير من الناس . ولم يخش أرنولف أن يحل به العقاب الإلهي الذي حل بأسقف مرتورانا ، المحرض والموجه لانتخاب أرنولف . فقد ظل يأخذ دخل الكنائس من رجال الدين الذين كانت لهم هياكل في قبر الرب ، أو من أولئك الذين تلقوا الرسوم مقابل العناية به .

وما إن استقر أرنولف في السلطة ، حتى راح يسعى بمساعدة السكان إلى تحديد موقع الصليب الذي كان يعبده الحجاج قبل استيلاء الأتراك على بيت المقدس ولم يحولوا شيئاً من موقعه . ومضوا في ذلك إلى حد أن أقسموا على أنهم لا يعرفون شيئاً . إلا أنهم في النهاية أجبروا على أن يقولوا ، أن الوحي يقول أنكم شعب الله المختار ، وأنكم تخلصتم من المحن وأعطيت لكم بيت المقدس ، ومدناً أخرى كثيرة ، ليس بقوتكم الكبيرة بل من رب غاضب أعمى أهل الكفر وقد منع الرب ، قادتكم ، أبواب المدن التي لا يمكن اختراقها ، وكسب لكم معارك رهيبة . وإذا كان الرب في جانبكم ، فلماذا نصر على أن نخفي آثاره عنكم ، . ثم بعد قيادة الصليبيين إلى قاعة في الكنيسة ، نقبوا عن الصليب وسلموا [٨] ، وهكذا سعدنا ومجدنا الرب القدير ، وشكرناه حيث أنه لم يعد إلينا مدينة الآلام فحسب ، بل أعطانا أيضاً رموز صلبه وانتصاره ، حتى نتمسك به أكثر في أحضان الإيمان ، ونحن أكثر يقيناً ، لأننا رأينا الآن آثار خلاصنا .

وفي تلك الأثناء ، كما ذكرنا من قبل ، كان جودفري يحتفظ ببيت المقدس بالاتفاق . وكان ريموند قد أثار حنقه الحزن والظلم بسبب ضياع برج داود ، الذي هو بلا شك مفتاح مملكة يهوذا . وهكذا رجع الخطط ليعود بجزء كبير من البروفنساليين . وعلى أية حال ، فقد جاءت الأخبار بأن ملك مصر قد وصل إلى عسقلان مع قوة كبيرة من المسلمين ، بهدف مهاجمة بيت المقدس ، وقتل كل الفرنجة ممن هم في سن العشرين وما فوقها ، وأسر الباقين مع نسائهم . وقالت

الشائعة أنه سيزوج شباب الفرنجة بنساء من جنسه . والنساء الفرنجيات برجال من بلاده . وبذلك يمحى جنساً من المحاربين من الفرنجية الأصل [9] .

وبعلته خطلت الضخمة يتباهى بأنه سيعامل أنطاكية بوحشية بنفس المعاملة . أكثر من ذلك ، فإنه سيتوج نفسه ملكاً في دمشق والمدن الأخرى . فضلاً عن ذلك فبعد دراسة حجم جيوشه القوية من الجنود والفرسان . رأى أن الأتراك لم يكونوا شيئاً . والفرنجة هازمي الأتراك لم يكونوا شيئاً . ولم يكتف بذلك ، نقذف في حق الرب قائلاً ، أنه سيدمر مسقط رأس الرب . والمذود الذي رقد فيه ومكان الآلام والجلجثة . وبالذات البلطة التي انبثق فيها دم الرب المصلوب ، والقبر الذي دفن فيه الرب . وكل البقاع المقدسة الأخرى ، في بيت المقدس والمناطق المحيطة بها [10] . بل زاد متباهيا بأنه سيخرج هذه الآثار من تحت الأرض . ويحطمها ويسحقها . وينثر ترابها فوق البحر ، حتى لا يبحث الفرنجة بعد ذلك خارج بلادهم عن بقايا الرب التي ستكون قد ضاعت وطواها البحر [11] .

واجتمع أمراؤنا ورجال الدين عند سماع هذه الأخبار والشائعات الأخرى عن الحشود الضخمة التي جمعها هذا الطاغية عند عسقلان ، وهي مدينة تبعد عنا مسيرة يوم ونصف اليوم . وسار الصليبيون المتجمعون حفاة الأقدام أمام القبر المقدس ، وطلبوا الرحمة . والدموع تملأ عيونهم ، من الرب وسألوه أن يخلص شعبه الذي نصره في الماضي . كما توسلوا إليه ألا يسمح بأي تدنيس لمكان صلبه الذي تم تطهيره تواً من أجل إسمه . ثم أتينا إلى معبد الرب حفاة الأقدام . نلتمس رحمته بالأغاني والتراتيل والدعائر المقدسة . وهناك تدفقت صلواتنا من كل كياننا أمام الرب وتضرعنا أن يتذكر تحقق بركته في نفس المكان . وإذا كان شعبك قد أخطأ في حقك . وكان التضيير بمثابة تكفير واتراك مصيبين في هذا المكان ، فاستمع إليهم من السماء . يارب وخلصهم من أيدى أعدائهم [12] .

وبعد مباركة الأسقف . وضع القادة خطط المعركة . ووسائل حماية بيت المقدس . ثم رحل جودفري وفرسانه للتحقق من الشائعات الخاصة بالأمير ، وعندما

وصلوا إلى سهول الرملة ، أرسلوا أسقف مرتورانا ، ليبلغ الكرتنات في بيت المقدس بحقيقة الأوضاع . ولما تأكد القادة من وقوع المعركة ، أصدروا نداء للرجال الأقوياء . وصلوا للرب . وساروا خارجين من بيت المقدس في كامل أسلحتهم وهم يحملون الخوذة المقدسة . وفي اليوم نفسه وصلوا إلى السهول ، وفي اليوم التالي تحركت جيوشنا الضخمة إلى الأمام في تشكيلات يحيط بها الحراس من كل جانب [13] .

وعند الغروب . اقتربنا من نهر على الطريق من بيت المقدس إلى عسقلان . وشاهدنا عربا يرعون قطعانا من الأغنام ، وأسرابا كبيرة من الماشية والجمال . فأرسلنا مائتا فارسا للإستكشاف ، لأن العدد الكبير من العرب والدواب جعلنا نعتقد بأن قتالاً سينشب . وفي أثناء ذلك ، كما كتبنا ، سرنا في تسعة صفوف ، ثلاثة في المؤخرة ، وثلاثة في المقدمة ، وثلاثة في الوسط ، كي نواجه أي هجوم بثلاثة صفوف ، حيث يكون الصف الأوسط دائما مستعدا لمساندة الصفين الأخرين . وقد هرب الرعاة من العرب عند مشاهدة فرساننا ، ولكن إذا كان الرب قد أعانهم كما أعاننا فإنهم ، بلا شك ، كانوا سيدافعون عن حيواناتهم . وفي الواقع ، وصل عددهم إلى ثلاثة آلاف ، بينما كان جيشنا يضم ألفا ومائتين من الفرسان . ولم يكن لدينا أكثر من تسعة آلاف من الرجالة . وبعد هروبهم ، استحوذنا على كميات لا تصدق من الأسلاب . وأسرنا وقتلنا عددا قليلا من العرب . ولما كان النهار على وشك الانتهاء ، فقد ضربنا الخيام ، وأرغمنا الأسرى على الكشف عن خططهم ، وعن مدى استعدادهم ، وعن أعدادهم وقوتهم . وأقر الأسرى أن العرب يريدون أن يحاصروا بيت المقدس ، وأن يطردوا ويأسروا أو يقتلوا الفرنج . وأضافوا أن أميرهم ، الذي أقام معسكره على بعد خمسة فراسخ ، سيزحف نحونا في اليوم التالي . ولم يغامر الرعاة بتقدير حجم جيشهم تقديرا قاطعا ، لأنه كان يتزايد يوما بعد يوم . أما عن دورهم ، فقد أقروا أنهم كانوا رعاة شرعوا في بيع حيواناتهم للجيش المصري

وبقا الصليبيون ، استعدادا للصدام المقبل . كل منهم عن ذنوب الآخر التي

ارتكبها في حقه والتي لم ترتكبها . وأصبحوا في هياج لدرجة أنهم لم يتأكدوا من التقارير الخاصة باستعدادات العدو . وفي غمرة الثقة إعتقدوا أن يكون العرب أكثر جبنا من الغزلان وأكثر وداعة من الغنم . وتولدت هذه الثقة من إيماننا بأن الرب كان معنا في المسالك الأخرى . وأنه بسبب كفر الوثنيين ، سوف يبدأ وحده معاقبتهم حتى لو كانت قضيتنا واهية . وهكذا فعلنا أن نحضر الرب كمدافع وأننا معاونوه . وصدرت الأوامر إذ ذاك لكل الجيش أن يكون الجميع مستعدين للمعركة عند الفجر . وأن ينضم كل فرد إلى قوات قائده . وأن لايخلع أي منا الأسلاب حتى تنتهي المعركة وإلا صدر ضده قرار الحرمان . وقضينا ليلة بائسة دون خيام ، وبقليل من الخبز ، ودون نبيذ ، وبقليل من القمح والملح . ولكن كانت إمداداتنا من اللحم . على الأقل ، في وفرة الرمال . وهكذا أكلنا اللحم . واستخدمنا لحم الضأن بدلا من الخبز .

وعند بزوغ الفجر ، إنبعث دوي الطبول والأبواق مستدعيا الجيش اليقظ وهكذا تحركنا عند طلوع النهار ، والحراس مرتبون على كل الأجناب كما قلنا من قبل ، وتحركنا قدما إلى معسكر المسلمين . وبقي العرب في معسكرهم اعتقادا منهم أنه عند سماع الأخبار بحضورهم سنشعر بالكرب من أسوارنا . ووصلتهم أخبار ذبح وهروب الرعاة ، وأدى ذلك إلى أن يرددوا في أنفسهم « لقد أتى الفرنج من أجل الأسلاب والآن سوف يعيدون أدراجهم » .

وفي الواقع ، كانت تصلهم تقارير يومية عن حالات الهروب من بيت المقدس ، وعن صغر حجم جيشنا ، وعن الوهن الذي أصاب رجالنا وجيادنا . وكانوا متأكدين ، وهم واثقين في حجم قواتهم وقوتهم ، أنه في إمكانهم إغراقنا ومعسكرنا في بصاقهم . ولقد صحبهم فلكيوهم ومنجموهم ، وهكذا منعنا ، بعدم التحرك أو القتال قبل اليوم السابع من الأسبوع ، مع تحذيرهم بأن التحرك قبل ذلك التاريخ لن يكون مفيدا .

وتحركنا في تسعة صفوف ، كما ذكرنا من قبل ، وضاعف الرب من جيشه

إلى حد أننا بدونا نبلغ حجم القوات العربية . وحدثت هذه المعجزة حين كونت الحيوانات ، التي حررناها ، قطعانا ، وتبعتنا دون أن يوجهها أحد . فكانت تقف حين نتوقف عن المسير ، وتجري حين نسرع الخطا ، وتسير إلى الأمام إذا مافعلنا ذلك . ولم يعد في مقدورنا تقدير الغنائم ولا إحصاء مبلغ الأسلحة والخيام التي استولينا عليها ! وعندما شاهد العرب ذبح الكثيرين من رفاقهم ، ونهب الفرنج لمعسكرهم في شغف وأمان ، أقلعوا عن القتال وفروا ، طالما أنه من المحتم علينا الفرار ، [illegible] الاستطا[illegible] ! وإذا كان المسيحيون اليوم ، وقد أجهدهم السير وأنهكهم التعب بسبب الجوع والعطش ، قد سحقوا قواتنا بهجوم واحد . فماذا يفعلون بنا وقد نالوا قسطا من الراحة ، واشتدوا بأسهم ، وقد حققوا النصر علينا ، ونحن الآن نصف أحياء ، ومستضعفين وقد أصابنا الرعب ! » .

ونتيجة لذلك ، عاد العرب ، وقد أسقط في أيديهم - ماعدا بعض الاستثناءات - إلى عسقلان التي تبعد عن معسكرنا بمسافة ميل واحد . وقرر ريموند أن يبعث بموفده ، وهو رجل تركي ، إلى الأمير ، بمشروع سلام ، ولكنه ذكره أنه قد رفض تسليم القدس ، واضطر إلى قتالنا [14] . وفي نفس الوقت ، كان على موفده هنا أن يقدر الموقف ، وأن يرى ما إذا كان الأمير يخطط لأن يهرب أم ليقاتل وكيف كان رد فعله إزاء الهزيمة . وكان موفده ، مع أنه تركي ، يتقن بضعة لغات ، وماهرا وأريبا ، وأيضا مخلصا لنا ، ولقد سمى بوهيموند لأن بوهيمند العظيم (النورماندي) قد استقبله عند حوض المعمودية حين ارتد بإرادته عن الاسلام وجاء مع زوجته وأسلحته [15] .

وهنا ينتهي كتاب ريموندداجيل سعيدة .

• • • • •

هوامش الفصل الخامس عشر

(١) يذهب هاجنمير إلى أن الإجتماع قد تم في ١٧ - ١٨ يوليو ١٠٩٩م . أنظر :
Hagenmeyer, op. cit., 408 - 409.
راجع أيضا : William of Tyre (Babcock and Krey), v. 1, p. 380.

(٢) مات أسقف أورانج Orange في معرة النعمان حوالي ٢٠ سبتمبر ١٠٩٩م . أنظر :
Hagenmeyer, op. cit., 332.
وكان أسقف مارتورانا Martorano رجل دين من مارتورانا في كالابريا . وكان متعاطفا مع النورمان وحث على انتخاب أرنولف مالكورن بطريركا لبيت المقدس . وقد أدى هذا به وقت معركة عسقلان إلى حيرة المؤرخين المعاصرين .

(٣) يقرر ألبرت دكس أن تاج مملكة بيت المقدس قد عرض على كونت تولوز . ويميل إلى الاعتقاد أنه لم يعرض عليه . ولكن المشكلة تبقى دون حل . وتدفع مناقشته اللاحقة لجودفري إلى الارتياب في رواية ريمونداجيل . ومن المؤكد ، أنه من المحتمل أن يعرض هذا المنصب (ملك بيت المقدس) على كونت تولوز . وكحاج مخلص فإنه من المحتمل بالنسبة له أن يرفضه . وقد تم انتخاب جودفري كحام للقبر المقدس .

(٤) معتقد أن خدمة جند جودفري وريموند حول برج داود لم تكن كبيرة بالدرجة التي يدفع المؤرخ إلى الاعتقاد فيها . وبالكاد . فإنه من المحتمل أن يكون رجال ريموند كثيرة في ذلك تركت قد تخطر عنه لصالح جودفري . وقد عهد برج داود إلى أسقف البارة الذي أعاده إلى جودفري . وبعد ذلك بقليل ، في ٢٨ يوليو ١٠٩٩م ، خرج ريموند في رحلة إلى نهر الأردن (Hagenmeyer, 411) . وبعد انتهاء رحلته إلى الأردن . عاد ريموند لمساعدة جودفري عند عسقلان لذلك فمن المحتمل أن المؤرخ يستعمل ريموند كصورة لرجل وصم بالعار بغض النظر عن كونه متخليا عن بيت المقدس . وربما تضاربت مساعدة جودفري بأنه أحد السادة العلمانيين مع فكرة ريموند بأن بيت المقدس ملكا للكنيسة .

(٥) إقتبس المؤرخ وصفه لغضب ريموند من العهد القديم . وغالباً ما يجعل المؤرخ من ريموند موضوعا لغضب الكنيسة . أنظر :
Psalm, 2 : 13.

(٦) تظهر هنا حقيقة أن المؤلف قد إرتاب في حكمة تعاليم بطرس الصادية إلى الإحتفاء أو المؤلف كان يرتاب في مصدر معلوماته .

(٧) كان انتخاب أرنولف كبطريرك لبيت المقدس في أول أغسطس ١٠٩٩م . انظر :
Hagenmeyer, op. cit., 413

(٨) تم العثور على الصليب في ٥ أغسطس ١٠٩٩ م . انظر : Ibid. 413.

(٩) عسقلان Ascalon هي عسقلان Ashkelon القديمة ، وتقع على بعد أربعين ميلا من بيت المقدس . ومن الناحية النظرية كانت من أملاك الخليفة الفاطمي المستعلي (١٠٩٤ - ١١٠١ م) ، وكانت السلطة الفعلية في أيدي الوزير الأفضل شاهنشاه . ويكتب المؤرخ عن ملك مصر - ولابد أن الأخبار باقتراب الجيش الفاطمي قد وصلت إلى الفرنج فيما بين ٦ و ٩ أغسطس ١٠٩٩ م .

(١٠) « والمذود الذي رقد فيه الرب » تعبير مقتبس من العهد الجديد . انظر :
Luke 2 : 7

(١١) « وينثر ترابها » تعبير إقتبسه المؤرخ من العهد القديم . انظر : Psalm. 17 : 43

(١٢) من المحتمل أن هذا المشهد والمخاطبة كانا بإيحاء من سفر الملوك . انظر : I Kings 8

(١٣) رحل جودفري للاستكشاف في ٩ أغسطس ، واقترب الصليبيون من عسقلان في ١١ أغسطس ١٠٩٩م ، وفي اليوم التالي وقعت المعركة (Hagenmeyer, 418, 420, 421) ، وقد حمل كونت تولوز الحربة المقدسة في حملة ١١٠١م واستغلها أسقف ميلان حث الفرنج المسلمة على القتال . وقد نوقش مصير الحربة المقدسة طويلاً ويعتقد رنسيمان أن الحربة التي استغلها أسقف ميلان لم تكن هي الحربة الأصلية . وذكر آكرت «كس أن الحربة فقدت في حملة ١١٠١م . انظر :
Runciman, The Holy Lance found at Antioch, AB. 68, 1950

(١٤) من المحتمل أن يكون الناسخ قد بدأ قصة أخرى عند هذه النقطة .

(١٥) من الواضح أن ناسخ المخطوط هو الذي وضع آخر عبارة في تاريخ ريموندا جيل . لأن التاريخ يتوقف عند الفقرة السابقة على العبارة الأخيرة فجأة دون أن يكمل قصة

المفاوضات بين صحوث ريموند والأفضل . وما أورده كل من رادولف أوف كان رالبرت دكس يكاد يكون نهاية مناسبة لفترة ريمونداجيل . فقد أرسل مسلمو عسقلان إلى المعسكر الصليبي بالقرب من عسقلان - بعد هزيمة قوات الأفضل - أنهم لن يسلموا المدينة إلا لريموند نفسه ، وكذلك فعل أهل أرسوف ، إلا أن جودفري الشك في نوايا ريموند منذ إصراره على أخذ برج داود في بيت المقدس ، قد رفض هذه العروض . الأمر الذي أغضب ريموند ، وكذلك روبرت النورماندي وروبرت كونت الفلاندرز . وترك الجميع جودفري ، ريموند ليعود إلى وسط الشام حتى يكمل مشاريعه الصليبية ، والروبرتان كي يعودا إلى بلادهما . انظر :

Radolf of Caen, op. cit., p. 703; Albert d'Aix, op. cit., pp. 497 - 498.

أما مسألة إرتداد هذا التركي عن الاسلام فهي نهاية تتفق مع مبلغ السعادة التي عبرت عنه جملة الناسخ التي أنهى بها تاريخ ريمونداجيل بعد أن أورك نقشعار الجزء الأخير منه . وقد أشرنا من قبل إلى بعض التحفظات حول مايورده ريمونداجيل عن ارتداد بعض الأسراء عن الدين الاسلامي الحنيف انظر ماسبق ، الفصل الـ ، حاشية رقم (٩١) .

(الترجمة العربية) .

تسنين أهم الأحداث التاريخية

- حوالي ١٠٤١ - ١٠٤٢ م - مولد ريموند ساجيل .
- ١٥ أغسطس ١٠٩٥ م - إجتماع البابا أوربان وأدهيمار أسقف لي بويه في نوتردام لي بويه .
- ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥ م . أوربان الثاني يعلن قيام الحملة الصليبية الأولى
- ٢٨ نوفمبر ١٠٩٥ م . سفراء ريموند سانجيل يعلنون قبول سيدهم لحمل الصليب (الاشتراك في الحملة) .
- ١٢ يوليو ١٠٩٦ م - ريموند سانجيل يتنازل عن جزء من أملاكه لصالح كنيسة سانجيل في حضور البابا أوربان الثاني .
- أكتوبر ١٠٩٦ م . رحيل القوات البروفنسالية إلى الشرق .
- شتاء ١٠٩٦ م . المعاهدة بين البروفنساليين وبودين في سكوتاري .
- منتصف فبراير ١٠٩٧ م . البجناك يختطفون أدهيمار .
- ١٢ أبريل ١٠٩٧ م . هجوم البروفنساليين على روسا .
- ١٨ أبريل ١٠٩٧ م . وصول رسل ألكسيس إلى رودستو .
- ٢٠ أبريل ١٠٩٧ م . المناوشات بين البروفنساليين والقوات البيزنطية .
- ٢٢ - ٢٦ أبريل ١٠٩٧ م . المحادثات بين ريموند كونت سانجيل وألكسيس كومنين
- ١٠ مايو ١٠٩٧ م . ريموند يرحل عن القسطنطينية .
- ١٤ مايو ١٠٩٧ م . بداية حصار نيقية .
- ١٦ مايو ١٠٩٧ م . وصول القوات البروفنسالية إلى نيقية .
- ١٠ يونية ١٠٩٧ م - تعويض برج جوناتس .
- ١٩ يونية ١٠٩٧ م إستسلام نيقية .
- ٢٨ يونية ١٠٩٧ م . رحيل القوات البروفنسالية عن نيقية .
- أول يوليو - ٢ أكتوبر ١٠٩٧ م . معركة دوريليوم والرحيل إلى أنطاكية
- ٤ أغسطس ١٠٩٧ م - مرض ريموند كونت سانجيل .

- ٢٠ - ٢٢ أكتوبر ١٠٩٧ م . بداية حصار الصليبيين لأنطاكية .
- ١٧ نوفمبر ١٠٩٧ م . وصول السفن الجنوية إلى ميناء السويدية .
- ٢٩ ديسمبر ١٠٩٧ م . هجوم قوات ياغي سيان على المعسكر الصليبي .
- ٢ يناير ١٠٩٨ م . أدهيمار يأمر الفرنج بالصيام وإخراج الصدقات .
- ٩ فبراير ١٠٩٨ م . هزيمة قوات رضوان ملك حلب ووصول سفارة الأفضل إلى المعسكر الصليبي خارج أنطاكية .
- ٤ مارس ١٠٩٨ م . وصول أسطول بقيادة إدجار إثلنج .
- ٢٠ مارس ١٠٩٨ م . إتمام بناء قلعة المنبر .
- ٥ أبريل ١٠٩٨ م . إجماع الصليبيين لتشييد قلعة في موضع دير القديس جورج .
- ٢٥ مايو ١٠٩٨ م . إقتراح بوهيمند بأن تؤول أنطاكية لمن يقع يده عليها .
- ٢٩ مايو ١٠٩٨ م . الأمراء الصليبيون يعقدون محلفاً للاتفاق مع بوهيمند
- ٢ يونية ١٠٩٨ م . بوهيمند يكشف عن خطته للاستيلاء على أنطاكية بمساعدة فيروز
- ٣ يونية ١٠٩٨ م . سقوط أنطاكية في أيدي الصليبيين .
- ٢٨ يونية ١٠٩٨ م . هزيمة كربوغا .
- ٣ يوليو ١٠٩٨ م . مجلس الأمراء الصليبيين يؤجل الرحيل إلى بيت المقدس .
- أول أغسطس ١٠٩٨ م . موت أدهيمار .
- ١٤ سبتمبر ١٠٩٨ م . مساعدة ريموند كونت سانجيل بجودفري عمر عزاز
- أكتوبر ١٠٩٨ م . البروفنساليون يستولون على البارة .
- ٥ نوفمبر ١٠٩٨ م . إجتماع الصليبيين في كنيسة القديس بطرس في أنطاكية .
- ١١ - ١٢ ديسمبر ١٠٩٨ م . الاستيلاء على معرة النعمان .
- ٢٩ ديسمبر ١٠٩٨ م . إجتماع بوهيمند وريموند سانجيل .

- ٤ يناير ١٠٩٩ م . إجتماع الأمراء الصليبيين ثانية لمناقشة السير إلى بيت المقدس .
- ١٣ يناير ١٠٩٩ م . رحيل ريموند من معرة النعمان .
- ٢٥ يناير ١٠٩٩ م . وقوف الصليبيين في كفرطاب .
- ٤ فبراير ١٠٩٩ م . إستقبال سفراء أتابك حمص وأمير طرابلس
- ١٤ فبراير - ١٣ مايو ١٠٩٩ م . حصار عرقة .
- ٨ أبريل ١٠٩٩ م . إختبار الحربة المقدسة .
- ١٠ - ١١ أبريل ١٠٩٩ م . سفراء ألكسيوس يعترضون على استيلاء بوهيمند على أنطاكية
- ١٦ مايو ١٠٩٩ م . رحيل الصليبيين عن طرابلس .
- ٣ يونية ١٠٩٩ م . الفرنج يحتلون الرملة .
- ٧ يونية ١٠٩٩ م . إقتراب الصليبيين من بيت المقدس .
- ٩ يونية ١٠٩٩ م . ريموند بيليه وريموند أوف تورين يقومون بغارة ناجحة .
- ١٧ يونية ١٠٩٩ م . وصول السفن الجنوية إلى يافا
- ٨ يوليو ١٠٩٩ م . موكب الفرنج حول أسوار بيت المقدس .
- ١٣ - ١٥ يوليو ١٠٩٩ م . الهجوم النهائي والاستيلاء على بيت المقدس .
- ٢٢ يوليو ١٠٩٩ م . إنتخاب جودفري .
- ٢٨ يوليو ١٠٩٩ م . رحيل ريموند سانجيل عن بيت المقدس .
- ١٢ أغسطس ١٠٩٩ م . معركة عسقلان .

المصـــــادر والمراجـــــع

التي اعتمدت عليها الترجمة العربية في المقدمة والتعليق

بيـــــان بالمختصـــــرات

التي وردت في مقدمة وهوامش الترجمة العربية

A. B.	- Analecta Bolandiana.
A. O. L.	- Les Archives de L'Orient Latin.
A. H. R.	- American Historical Review.
A. R. A. H. A.	- Annual Reports of The American Historical Association.
B.	- Byzantion.
B. E. O.	- Bulletin des Etudes Orientale.
B. I. H. R	- Bulletin of the Institute of Historical Research.
B. P. I. A. S. A	- Bulletin of the Polish Institute of Arts and Science in America.
B. S. O. A. S.	- Bulletin of School of Oriental and African Studies.
C. E	- Collier's Encyclopedia.
Ch. H.	- Church History.
J. S.	- Journal des Savants.
Latomus	- Latomus.
M. S.	- Medieval studies.
R. H. C. - H. Occ.	- Recueil des Historiens des Croisades. Historiens Occidentaux.
R. H. E.	- Revue d'Histoire Ecclesiastique.
R. H. G. F.	- Recueil des Historiens des Gaules et de la France.
R. O. L.	- Revue de L'Orient Latin.

R. S.	- Rolls Series.
S. E.	- Sacri Erudiri.
S. M.	- Studia Medivalia.
S. M. C.	- Studies in Medieval Culture.
Speculum	- Speculum.
Traditio	- Traditio.

أولاً : المصادر

(أ) المصادر الأصلية الأوربية

- Albert d'Aix, Historia Hierosolymitana, in R.H.C. - H. Occ., Vol. IV.
- Anne Comnen, The Alexiad, English trans. by Elizabeth Dawes, London, 1928.
- Anonymi, Gesta Francorum et Aliorum Hierosolymitanorum (ed. by Rosalind Hill as The Deeds of The Franks and The Other Pilgrims to Jerusalem), London, 1962.
- Bechada (Gregory), Chanson d'Antioche en Provencal, French trans. by P. Meyer, in A. O. L., Vol. I
- Epistolae et Chartae ad historiam primi belli Spectantes, in Die Kreuzzugsbriefe, ed. H. Hagenmeyer, Insbruck, 1901.
- Epistolae Regis Ludovici VII, in R. H. G. F., Vol. 16.
- Fulcher of Chartres, Gesta Francorum Iherusalem (ed. by Frances Rita Ryan, as A History of the Expedition to Jerusalem), Tennessee, 1969
- Monitum in Balduini III Historiae vel Antiochenae Prologum, in R. H. C. - H. Occ., Vol. V.
- Radulph of Caen, Gesta Tancredi Siciliae Regis in Expeditione Hierosolymitana, in R. H. C. - H. Occ., Vol. III.
- Raimond d'Agiles, Historia Francorum qui Ceperunt Jerusalem, in R.H.C. - H. Occ., Vol. III.
- Robert le Moine, Historia Hierosolymitana, in R.H.C. - H. Occ., Vol. III.
- Tudebod, De Hierosolymitano Itinere, in R.H.C. - H. Occ., Vol. III.

- Vitalis (Orderic), Historia Ecclesiastica, ed. M. Chibnall, 6 vols, Oxford, 1975.
- Walter The Chancellor, Bella Antiochena, in R.H.C. - H. Occ., Vol. V.
- William of Malmesbury, Gesta Regum Anglorum, 2 vols, ed. W. Stubbs, in R. S., London, 1889.
- William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the Sea, 2 Vols., trans and annotated by Emily Babcock and A. C. Krey, New York. 1943.

(ب) المصـــادر العربية

- ابن الأثير الجزرى (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣م) أبو الحسن بن أبى الكرم الملقب عز الدين :
  • الكامل فى التاريخ • - ١٢ جـ - القاهرة (المطبعة الأزهرية) ١٣٠١ هـ .
- ابن العديم (ت ٦٦٠ هـ/١٢٦٢م) كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبى جرادة :
  • زبدة الحلب من تاريخ حلب • - ٣ جـ - تحقيق سامى الدهان - دمشق ١٩٥٤م .
- ابن القلانسى (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠م) أبو يعلى حمزة بن أسد الدين على بن محمد :
  • ذيل تاريخ دمشق • - بيروت (مطبعة الآباء اليسوعيين) ١٩٠٨م .
- ابن واصل (ت ٦٩٧ هـ/١٢٩٨م) جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم :
  • مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب • - ٣ جـ - تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال - القاهرة ١٩٦٠ م .
- أبو الفدا (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١م) الملك المؤيد عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن على :
  • تقويم البلدان • - نشره رينو ودىسلان - باريس ١٨٤ م
- الطرطوسى (عاش فى القرن ٦ هـ / ١٢ م) مرضى بن على :
  • تبصرة أرباب الألباب فى كيفية النجاة فى الحروب من الأسواء ونشر أعلام الأعلام فى العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء • - نشره مع ترجمة فرنسية ، كلود كاهن : انظر .

(جـ) المراجع الثانوية الأجنبية

- Brundage (James), An errant Crusader, stephen of Blois, in Traditio, Vol. 16, 1959.
- Cahen (Claud), La Syrie du Nord a l'Epoque des Croisades et la principaute Franque Antioche, Paris, 1940.
- Chalandon (F.), Histoire de la Première Croisade, Paris, 1925.
- Charanis (Peter), Aims of The Medieval Crusades and how they were viewed by Byzantium, in Ch. H., vol - 21, 1952.
- Davis (R. H. C.), William of Tyre, in Relation between East and West in the Middle Ages, ed. by Derek Baker, Edinburgh, 1973, pp. 64 - 76.
- Duc De Castries, La Conquête de la Terre Sainte par Les Croisés, Paris, 1973.
- Edbury (Peter) and Rowe (J.G.), William of Tyre and the Patriarchal election of 1180, in E. H. R., vol. 366, 1978.
- Ehrenkreutz (A. S.), Arabic Dinars struck by the Crusaders, in J. E. S. H. O., 1964.
- Fink (H.), Fulcher of Chartres, Historian of the Latin Kingdom of Jerusalem, in S. M., vol. 5, 1975.
- France (J.), The departure of Tatikos from the Crusader Army, in B.I.H.R., vol. 44, no. 110, 1971.
- Glaesner (H.), Raoul de Caen, Historien et Écrivain, in R.H.E., vol. 46, 1951.
- Gransden (A.), Historical Writing in England (550 - 1307), 2 Vols, London, 1974.
- Gutstein (M.), Maccabees, in C. E., vol. 25, New York, 1984.

Cahen (Claud), Un Traité D'Armurerie Composé pour Saladin, in B. E. O., 1947 - 1948, pp. 103 - 163.

- القلقشندى (ت ٨٢١ هـ/١٤١٨م) أحمد بن على بن أحمد بن عبد الله :
« صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء » ١٤ جـ - القاهرة ١٩١٣- ١٩٢٢م .
- ياقــوت الرومى الحمــوى (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨م) أبو عبــد الله ياقوت بن عبد الله الملقب شهاب الدين :
« معجم البلدان » - ٤ جـ - ليبزج ١٨٦٦ - ١٨٧٠ م .

– Richard (J.), Raymond d'Aguilers, Historien de La Première Croisade, in J.S., 1971.

– Riley - Smith (J.), A Note on Confraternities in Latin Kingdom of Jerusalem, in B. I. H. R., vol. 44, 1971.

– Runciman (steven), – The First Crusaders' Journey across The Balkan Peninsula, in B., vol. 18, 1948.

– The Holy Lance Found at Antioch, in A.B., vol. 68, 1950.

– A History of the Crusades, 3 vols, Cambridge, 1968.

– Tascher (G.), Critical work on the sources of The First Crusade in A. R. of H. A., vol. 1, 1900.

– Vessey (D.W.C.), William of Tyre and the art of Historiography, in M. S. vol. 35, 1973.

– Hagenmeyer (H.), Die Kreuzzugsbriefe, Insbruck, 1901.

– Hamilton (B.), The Latin Church in the Crusader States, The Secular Church, London, 1980.

– Haskins (C. H.), The Normans in European History, Cambridge, 1915.

– Hill (John H. and Laurita L.), Raymond IV de Saint Gilles, Toulouse, 1959.

– Huygens (R. B. C.), Guillaume de Tyre Etudiant, Un Chapitre (XIX, 12) de son " Histoire ", retrouvé, in Latomus, vol. 21, 1962.

– Editing of William of Tyre, in S. E., vol. 27, 1984.

– Krey (A. C.), William of Tyre, The Making of An Historian in the Middle Ages, in Speculum, vol. 15, no. 2, 1941.

– La Mont (J. L.), From Crusading Kingdom to Commercial Colony, in B.P.I.A.S.A, vol. 3, 1944 - 45

– Lopez (R. S.), Back to Gold, in E.H.R., vol. 9, 1957.

– Munro (Dana), The Speech of Pope Urban II at Clermont, in A.H.R., vol. XI, 1906.

– Nesbitt (J. W.), The rate of march of Crusading Armies in Europe, in Traditio, vol. 19, 1963

– Oman (Ch.), A History of the Art of war in the Middle Ages, 2 vols, London, 1924.

Ostrogorsky (G.), History of the Byzantine State, English trans. by Joan Hussey, Oxford, 1924.

– Prawer (J.), The Latin Kingdom of Jerusalem, Jerusalem, 1972.

– Rey (E. G.), Résumé de Histoire des Princes d'Antioche, in R.O.L., vol VIII, Paris, 1900 - 1901

– Les Seigneurs de Giblet, in R.O.L., vol. 3, Paris, 1906.

(د) المراجع العربية والمعربة

- السيد الباز العريني (دكتور) :
  « مؤرخو الحروب الصليبية » ، القاهرة ، ١٩٦٢ م .

- السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :
  « التاريخ والمؤرخون العرب » . الاسكندرية ، ١٩٦٧ م .

- جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :
  - العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى،الاسكندرية ١٩٦٧م.
  - الإسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما في العصور الوسطى ، الاسكندرية ، ١٩٨٦ .

- جيبون (إدوارد) :
  « اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » نقله إلى العربية لويس إسكندر ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٦٩ م .

- حسين محمد عطية (دكتور) :
  - إمارة أنطاكية الصليبية وعلاقاتها السياسية بالدول الإسلامية المجاورة (١٠٩٨ - ١١٧١م) ، رسالة ماجستير لم تنشر بعد ، الاسكندرية ، ١٩٨١ م .
  - إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون (١١٧١م- ١٢٦٨م) ، الاسكندرية ١٩٨٩ م .

- رأفت عبد الحميد محمد (دكتور) :
  « الدولة والكنيسة » ، جـ ٤ - القاهرة ١٩٨٣ م .

- سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :
  - قبرص والحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٧٣ م .

- شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية ، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ١٦ ، القاهرة ١٩٦٩ م .
- الحركة الصليبية صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى ، جزءان ، القاهرة ، ١٩٧٥ م .

- محمد محمد مرسى الشيخ (دكتور) :
- الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها (١٠٩٧ - ١١٤٤ م) الاسكندرية ، ١٩٧٢ م .
- الإمارات العربية فى بلاد الشام فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين ، الطبعة الأولى ، الاسكندرية ، ١٩٨٠ م .

- ناصر النقشبندى (دكتور) :
- الدينار الاسلامى ، مجلة سومر ، جـ ٢ ، بغداد ١٩٤٤ م .

قائمة مصادر ومراجع الترجمة الإنجليزية

أ - المخطوطات

MS. Latin 14,378, Bibliothèque Nationale, Paris.

MS. Latin 5131, Bibliothèque Nationale, Paris.

MS. Latin 5511 A, Bibliothèque Nationale, Paris.

MS. Latin 1102, Bibliothèque de l'Arsenal, Paris.

MS. Latin Add. 8927, British Museum, London.

MS. Latin 262, Bibliothèque de la ville, Clermont-Ferrand.

MS. Latin 261, Burgerbibliothek, Berne.

ب - المصادر

Acta Sancti Brendani, edited by Patrick F. Moran (Dublin, 1872).

Acta sanctorum quotquot toto orbe coluntur, vel a Catholicis scriptoribus celebrantur (Antwerp, Paris, Rome, Brussels, 1643-1940).

The Alexiad of the Princess Anna Comnena, translated by Elizabeth A.S. Dawes (London, 1928).

Albertus Aquensis, Historia Hierosolymitana in Recueil des historiens des croisades, historiens occidentaux 4 (Paris, 1879). Hereafter cited RHC Occ 2.

Anonymi gesta Francorum et aliorum Hierosolimitanorum, edited by Heinrich Hagenmeyer (Heidelberg, 1890).

[illegible] Romanum (4 v. Ratisbonae, 1923).

COMNENA, ANNA. 1937-1945. Alexiade, Règne de l'empereur Alexis I Comnène (1081-1118), edited by B. Leib in Collection byzantine de l'Association Guillaume Budé (Paris).

La Chanson d'Antioche, edited by Paulin Paris (2 v. Paris, 1848).

Fulcherius Carnotensis, Historia Hierosolymitana, Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium in RHC Occ 3 (Paris, 1866).

—— Historia Hierosolymitana, Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium, edited by Heinrich Hagenmeyer (Heidelberg 1913).

The Golden Legend of Jacobus de Voragine, translated by G.Ryan and H.Ripperger, 1 (New York, 1941).

HAGENMEYER, HEINRICH. 1901. Die Kreuzzugsbriefe aus den Jahren 1088-1100 (Innsbruck).

Histoire anonyme de la première croisade, edited and translated by Louis Bréhier (Paris, 1924).

KREY, A. C. 1958. The First Crusade (Gloucester).

Patrologiae cursus completus. Series Latina, edited by J. P. Migne (Paris, 1844-1864). Hereafter cited as MPL.

Patrologiae Orientalis, edited by R. Graffin and F. Nau (Paris, 1907).

Notitiae duae Lemovicensis de Praedicatione crucis in Aquitania in RHC Occ 5 (paris, 1895).

Radulphus Cadomensis, Gesta Tancredi in expeditione Hierosolymitana in RHC Occ 3 (Paris, 1866).

Raimundus de Aguilers, Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem in RHC Occ 3 (Paris, 1866).

Rituale Ecclesiae Dunelmensis, edited by J. Stevenson, in Surtees Society 10 (London, 1839).

THORPE, BENJAMIN, editor and translator. 1844-1846. The Homilies of the Anglosaxon Church (2 v. London).

Tudebodus, Petrus, Historia de Hierosolymitano itinere in RHC Occ 3 (Paris, 1866).

[illegible] Tyrensis archiepiscopus, Historia rerum in partibus transmarinis gestarum in RHC Occ 1 (Paris, 1844).

William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the Seas.

Sainte le Crac des Chevaliers (Paris).
DEVIC, DOM, CL., and DOM J. VAISSETE. 1872-1893. Histoire générale de Languedoc (15 v., Toulouse).
DUNCALF, FREDERIC. 1928. "The Pope's Plan for the First Crusade". The Crusades and Other Historical Essays Presented to Dana C. Munro (New York).
DUSSAUDm RENÉ. 1927. Topographie historique de la Syrie antique et médiévale (Paris).
ERDMANN, C. 1935. Die Entstehung des Kreuzzugsgedankens (Stuttgart).
FINK, HAROLD S. 1959. "The Role of Damascus in the History of the Crusades". The Muslim World 49.
GAUSSIN, PIERRE-ROGER. 1960. L'Abbaye de la Chaise-Dieu (1043-1518) (Paris).
GOLB, NORMAN. 1966. "New Light on the Persecution of French Jews at the Time of the First Crusade"> Proc. Amer. Acad. Jewish Research 34
GROUSSET, RENÉ. 1934-1936. Histoire des croisades et du royaume franc de Jerusalem (3 v., Paris)
HAGENMEYER, HEINRICH. 1902-1911. "Chronologie de la première croisade, 1094-1100". Revue de l'Orient latin 6-8.
____ 1876. Peter der Eremite. Ein Kritischer Beitrag zur Geschichte des ersten Kreuzzuges (Leipzig).
HERMANNSON, HALLD'OR. 1936. The Problem of Wineland". Islandica 25
HILL, JOHN HUGH. 1951, "Raymond of Saint-Gilles in Urban's Plan of Greek and Latin Friendship" Speculum 26.
HILL, JOHN HUGH and LAURITA L. 1953 "The Convention of Alexius Comnenus and Raymond of Saint-Gilles". Amer. Hist.

translated by E.A. Babcock and A. C. Krey (New York,1943).

جـ - المراجع

ALPHANDÉRY, P. and A. DUPRONT. 1954. La chrétienté et idée de croisade (Paris).
ANDRESSOHN, J. C. 1947. The Ancestry and Life of Godfrey of Bouillon (Bloomington).
ARBELLOT, ABBÉ. 1881. Les Chevaliers Limousins à la première croisade (Paris).
ATIYA, A. S. 1962. The Crusade: Historiography and Bibliography (Bloomington).
BALDWIN, MARSHALL W. 1940. "Some Recent Interpretations of Pope Urban's Eastern Policy". Catholic Hist. Rev. 25.
BRUNDAGE, JAMES A. 1959. "Adhémar of Puy The Bishop and His Critics". Speculum 34.
____ 1960 "An Errant Crusader: Stephen of Blois." Tradition 16
____ 1964 "Recent Crusade Historiography: Some Observations and Suggestions" Catholic Hist. Rev 49.
CASTAING-SICARD, MIRELLE. 1961 Monnaies féodales et circulation monétaire en Languedoc (X-XIII siècles) in Cahiers de l'association Marc Bloch de Toulouse. études d'histoire méridionale (Toulouse).
DALY, WILLIAM 1960. "Christian Fraternity, the Crusaders, and the Security of Constantinople. 1097-1204: The Precarious Survival of an Ideal". Mediaeval Studies 22.
DAVID, CHARLES W. 1920. Robert Curthose, Duke of Normandy (Cambridge).
DESHAMPS, PAUL. 1934. Les Châteaux des croisés en Terre

Rev. 53.
LA MONTE, JOHN L. 1940. "Some Problems in Crusading Historiography". Speculum 15.
LEA, H. C. 1892. Superstition and Force (Philadelphia).
MAURY, ALFRED. 1896. Croyances et légendes du Moyen Age (Paris).
MAYER, HANS EBERHARD. 1960. Bibliographie zur Geschichte der Kreuzzuge (Hannover).
____ 1960. "Zur Beurteilung Adhemars von Le Puy". Deutsches Archiv n. 2.
MUNRO, DANA C. 1906. "The Speech of Pope Urban II at Clermont, 1095". Amer. Hist. Rev. 11.
NICHOLSON, ROBERT LAWRENCE. 1940. Tancred: A Study of His Career and Work in Their Relation to the First Crusade and the Establishment of the Latin States in Syria and Palestine (Chicago).
PAPON, JEAN-PIERRE. 1778. Histoire générale de Provence 2 (Paris).
PORGES, WALTER. 1946. "The Clergy, the Poor, and the Non-Combatants on the First Crusade". Speculum 21.
RÉAU, LOUIS. 1955. Iconographie de l'art Chrétien (Paris).
REY, EDOUARD G. 1869. Les Familles d'outre-mer, de Du Cange (Paris).
RIANT, PAUL. 1881. "Inventaire critique des lettres historiques des croisades". Archives de l'Orient Latin 1.
ROUSSET, P. 1945. Les Origines et les caractères de la première croisade (Neuchâtel).
RUNCIMAN, STEVEN. 1951. A History of the Crusades 1 (Cambridge).

Rev. 58.
HILL, JOHN HUGH and LAURITA L. 1954. "Justification historique du titre de Raymond de Saint-Gilles: 'Christiane milicie excellentissimus princeps'". Annales du Midi 66.
HILL, JOHN HUGH and LAURITA L. 1955. "Contemporary Accounts and the Later Reputation of Adhémar, Bishop of Puy". Medievalia et Humanistica 9.
HILL, JOHN HUGH and LAURITA L. 1959. Raymond IV de Saint-Gilles 1041 (ou 1042)-1105. Bibliothèque Méridionale, Série historique 35 (Toulouse).
HILL, JOHN HUGH and LAURITA L. 1960. "L'Allégorie chrétienne dans les récits relatifs au Wineland". Le Moyen Age n. 1-2.
HILL, JOHN HUGH and LAURITA L. 1962. Raymond IV, Count of Toulouse (Syracuse).
HOWORTH, SIR HENRY H. 1912. Saint Gregory the Great (London).
JAURGAIN, JEAN DE. 1902. La Vasconie, étude historique et critique sur les origines du royaume de Navarre, du duché de Gascogne, des comtés de Comminges d'Aragon, de Foix, de Bigorre, d'Alava et de Biscaye, de la vicomté de Béarn et des grand fiefs du duché de Gascogne 2 (Pau).
KLEIN, CLEMENS. 1892. Raimond von Aguilers, Quellenstudie zur Geschichte des ersten Kreuzzuges (Berlin).
KNAPPEN, MARSHALL. M. 1928. "Robert II of Flanders in the First Crusade". The Crusades and other Historical Essays Presented to Dana C. Munro (New York).
KREY, A. C. 1958. The First Crusade (Gloucester).
____ 1948. "Urban's Crusade__ Success or Failure". Amer. Hist.

___ 1950. "The Holy Lance Found at Antioch". Analecta Bollandiana 68.

SETTON, KENNETH, M. 1955. A History of the First Crusade, The First Hundred Years 1 (ed. Marshall Baldwin, Philadelphia).

SMAIL, R. C. 1956. Crusading Warfare (1097-1193). A Contribution to Medieval Military History (Cambridge).

SUMBERG, L. A. M. 1959. "The 'Tafurs' and the First Crusade", Medieval Studies 21.

TEYSSÈDRE, BERNARD. 1959. Le Sacramentaire de Gellone (Toulouse).

VILLEY, M. 1942. La Croisade. Essai sur la formation d'une théorie juridique (Paris).

WILLARD, RUDOLPH. 1935. Two Apocrypha in Old English Homilies in Beiträge zur Englischen Philologie 30.

YEWDALE, RALPH BAILEY. 1917. Bohemond I, Prince of Antioch (Princeton).

محتويات الكتاب

الموضـــــوع	الصفحة
تقديم بقلم الأستاذ الدكتور / جوزيف نسيم يوسف	٧ - ١٠
تصدير الترجمة العربية	١١ - ١٣
مقدمة الترجمة العربية :	١٥ - ٣٤
- الحملة الصليبية الأولى	١٥ - ٢٢
- الإنجاز الأدبي للحملة الصليبية الأولى	٢٣ - ٢٩
- ريموندأجيل وكتابه	٣٠ - ٣٤
مقدمة الترجمة الإنجليزية	٣٥ - ٤٣
الفصل الأول : الرحلة خلال دلماشيا وخيانة البيزنطيين	٤٤ - ٦٦
الفصل الثاني : الرحلة عبر الأراضي البيزنطية ، والعلاقات بين ريموند سانجيل وألكسيس كومنين	٦٩ - ٧٦
الفصل الثالث : حصار نيقية وعبور الأناضول	٧٧ - ٨٤
الفصل الرابع : إغلاق الطرق وبداية حصار أنطاكية	٨٥ - ١٠٠
الفصل الخامس : المرحلة المتأخرة في حصار أنطاكية ، تشديد الحصار	١٠٣ - ١١٧
الفصل السادس : الإستيلاء على أنطاكية	١١٩ - ١٢٦
الفصل السابع : حصار كربوغا لأنطاكية والعثور على الحربة المقدسة	١٢٧ - ١٣٩
الفصل الثامن : هزيمة كربوغا	١٤١ - ١٥٠
الفصل التاسع : موت أدهيمار ، والإبلاغ عن رؤى	١٥١ - ١٦١
الفصل العاشر : الإستيلاء على البارة ومعرة النعمان	١٦٣ - ١٧٩
الفصل الحادي عشر : إستئناف الزحف ، وبداية حصار عرقة	١٨١ - ١٩٤
الفصل الثاني عشر : رؤى ومحنة الحربة المقدسة	١٩٩ - ٢١٣
الفصل الثالث عشر : التخلي عن حصار عرقة ، واستئناف الرحلة إلى بيت المقدس	٢١٤ - ٢٣٣
الفصل الرابع عشر : حصار مدينة بيت المقدس والإستيلاء عليها	٢٣٥ - ٢٤٥
الفصل الخامس عشر : الأحـــداث التي تلت سقوط بيت المقدس ، ومعركة عسقلان	٢٤٧ - ٢٦٨
ثبت أهم الأحداث التاريخية	٢٦٩ - ٢٧١

الموضـــــوع	الصفحة
فهرست الخرائط	
- خريطة رقم (١) : خط سير القوات البروفنسالية حتى أنطاكية	٩٧
- خريطة رقم (٢) : الصليبيون في بلاد الشام وفلسطين	١٠١
- قائمة المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها الترجمة العربيـــة في المقدمة والتعليق	٢٧٣ - ٢٨٦
- قائمة مصادر ومراجع الترجمة الإنجليزية	٢٨٧ - ٢٩٤
محتويات الكتاب	٢٩٥ - ٢٩٧